بتونيا

زهرة المجرة

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2021\7\3706)

بتونيا زهرة المجرة/ نعمة عبدالله محمد الزعبي .- عمان: دارالرواية العربية للنشر و التوزيع، 2021.

رقم الإيداع:2021\7\3706

المواصفات: الروايات العربية // الأدب العربي // العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أوأي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة

2021

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أونقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر

بتونيا

"زهرة المجرة"

نعمة الزعبي

كلُّ رواية عظيمة؛ ما هي إلا محاولة.

هذه الرواية: تجربتي الأولى, وليدةِ قلبي, أكبر أبنائي في مسيرةَ الكتابة.

أتمنى أن تنال إعجابكم, أن تَصبح صديقة وحدتكم و لو لساعة, أن تدخل إلى قلوبكم قبل حناجركم.

الإهداء

إلى كلّ شخصٍ أشاد بكتاباتي, إلى من رأى النور في طريقي, الداعمين الجميلين قلباً و قالباً, إلى أول من خطّ قَلَمي اسميهما, إلى كُل من آمن بموهبتي.

أهديها: للورق, والأقلام, لبنات أفكاري, واختلاجات صدري, أهديها للمواقف, والسنين, لِطفولتي التي صَنَعَت منّي ما أنا عليه الآن.

أهديها لقلبي, ولقلوبكم.

-"إما الاحتضان أو الطلاق".

قلتُ جملتي هذه و وليت متجهةً إلى المطبخ, فلم أعد أحتمل أكثر, عشر سنوات كانت كافية؛ لتجعلني أطلب حقي في أن أكون أم, وأعيش تفاصيل هذه الكلمة, كانت أُمنيتي الوحيدة أن يُقال لي: "مبروك أنتِ حامل".

-"هل تذكري ما قلتُ لكِ في الماضي؟"

قال هذا: وهو يصفق الباب, ويرمقني بنظرات اللوم والحسرة.

-"نعم, لكنني اكتفيت من الصبر, ولوم عائلتك لي على أنني المُسبب بالعقم, لم أطلب منك الكثير, أريد طفلاً يناديني ماما. ألم تتمنى ذلك قط؟."

-" وهل تظني أنني لم أطرح فكرة الاحتضان أمام والدتي؟"

-" وماذا قالت؟"

التفت إلى يمينه موليني ظهره وقال:

-"رَفَضَت, وزمجرت, وخافت من كلام الناس, وظنونهم, ثم أنهت كلامها بأنها لا تُريدني؛ إذا فعلتها. حتى أنها طلبت مني الزواج بأخرى. ماذا أفعل؟ أعطني حلاً مناسباً؟"

-" لا تُخبرها بأننا سنحتضنُ طفلاً "

-" وكيف ذلك؟ إجراءات الاحتضان تحتاج لوقت, وشروط كثيرة."

قاطعته هنا, وكلي حماس بأنه يوافقني الرأي :

-"دعنا نجرب, ثم نقرر, أرجوك."

وبعد حوارٍ طال قال:

-" على بركة الله. لكن إذا لم يتم هذا الأمر؛ ستُغلقين قصة الاحتضان كلها."

ما حيلتي إلّا إن أُجاريه لشوقي لكلمة ماما, نحن الإناث منذ نشأتنا نحلم بالأمومة: فترانا نرعى الدمى, ونداريها, إلى أن نتزوج فيصبح حِلمُنا الوحيد طِفل نبيع الدنيا لأجله, ننتظره بفارغ الصبر, فكيف بهذا الانتظار على سدى ؟. كم ذرفتُ مِنَ الدموع خفيةً عن زوجي؛ كي لا أشعرهُ بالذنب .

أذكر قبل سنين حينما صارحتْ أمي بأني أريد الطلاق, قالت لي:

"إياكَ يا ابنتي! هذا امتحانٌ لكِ كامرأة, يجب أن تُظهري الوفاء له. "

قُلتُ لها : لكنني أريد طفلاً. أنتِ لا تعلمين بحالي وأنا أقف أمام مدارس الأطفال, في الحدائق, المطاعم, بكل مكان. وأنا أُراقب الأطفال, وأتَحسر على حالي. عادت وصفعتني بكلماتها:

" وكلام الناس, ألا تخافين من كلمة مطلقة ؟."

ومن بعد هذا الحديث لم أفتح موضوع الأطفال قط, ولا حتى مع زوجي. أما اليوم فقد طفح الكيل.

في اليوم التالي اصطحبني زوجي إلى مديرية التنمية الاجتماعية, قدمنا طلب لاحتضان طفلة؛ لأن زوجي أراد هذا تحسباً للمستقبل, ولمعتقداته بأن الطفلة مهما كان ستبقى في المنزل, أمام ناظرينا. طلبوا منا وثائق عدة: كدفتر عائلة, وحجة إسلام, وصورة عن عقد الزواج, وتقرير طبي عن عجز زوجي, وأن يكون دخلنا جيداً.

و بعد مرور أسبوعٍ.. زارتنا أخصائية اجتماعية؛ للاطمئنان على وضعنا الاجتماعي, والاقتصادي, والسكني, وأخبرتنا أن ننتظر دورنا, لا أُخفيكم فرحتي كانت لا توصف, وأحلامي قيد التحقيق.

-"حياة..."

رفعتُ عيناي عن كتاب العناية بالأطفال, وحدقتُ به.

-"ماذا سنخبر والدتي إذا أتى دورنا في الاحتضان؟ وكما تعلمين, لا يوجد لديهم أطفال أقل من عمر السنة؛ أي ستفتضح كذبتنا في بدايتها."

-"ما رأيك في أن نسافر لبلدةٍ مجاورةٍ؟ هكذا لن تكشف كذبتنا, نختفي عن الأنظار لفترة, وخلال هذه المدة نُخبرها بأنني حامل."

-" أتظنين أن هذا بالأمر السهل؟ وعملي ماذا أفعل به؟ وما الكذبة التي سأخبرها بها؛ لتصدق أمر السفر؟ "

-"نتدبر ذلك, أرجوك لا تُغير قرارك بهذه السرعة, ألم تكن منشرح الصدر قبل أيام؟ أتركها للمولى. "

كنت أقول كلماتي وقلبي يرتجف, هل سيغير رأيه؟ هل سيُحطم حلمي قبل أن يتحقق؟. يا رب "اللهم إني مغلوبٌ فانتصر".

في اليوم التالي.. خرج زياد إلى عمله, وأنا ذهبت لأتم أعمال المطبخ: ففي المساء ستزورنا والدة زياد, وشقيقته. وأنا غارقةٌ في لف أوراق العنب, وأفكاري التي لا نهاية لها, ودموعي التي تُبلل وجهي, سمعت طرقاً على الباب, ذهبت لأفتح؛ فإذ بها إحدى الطالبات اللواتي يسكن بجانبنا.

-" تفضلي بالدخول. "

-"حنان: أعتذر, لقد أزعجتكِ في هذا الوقت الباكر, كنت سأسألك: هل عندك شكٌ أنكِ أحلى, وأغلى امرأةٍ في الدنيا؟"

كان أخر ما أتوقعه, أن أضحك في وضع كهذا, أخرجت قهقهات لم أجريها منذ زمن.

-"حياة: جزاكِ الله عني خيراً, لقد أضحكتني وأنا في مزاجٍ سيء. تفضلي بالدخول."

-"حنان: أشكركِ. نفذ البن من عندنا, وأنا لا أستطيع أن أَصْحو قبل أن أشرب كأساً من القهوة "

-" حياة: تفضلي بالدخول. إذاً سنشربها معاً؛ قبل أن أعطيكِ البن"

توجهنا إلى المطبخ: مقر الدموع, والغصات خاصتي. نسيت أن أخبركم: حنان من دولة مجاورة؛ أتت لتدرس هنا, وأظن أن هذه هي السنة الأخيرة لها هنا. توجهت بسؤالها:

-" كيف وجدتِ الحياة هنا؟"

-" جميلةً بشكل لا يصدق: بدون عائلة, ولا أوامر, ولا حدود. أفعل ما أشاء"

ومن سؤال إلى آخر, حتى حان دوري للإجابة عن أسئلة حنان.

-"حنان: مالي أراكِ عابسةً مُثقلةً بالهموم, ومنتفخة الجفون؟"

صمتُّ قليلا ثم قلت:

-" أريد طفل. أريد أن أصبح أم "

وحدثتها بكل شيء: كنت أحتاج لمن يستمع إلي دون أن أُكون محقوقة, وبعد حديثٍ طال, ودموعٍ إنهمرت, قالت:

-" أستطيع مساعدتك."

-"كيف بالله عليك؟"

-" حنان: صديقتي بالسكن حامل في شهرها الخامس"

صُعقت بما سمعت!

-" كيف؟"

-"حنان: لا داعِ لأُخبركِ كيف؟ لكنها حاولت أن تجهض, وذهبت إلى الأطباء واحداً تلو الآخر, وكأنهم اتفقوا على الإجابة: عمر الجنبين يتعدى

العمر القانوني للإجهاض. لم يتبقى شيء على عودتنا, وعائلتها محافظة إن علموا بأمرها: سيقتلونها "

لم أعي شيئاً مما قالته, وفي وسط أفكاري المتداخلة قالت:

-" أريدكِ أن تُربي الطفلة؛ فصديقتي تريد أن تتخلص منها, لكن تريد عشرة آلاف دينار مقابل ذلك؛ ستسدد ديونها بهذا المال. هل ستساعدينها ؟"

-"حياة: لحظة, لا أستطيع استيعاب ما تقولين. لِمَ لتتخلص من جنينها ؟ هذه جريمة, والمبلغ الذي تطلبه كبير جداً"

همّت بالنهوض متجاهلةً أسئلتي, ثم قالت:

-" أنتظر ردكِ. كُلُّ ما عليكِ إقناع زوجكِ والسلام"

ودعتها, وعدت أغوص بأفكارٍ أكثر تعقيداً, وأعد كلماتي؛ لإقناعِ زياد, لا أُخفيكم اعتلت البسمة شفاهي, ورحت أعمل بنشاطٍ مثل الفراشة .

عندما عاد زياد مساءً كنت قد أعددت مائدةً لا تكاد تخلو من صنف. زوجي وكعادته يُبهر بكل شيءٍ أفعله. جلسنا جميعاً نتناول الطعام, ونتشارك الحديث, وبعد فراغ الجميع من الطعام, انتقلوا إلى غرفة المعيشة. وافيتهم بعد قليل أحمل أكواب الشاي. كانت كلماتها كالدبابيس تُغرز بفؤادي:

-"هل من شيءٍ على الطريق يا حياة؟ أنتِ تُجيدين كل شيء, سوى إنجاب الأطفال"

أجبتها والدموع تتجمع في مقلتيَّ :

-" الله كريم, قريباً.. إن شاء الله."

واتجهت إلى مطبخي أُلقي بالسيول, التي بللت وجنتاي. تبعتني منى؛ أتت تحتضنني, وتربت على كتفاي, وتواسيني.

بعد مغادرة والدة زياد, وأخته. أخبرته بكل ما حدث معي صباحاً, واستدررت عطفه, وتوسلت إليه, كان رده ليس بأقل من رد والدته:

-" حياة أنتِ وعدتني أن تُغلقي هذا الموضوع إن لم يتم. هذا كل ما في جعبتي لكِ. "

-"إذن طلقني..."

لم أعي ما خرج من فمي: ذهبت بسرعة البرق إلى غرفتي, تناولت حقيبة, وبدأت أفرغ بها أمتعتي. أوداجي تكاد تتشقق من شدة الغضب, أتخبط هنا وهناك لا أدري ماذا أفعل؟.

-"كما تُريدين."

وصمت...

-"متى ستُطلقني؟"

-"كما تريدين, سنربي الطفل."

التفت إليه أتحقق مما يقول: فإذ بعينيه مُتجمرتين, تنسكب منهما الدموع. اقتربت منه, ووضعت يداي على خديه, فرفعهما بيديه, وأسقطهما تتمايلان للأمام تارةً, وللخلف تارةً أخرى, ثم قال:

" لن أنسى لكِ هذا ما حييت."

وخرج...

في صباح اليوم التالي.. ذهبتُ أنا وزياد إلى والدته, وأخبرناها بحملي؛ فانفرجت أسارير وجهها, واعتذرت مني على كلام البارحة. رأيت منها ابتسامات لم أعهدها, ومديح لم يسبق لي أن سمعته, طبعاً من بعد تحقيقٍ طويل, ظننته لن ينتهي.

-"حياة: سأُسميها بتونيا إذا كانت أنثى"

-"هل ستُطلقين عليها اسمي ؟"

-" إذا قبلتي بهذا يا أمي."

-"لِمَ لا اقبل, هذا لطفٌ منكِ عزيزتي "

حتى زوجي الغاضب ابتسم, وأثنى علي, ثم أخبرتها أنني حامل بالشهر الثالث. طبعاً لم يمر الأمر بدون تحقيق آخر. في النهاية أخبرتها أنني

سأُمضي ما تبقى من حملي عند عائلتي, لم تقبل بادئ الأمر, لكنها استسلمت لرغبتنا.

مرت الأسابيع, والشهور, وأنا حبيسة المنزل؛ أنتظر وزوجي موعد الولادة. ها هي الآن في شهرها التاسع, وكما تعلم والدة زياد في السابع. كان زياد قد جهَّز كل ما يخص بتونيا الصغيرة: من دمى, وملابس. أصبح لديها غرفتها الخاصة, المبهجة, كانت من أبهى غرف منزلنا.

صوت رنين الهاتف.. انطلقت مسرعةً:

-"حنان, ماذا حصل؟ هل أنتم بخير؟"

-"حنان: تمهلي لم يحدث شيء, غداً سأُحضر لكِ الطفلة"

أجبتها وقلبي ينتفض فرحاً, وجسدي يرتجف:

-" الحمد لله..الحمد لله. وأخيراً. أنتظرك غداً بفارغ الصبر عزيزتي "

-" لكن لا تنسي أمر النقود. "

-" بالتأكيد. سأنتظرك غداً"

أغلقت الهاتف, وطلبت زياد, أجابني:

-"ما أخبارك عزيزتي؟"

-" وُلِدت الطفلة يا زياد, ولدت بتونيا"

أتت حنان تحمل الصغيرة: أخذتها منها, احتضنتها, كانت فرحتي بها عارمة, حتى زياد حملها, وسالت دموعه استقبالاً لها. الحمد الله كثيراً أصبح لدينا طفلة.

-" هذا المبلغ الذي طلبتِّن "

شكرتنا ووصتنا بالطفلة, ثم خرجت. الطفلة كانت تبلغ من العمر أسبوعاً, كما قالت: ولم أعلم لِمَ لم تخبرنا كل هذه المدة؟ على كل حال..أصبحتُ أماً. كنت قد حُقِنت بهرمونات؛ لإدرار الحليب: كي أستطيع إرضاع الصغيرة, ولأصبح أمها بالرضاعة, وتحل لزوجي.

ذهب زياد وأحضر والدته, وأخته. كنت أرى حياتي تبتهج من جديد, لون من أجمل ألوان الطيف يقطن في منزلنا. ومرت السنين والطفلة تكبر بكنفنا بكل سعادة: باستثناء أخر خمس سنوات.

ها هي الآن طفلتي تبلغ من العمر ستة عشر عاماً: فتاة مشاكسة, عنيدة وحادة الطباع, لكنها تزداد جمالاً يوماً بعد الآخر: بيضاء, شعرها كستنائيّ اللون, متوسط الطول, عيناها واسعتين كأنهما عينا زياد, تختلفان باللون وطول الرموش؛ فصغيرتي تمتلك رموشاً كالسهام, يقطر من بينهما العسل.

-"ماما.. ماذا حضرتِ لنا اليوم؟"

-"كُل ما تشتهيه نفسكِ عزيزتي"

-"بتونيا: هل تعلمين يا أمي أنني أحبكِ أكثر من أي شيءٍ في الدنيا؟"

-" باتي؟!"

-"أمي, هل نزور بيت جدتي اليوم؟"

-" ماذا يدور برأسك أيتها الخبيثة؟"

-"حسناً. وعدت سلمى أن ندرس سوياً اليوم "

-" حياة: صديقة جديدة؟"

-"بتونيا: لا يا أمي, تعرفت عليها منذ بداية السنة الدراسية؛ لكن اليوم بالصدفة علمت أنها تُقيم بقرب منزل جدتي. "

-"أُطلبي الإذن من والدك, لا شأن لي"

أجابتني بتنهيدة:

-"أنتِ تعرفين أبي, يعارض كل شيءٍ يخصني"

-"لا يا عزيزتي, يخاف عليكِ لا أكثر"

-"من ماذا؟ ولما؟ هذه أول مرةٍ أطلب الذهاب لبيت صديقةٍ لي"

-"حياة: حسنا يا باتي اذهبي, واغسلي يديكِ؛ لنتناول الطعام, ثم أتكلم مع والدكِ"

-"تعيش أمي..."

*****

يَعْلُو الصراخ كالعادة من أجلي, لقد مللت من حالهم, فأبي يعارض كل ما أرغب به, يريد مني أن أكون مثالية بكل شيء: من درجات, وأخلاق وتهذيب. حتى مؤخراً منعني من مشاهدة التلفاز. انتظروا قليلاً سيحرمني المدرسة أيضاً. "أستغفر الله العظيم".

قطع حبل أفكاري صوت أبي:

-"بتونيا!"

ركضت باتجاهه:

-"ماذا تريد يا أبي؟"

-" سنذهب الآن لزيارة جدتك؛ لكنكِ لن تذهبي لبيت سلمى"

-"لكن يا أبي ..."

قاطعني صوته:

-" لتأتي هي لبيت جدتك؛ إن كنتما تنويان الدراسة."

-"بتونيا: حسناً سأخبرها, أمي هلَّا أعطيتني هاتفكِ؟"

والدي بزمجرة:

-"ماذا تُريدين به؟ ألم أخبركِ أنه الهاتف ممنوع؟ "

أجبته بيأس:

-"كنت سأطلب سلمى؛ لأخبرها أن تأتي إلى منزل جدتي بعد ساعة."

-"زياد: أطلبي الرقم, أنا سأخبرها"

ماذا يُريد والدي؟ لم أعد أحتمل قلة ثقته بي, هل هذا خوفٌ علي كما تقنعني والدتي؟.

-"بتونيا!"

انتبهت لصوته...

-"إنه مُسجل باسمها على هاتف ماما"

-"زياد: اذهبي وارتدي حجابك "

-"بتونيا: كما تريد"

ذهبت إلى غرفتي أمطر من دموعي على وجنتاي: أتهدد, وأتوعد

سأخبر جدتي بمعاملته هذه لي, إنه لا يستمع إلا لها. أتت والدتي تمسح على شعري وتحتضنني, ثم قالت بعطف:

-"أرجوكِ يا طفلتي, لا تغضبي منه, هو يحبك, و ..."

قاطعتها:

-" ولا يثق بي, يخاف أن أرتكب الأخطاء. كل يومٍ يُحذرني, ويتوعد لي بأقسى العقوبات إذا أخطأت, هل هذا هو حبه لي؟, أنا سأُخبر جدتي عنه"

أمسكت بكلتا يداي وقالت بتوسل:

-"بنيتي, هذه من أسرار منزلنا, لا يصح أن نُخبر بها أحد. اصبري قليلاً"

أمي تخاف من شيء, لا أستطيع الوصول إليه:

-" إلى متى يا أمي؟ مرَّ أكثر من خمس سنوات, وهو يعاملني بقسوة, يعتذر ويعود إلى عهده"

قاطعنا كالعادة صوت والدي مزمجراً:

-" هيا, سأتأخر على عملي"

استقبلتنا جدتي بابتسامة ينشرح لها القلب, وأدخلتنا إلى غرفة المعيشة, جلس أبي معنا قرابة النصفِ ساعة, ثم استأذن وهمَّ بالخروج, وقبل خروجه رمقني بنظرةٍ أصبحت أعي معناها, وولى خارجاً. أوه لقد أتعبني والدي كثيراً, بعض الأحيان أجده حنون بشكل لا يصدق, وفجأة ينقلب حاله لما؟ وعلى ماذا؟ لا ادري.

-"بتونيا: أمي, هل أستطيع الخروج؟"

-"حياة: حسناً, لكن لن تتأخري, وأجلسا في حديقة جدتك, لا تبتعدي أرجوكِ"

-"بتونيا: أوف أمي, كما تريدين "

خرجتُ إلى الفناء الخارجي؛ أنتظر سلمى فإذ بها تُلوِح لي بيدها من باب بيتهم: تدعوني للحضور, ذهبت مسرعةً, منزلهم بجانب منزل جدتي, يفصل بينهما سورٌ عالٍ .

-"بتونيا: لِمَ لمْ تأتي؟ "

-"سلمى: والدتي صنعت قالباً من الحلوى من أجلنا, أريد أن نتناول منه معاً"

-"بتونيا: تعلمين أنني لا أستطيع؛ أخاف أن يحضر والدي فجأة"

-"سلمى:هيا أرجوكِ, لن نتأخر"

اقتنعت أخيراً, مع ذلك قلبي غير مطمئن, أشعر بسوءٍ يقترب. دخلنا إلى المطبخ, ألقيت ألتحية على والدة سلمى, ثم جلسنا حول الطاولة, وبدأنا بالتهام الحلوى. كنتُ قد خلعت حجابي, ووضعته على طرف الطاولة بعد إلحاحٍ آخر من سلمى. بعد فراغنا من الحلوى لونت وجه سلمى بالشوكولاتة التي تزين القالب, فردتها لي, بقينا نعبث مع بعضنا, ونضحك, ولم نشعر بالوقت.

فجأة دخل إلى المطبخ شاب وسيم, وعالٍ جداً؛ ربما لأنني جالسه, هه حتى لو وقفت هو أيضاً مرتفع, أعتقد أنه شقيق سلمى. تذكرتُ سريعاً حجابي ووضعته على وجهي؛ كي أخفيه, ثم أسرعت إلى الصالة, فلحقت سلمى بي. نظرت إلى حجابي فإذ به ملوث من آثار الشوكولاته, اصطحبتني الأخيرة إلى الحمام: نظفت وجهي مما علق به, واستعرت حجاباً من والدتها, ثم هممت بالخروج. أوقفني صوت ذو طبقة حادة, أقرب إلى "التينور" :

-"لو سمحتِ"

التفت إلى الصوت بفزع:

-"أنا!"

-"أجل, أنتِ"

-"نعم, ماذا تريد؟"

-"طولكِ بطول ساقي لِمَ تخجلين مني؟ صدقيني ليس من هواياتي أكل لحوم البشر "

صحيح هو أطول مني بثلاثةِ أضعاف: لكنه وقح, وبغيض. نظرت إليه نظرة استحقار, وقلت:

-"كلُ طويلٍ هبيل, وكلُ قصيرٍ نقير"

-" تقصدين كلُ قصيرٍ مكير "

-"نابليون قصير, وهزم النمسا, وروسيا "

ضحك باستهزاء, وقال:

-"صحيح, اتقِ شر من قرب من الأرض "

لقد شعرت بالغيظ منه, من يظن نفسه؟

-"وإن بُليت بشخصٍ لا خِلاق له *** فكن كأنك لم تسمع و لم يقل"

قلت هذا وخرجت, تبعتني سلمى؛ تعتذر عن وقاحة أخيها, وكانت الصدمة عندما توقفت سيارة والدي أمام منزل جدتي, ثم عاد بسرعةٍ إلى الوراء. اتكأت على الباب؛ علني أسند نفسي: قلبي انزلق أرضاً من شدة الخفقان, قشعريرة سرت بكامل جسدي, حالتي يُرثى لها. صوت أبي يعلو من جديد, أتى مسرعاً, انقض على يدي, كان ممتعضاً, أطرافه ترتجف, سحبني إلى السيارة, وهو يشتم, ويوبخ.

*****

-"وسيم: فتاة سليطة اللسان, قوية, هذا أقل ما يُقال عنها, أظُن أن والديها أهملا تربيتها في الثالثة من عمرها."

-"رنا: أنت من بدأت يا وسيم, تستحق كُلَّ ما قيل بحقك"

ضحكت من أعماق قلبي, وقلت:

-" لم أكترث سوى بالشعر الذي قالته, بالرغم من البلاهة التي تبدو عليها, إلا أنها على إطلاع "

أردفت:

" أنا أراها لأول مرةٍ في منزلنا, هل هي صديقةٌ جديدةٌ لسلمى؟"

-"رنا: لا, ليست جديدة, إنها حفيدة أم زياد جارتنا"

-"وسيم: هذه أول مرةٍ أراها: أو أنها أنسلت من أمامي إحدى المرات, ولم أبصرها؛ لقصر قامتها"

-"رنا: وسيم!"

بعد أقل من دقيقة: سمعنا صوتَ صُراخٍ في الخارج, نظرت من النافذة المطلة على المدخل: وإذ برجلٍ يشدها, وينهال عليها بسيلٍ من الشتائم, ثم ينطلق بمركبته, ويتوقف أمام منزلِ جيراننا. عندما حطَّ من سيارته, أخذ يشدها مرةً أخرى إلى الداخل, ما الذي حدث بأقل من دقائق؟!

عدت أدراجي لأنقل الخبر لوالدتي, وأنا في طريقي إليها أُشرع الباب, ودخلت سلمى: بوجهٍ مُصفر, وجسدٍ يرتجف. سارعت بالسؤال:

-"ما بكِ يا عزيزتي؟ ماذا حدث بالخارج؟"

-"سلمى: أخاف أن يؤذيها "

-"من هو؟"

-"سلمى: والدها؛ إنه رجلٌ متسلط, يختلق المشاكل, ويوبخها باستمرار"

والدتي سألت:

-" لماذا كان يصرخ عليها قبل قليل؟ ماذا فعلت؟."

-" يمنعها من كل شيء يا أمي: الهاتف, الخروج, اللعب, حتى من التنفس دون إذنه. يعتقد أنه يحميها هكذا, بالرغم من أنها وحيدته"

أمي بحكمة:

-" يخاف على ابنته يا عزيزتي, لكن الشدة لا تُفيد في هذا السن الحرج, ادعي الله له بالهداية "

قاطعت أمي بتهكم:

-" الرجل مُحق ابنته تفتقر إلى الأدب, من الواجب عليه إصلاحها"

ردت سلمى بقسوة:

-" وسيم المتعجرف, أُشفق عليك في بعض الأحيان"

وانصرفت مُتجهةً إلى غرفتها, لا أدري ما سر حُبها المفاجئ, لهذه الخرقاء."

*****

جرَّني إلى الداخل, ثم أسقطني أرضاً: أما الباقين فاحتشدوا حولنا, أمي أمسكت بي, وجذبتني إليها, وجدتي أصبحت تفصل بيننا, وبينه ؛لكنها لم تستطع كبح جِماحِ غضبه, باغتها, وصفعني على وجهي, دَفَعته عني بقوة وساعدتها عمتي منى.

اصطحبتني أمي إلى غرفة عمتي, لم تنزل دموعي بسبب الألم؛ بل لأنه قلل من شأني أمام جدتي, وعمتي. كانت المرة الأولى التي يصفعني بها أمام احد. كانت أمي تمسح دموعي تارةً وتمسح على رأسي تارةً أخرى. تكلمت وكلماتي تخرج متقطعةً من شدةِ شهقاتي:

-"لماذا لا يحبني؟ لِمَ يُعاملني كمشردة؟ لم أعد أشعر أنه والدي "

-"حياة: أرجوكِ يا ابنتي لا تُفكري هكذا؛ بل من شدةِ حبهِ لك يخاف أن تخطئي "

-" وما الخطأ في الجلوس مع صديقتي؟, وتناول الحلوى التي حُضرت من أجلي. "

قاطعتنا عمتي منى بطرقها على الباب, وقالت:

-"عزيزتي باتي ستبقي هنا هذه الليلة"

قالت أمي بتعجب:

-" ولِمَ لتبقى؟! "

-"لا أعلم, هكذا أتفق أخي, وأمي "

أردفت:

-"وزياد ينتظرك الآن في الأسفل؛ لتُغادرا"

همَّت أمي بالوقوف, احتضنتني, وقالت:

-"انتبهي لنفسك, سيُحل كل شيءٍ غداً, سيعتذر منكِ أعدكِ يا أبنتي"

وشرعت بالخروج, انطلقتُ إلى النافذة أراقبهما, كان أبي حاد الملامح مغتاظ, أما والدتي يغلب عليها الحزن, واليأس. بعد أن غادرا جلستُ على الأرض, تحت النافذة, وانسكبت دموعي قهراً, على ما أُعايشه منذ خمس سنوات. كيف لحنونٍ كأبي أن ينقلب إلى هذا الشخص الهمجي المتوحش؟.

بعد حين, أتت جدتي تُقبل رأسي, وتمسكني بيديها؛ لأهم واقفةً, وكالعادة واستني بكلماتها الرقيقة القريبة من القلب, ثم ذهبنا إلى المطبخ على نية تحضير السيريلاك: الوجبة الوحيدة التي لا زلت أتناولها بنهم, وبالخفية عن والدي الذي يؤذيني بكلامه, واستهزاءه من عاداتي الطفولية.

أنهيت وجبتي, وشاهدنا التلفاز معاً, كان يُعرض عليه فيلم شبابي, أين أبي عني؟ أوه... حتى وهو بعيد لا يخرج من عقلي, متى سيعود إلى عهده يا تُرى؟ أسكت ضجيج أفكاري صوت عمتي منى:

-"بتونيا! أتريدين الخروج إلى حديقة المنزل لنتبادل الهموم؟"

-"من ؟ أنا ؟!"

-"منى: لا, أمي"

-"بتونيا: لكن أبي, إذا علم بذلك..."

جدتي مقاطعةً لحديثي:

-" لا عليكِ منه, من سيُخبره؟ هيا يا ابنتي أُخرجي ورفهي عن نفسك"

جلسنا حول الطاولة نحتسي النسكافيه, ونتبادل الأحاديث, نسينا أنفسنا, وضحكنا, تبدل وجهي الساخط إلى البشوش الضاحك.

صوت رنين الهاتف, ابتسمت عمتي واستأذنت, بالتأكيد هذا أحمد خطيبها,

يالسعادتها! أهكذا يكون حال من يُحب؟ الحب بمفهومي ليس مُكتمل مع أنني أقرأ الكثير من الروايات الرومنسية, لكنني لم أجد شخصاً يستحق الحب, أو ربما لأنني لا زلت صغيرة على ذلك.

ألا يُحب الصغار؟, هه وما شأني بالحب, وبالأطفال؟, لِمَ أحاور نفسي بغباء؟ وإذا فكرت لوهلةٍ أن أُحب: سيدفنني والدي وأنا على قيد الحياة, ومن يستحق أن يستحوذ على قلبي؟ حتى أبي أود أن أُخرجه منه, لا أعلم كيف يظهر والدي حتى بجواري الداخلي؟.

ضحِكتْ على سذاجتي.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم, صوتُ صفير في هذا الوقت المتأخر من الليل, استدرت يميناً, ثم يساراً, نهضت, ولملمت فناجين النسكافيه, واتجهت إلى المدخل, أوقفني صوتٌ شَلَّ أطرافي عن الحِراك:

-"هي, يا عقلة الإصبع. ماذا تفعلين في الخارج في هذه الساعة المتأخرة؟"

التفت إلى الوراء, ورفعت بصري لمصدر الصوت, لم يُساورني الشك في أن يكون شقيق سلمى المُتغطرس, هو صاحب الصوت:

-"عفواً سيد شرشبيل, وما شأنك؟ "

ضحك بسخرية, وقال:

-"كنت أنتظر أن تُطلقي علي(صاحب الظل الطويل) لكن شرشبيل أعجبني أيضاً, يدل على وجلك مني يا سنفور مفكر, واعترافك بقصر قامتك"

استشطت منه غضباً, وقلت:

-"كلُّ ذي عاهةٍ جبار"

أكملت طريقي إلى المنزل, وأنا أشتمه, كانت عمتي منى تواصل الحديث إلى أحمد. أخذت التابلت اللوحي ودخلت إلى الإنترنت؛ أبحث عن وصفات, ومأكولات تُساعد في طول القامة, أمضيت بعض الوقت أستكشف, ثم اتجهت إلى المطبخ, قمت بسلق عشرين بيضة, وفي تلك الأثناء كنت أتناول البازيلاء, والموز, الملفوف, مُشتقات الألبان,

والأجبان, البطاطس, كل شيءٍ له علاقة بالطول, وكانت الخاتمة للبيض. كنت أشعر بالامتلاء لكنني مصرة على أن يزيد طولي بليلةٍ واحدة.

كانت عمتي قد أنهت حديثها على الهاتف, جالستها وتابعنا أحاديثنا. أوه أشعر بأني سأتقيأ, انطلقت مسرعةً إلى الحمام؛ أخرج كل ما ابتلعته, أمضيت ساعةً في الذهاب والعودة من الحمام, أصابني إسهال شديد (أجلكم الله) معدتي تئن من شدة الألم, انحلَّ جسدي, وفجأة أصابتني الحمى, وأشتد علي المرض بسرعةٍ قياسية.

عندما استيقظت وجدت نفسي بالمستشفى, تُحاوطُني عائلتي, والدتي تجلس إلى جانبي, وتُمسك بيدي, جدتي تُمسك بكتاب الله وتتلو منه, أبي يقف محاذاة النافذة, ويبدو عليه القلق, أما عمتي فلا تزال ممسكةً بهاتفها, وتقوم بالبث المباشر لأحمد, شددت على يد أمي, وطلبت منها بصوتٍ متقطع كأساً من الماء.

-"حياة: الحمد لله, استيقظت "

أخذت تُقبل يداي, ووجهي, اقترب أبي مني فأفسحت له أمي حيّزاً للوصول إلي, توترت, واضطربت, أمسك بيدي فسحبتها, قلبي ينتفض خوفاً منه.

قال بقلة حيلة:

"ابنتي باتي, وحيدتي, ونور عيناي, أرجوكِ سامحيني, قسوت عليكِ كثيراً, لم أقصد, تعلمين أن كل ما أفعله خوفاً عليكِ "

غصَّ بكلماته, وتسابقت دموعه بالانهمار, ربتت أمي على كتفه, واصطحبته خارج الغرفة.

سألت باستغراب:

-"ماذا حدث يا عمتي ؟ لِمَ أنا هنا ؟!"

أجابت:

-"تسمم غذائي, أجروا لكِ غسيلَ للمعدة"

تذكرت أنني لم أترك شيئاَ إلا وتناولته؛ بهدف زيادةِ الطول, أوف أشعر بغبائي بسبب المتخلف العقلي ذاك.

-"منى: هل كنت جائعةً إلى هذا الحد يا باتي ؟"

قالت هذا وضحكت, لم أجد جواباً للرد عليها, فبادلتها الضحك, ووضعت رأسي على الوسادة, أغمضت عيناي, لم أكن نائمة: كنت أستمع لِما يقولونه, لا أخفيكم, أعجبني خوف أبي وقلقه علي, شعرت بحبه لي.

في الصباح غادرنا المستشفى إلى المنزل, كان الهدوء يعم المركبة طوال الطريق, عند وصولنا طلبت الإذن, واتجهت إلى غرفتي, ناداني والدي, لوهلةٍ جفت الدماء بعروقي, فكرت بداخلي أنه سيُكمل ما لم يتمه البارحة: من ضربٍ, وصراخ.

-"بتونيا اجلسي بقربي يا أبنتي, أريد أن أتحدث إليكِ"

جررت قدماي إلى مكان تكومه, وجلست, قال:

-"صغيرتي الجميلة أعتذر منكِ على ما بدر مني, أعلم أنني بالغت في حمايتك, وحسابك, لكن لم يكن هدفي أن أبعثك بيديّ للإنتحار."

-"أنا..."

أسكتني بقوله:

-"باتي الصغيرة..سامحيني, أعدك أن أدرس تصرفاتي معك, وأن لا يتكرر ما حصل البارحة, أنتِ أول فرحتي, مدللتي. أتذكرين كيف كنتِ لا تفارقينني في صغرك؟ كيف كنتِ تنتظرين قدومي بفارغ الصبر؛ لتسردي علي ما حدث في يومك؟ اشتقت لتلك الأوقات يا باتي."

كان يتكلم وعينيه ممتلئةٌ بدموع السنين, استغربت طريقة كلامه, وهدوءه في الحديث, فجأةً أحاطني بذراعيه, وقال:

-"كنت لن أسامح نفسي لو تأذيتِ, عزيزتي أنتِ بهجةُ حياتي"

لم أستطع منع دموعي من الإنهمار, مرَّ وقتاً طويلاً على معاملةِ أبي القاسية معي, هل هذا ما يُدعى (بصفحةٍ جديدة)؟

توالت الأسابيع والأمور بيننا تسير على أفضل ما يرام, لا أخفيكم كانت تلك الأيام من أجمل أيام حياتي, كانت السعادة تغمر قلبي, كنت أدعوا الله كثيراً أن يُديم السعادة, والحب بيننا.

-" بتونيا! "

-"نعم أمي, ماذا تريدين؟ "

-"حياة: ألم تُنهي فروضكِ بعد؟"

-"بتونيا: بقي القليل حنونتي"

-"هيا عزيزتي, تكمليها بعد عودتنا من زيارة جدتك"

-"كما تريدين, سأُبدل ملابسي, وألحق بكِ"

أعتقد أن أمي لا تذكر أن اليوم يوم ميلادي, سيُصبح عمري سبعة عشر عاماً, وأبي سيزيد الضغط علي أكثر, أوه.. سأفكر بالأمور الجيدة, كيف سأنبه أمي لعيد ميلادي؟ سأُخبر عمتي, وهي بدورها تخبرهما.

وصلنا لبيت جدتي, وقبل ولوجي من الباب سمعت صوت الصراخ والتصفيق, كانت أمي قد جمعت صديقاتي, وأقاموا حفل عيد ميلادٍ لي في منزل جدتي, كنت أعتقد أنهم نسوا موعد ولادتي, كانت سعادتي عارمة, أخبرتكم سابقاً أنها أجمل أيام حياتي, وأعتقد أنها ستبقى الأجمل.

في نهاية الحفل رافقت سلمى إلى منزلها, عند وصولنا طلبت مني الدخول فقلت لها:

-" أرجوكِ لا تُحرجيني, وعدت أمي أن أُوصلك, وأعود"

-"سلمى: ألم تخبريني أن والدكِ قد تغير؟ "

-"أجل, أصبحت معاملته أفضل, لكنني لا أراهن على هذه الأمور "

-"سلمى: كما تشائين "

ظِلٌ كبير يُخيم على المكان, قبل أن ألتفت إلى مصدر الظلام, سمعت صوتاً أشمئز منه:

-"عقلة الإصبع, ماذا تفعلين هنا؟ أم أن والدك لا يعلم؟"

الآن تأكدت بأن هذا الظل لذاك البغيض الوسيم, استدرت نحوه, وقلت:

-"يُخاطبني السفيه بكل قبحٍ.....فأكره أن أكون له مجيب

إذا نطق السفيه فلا تجيبه.....فخيرٌ من إجابته السكوت"

-"وسيم: يا لك من متملقة, أظن أنك تحفظين الشعر دون أن تفهمي مغزاه"

-"بتونيا: ما أدراك؟ ربما أحفظه للرد على الجاهلين أمثالك"

قبض على معصم يدي ولواه, كتمت ألمي, وتظاهرت بالقوة, قطب حاجبيه ونظر إلي بحدة, شعرت بتسارع نبضات قلبي, حتى أنني ظننت بأنه يخفق بأُذنيَّ, ضاق نفسي, وبدأت ألهث, قال:

-" إياكِ أن تستهيني بي! وتستصغري عقلي مرة أخرى و إلا..."

كان هذا أخر ما سمعته قبل أن أفقد الوعي.

*****

لا أعلم ما الَّذي حدث لها, فجأةً سقطت أرضاً, ويدها ما زالت في قبضتي, انحنيت إلى الأسفل وحملتها إلى الداخل, وضعتها على الأريكة, أتت أمي مهرولةً تتساءل عما حدث للفتاة؟ أجبتها:

-"لا أعلم, فقدت وعيها في الخارج"

-"سلمى: بالتأكيد هذا ما حدث, لِمَ لا تخبرها من المتسبب بذلك؟"

نظرتُ إليها بحدة, وقطعتُ نظرتي؛ لتعود باتجاه كتلة البلاء المكومة على الأريكة.

-:رنا: سلمى, أحضري لي كوباً من الماء "

ثم قامت برفع قدميها للأعلى, أنا أُتابع بصمت, لا أخفيكم خفت أن يحدث لها خطبٌ ما بسببي, صوت أمي مرة أخرى:

" وسيم, اصعد لغرفتك, سأنزع عنها حجابها"

هززت رأسي موافقاً, واتجهت إلى غرفتي, أعتقد أنني جلست قرابة الخمسة عشر دقيقةٍ, وأنا أنتظر.

أسمع صوت أمي تتحدث, ربما استيقظت, هه حتى لو استيقظت لا أستطيع الخروج إلا عندما تذهب كتلة البلاء, عقلة الأصبع.

شتت أفكاري صوت طرق الباب, خرجت من غرفتي, كانت سلمى قد فتحت الباب, إنهما والدين عقلة الإصبع, والدها كان يصرخ حتى شعرت أن الجدران ستتصدع, كان يتوعد, ويتهدد, وزوجته تُحاول كبح جماح غضبه, نزلت الدرج متجهاً نحوهم, سمعته يقول:

-" أين حجابك؟ ارتديه بسرعة؟"

توقفت قليلاً, انتظرت بضعة دقائق, وخرجت. عندما رآني جُنَّ جنونه, بدأ يسب ابنته, ويستصغر من شأنها أمامنا, ثم انقض على يدها, وسحبها إلى الخارج, وصفق الباب خلفه.

-" ماذا يجري هنا؟"

-" سلمى: كل ما أصاب الفتاة وسيصيبها بسببك"

نظرت إلى أمي منتظراً أن تجيب؛ لكنها رمقتني بنظرةٍ تلقي فيها اللوم علي, انسحبتُ من بينهما إلى الخارج, تجولت في الشوارع قليلاً, ثم اتجهت إلى الملعب, كان هناك لعبة كرة سلة, جلست على إحدى المقاعد أشاهد

اللاعبين, نظري مصوب نحوهم, وتفكيري عند عقلة الإصبع, ماذا سيحصل لها؟ هل سيؤذيها بسببي؟ صحيح أنني أكرهها, لكنني لن أتحمل تأنيب الضمير.

-" هي, بما تُفكر؟"

-"وسيم : زيد! ماذا تفعل هنا؟"

-"زيد: أنا من سألتك في البداية"

-"وسيم: لا شيء, رأسي مشوش قليلاً"

-"زيد: أفضي ما بجعبتك يا وسيم, ما الَّذي يشغل بالك؟"

سردت عليه كل ما حدث من البداية, انزاح قليلاً من الهم عن كاهلي, فزيد صديقي, وأخي, وأبن عمي, ويعلم كيف يُحسن من مزاجي؟.

عدتُ إلى المنزل في وقتٍ متأخر, صعدت إلى غرفتي, كان الجميع نيام, والجميع هنا: هم أمي, وأختي. أما والدي؛ فقد فقدناه بحادث سيرٍ قبل عامين, لا أخفيكم غياب أبي كسر ظهري, أصبحت الحامي لأمي, وأختي بعد الله. ما زلت أشتاق إليه, كان قدوتي, وموجهي معلمي الأول, ارتحل عني في منتصف الطريق, لا أنا اكتفيت من وجوده, ولا أنا استطعت تحمل أعباء ما تركه لي.

التقطت البوم الصور, ورحت أسرح في حنايا أيام عودتها محالة, كنت أحاول صرف الأفكار السوداوية من بالي, وكلمات سلمى ترن في أُذناي (كلّ ما أصاب الفتاة وسيصيبها بسببك) تُرى ماذا سيصيبها؟!

*****

استيقظت على صوت والدة سلمى كانت تسألني:

-"هل أنتِ بخير عزيزتي؟"

عندما لم أجبها, أعادت طرح السؤال مرة أخرى, رفعت رأسي ببطء, وقلت :

-"بخير"

صوت رنين جرس المنزل...

ارتبكت, لا بل قلبي هبط بين قدمي, ربما شعرت بما سيُصيبني, انطلقت سلمى تفتح الباب, إنه صوتُ أبي " يا رب ألطف بي"

-"بتونيا..."

ارتعدت قدماي, وضاق نفسي, عادت نبضات قلبي تتسارع من جديد , حتى أنني لم أقوى على الوقوف. صوت أبي يصدح بعنف:

-" ماذا تفعلين هنا؟ وأين حجابك؟ ارتديه بسرعة"

التفت باحثةً عن حجابي, أخذته والدة سلمى, وأعطتني إياه, أمي كانت تُمسك بيد والدي؛ خوفاً من أن ينقض علي أمام الجميع, ارتديت حجابي وتوقفت, وفي هذه اللحظة, دخل وسيم, عندما رآه والدي: قطب ما بين عيناه, وبدأ يشتمني, تقدم مسرعاً نحوي, أمسكني من نفس المعصم الَّذي لواه البغيض, وشدني إلى الخارج: سحبني إلى المركبة, وألقاني على المقعد الخلفي, ثم قاد المركبة بسرعة, وهو يتهدد, ويتوعد.

طوال الطريق كنت أدعوا الله :أن يجعل غضبه برداً, وسلاماً علي.

الآن أصبحنا أمام المنزل, جررت قدماي ببطء, لم أعد أسمع نبضاتِ لقلبي, ربما توقف. أمي المسكينة تتبع والدي, وتتوسل إليه أن يهدأ, ويفكر بروية قبل أن يُحاسبني.

وعلى الباب خلع حزامه: وأخذ يضربني, والدتي تُحاول دفعه عني؛ لكنها لم تستطع التمكن منه, ضربني حتى احمر جسدي, هربتُ منه باتجاه غرفتي, فلحق بي, ولم يكتفي بالضرب, والشتم, أخذ المقص وبدأ يُقلم شعري, ولولا أمي لما تبقى لي شيئاً منه, ثم خرج وأغلق باب غرفتي بالمفتاح. كانت حالتي يُرثى لها.

ما المصيبة التي ارتكبتها لأعاقب بهذه القسوة؟ نظرت إلى الشعر المتناثر على بلاط الغرفة, وخنقتني العبرة, أمسكت بخصلاتٍ قريبة مني: ضممتها إلى قلبي, ورحت أنحب. لم أتجرئ حتى على رفع نفسي؛ فآلامي غلبت فضولي لرؤية نفسي بشعرٍ قصير, لا بل قصيرٍ جداً, أخذت أتحسس رأسي, يداي ترتجفان, وقلبي ينقبض. عاهدت نفسي حينها: أن اكره والدي, ولا أغفر له أبداً. أما وسيم فانتقامي منه سيكون مُختلف.

استيقظت على صوت آذان الفجر, كان قد غلبني النعاس في مكاني, على الأرض, وبالقرب من شعري.

كانت نظرتي مختلفة هذه المرة, كانت نظرةُ قوة, وتحدي. تمسكتُ بطرف السرير أساعد نفسي على النهوض, اتجهت إلى الحمام: توضأت, وأخذت أرتدي ملابس الصلاة, أتممت صلاتي, ورفعت يداي إلى الله, لم أكن أدري بما أدعوه, رفعتها, واكتفيت بذرف الدموع.

انبلق الباب وبان منه والدي, عندما رأيته؛ أعرضت بوجهي عنه, إقترب مني, ومسح على رأسي, أمسكت بيده ودفعتها.

-"أنا أعتذر, لم يكن قصدي أن أؤذيك "

لم أنطق بحرف اتكأت على الأرض, ووقفت, سألني:

-"أتشعرين بالألم؟ هل تُريدي أن أصطحبك إلى المستشفى؟"

اتجهت لسريري, استلقيت عليه بصعوبة, وضعت الغطاء على وجهي, وأغمضت عيناي.

قال:

-"هل ستنامين بملابس الصلاة؟"

أجبته وعيناي مُقفلتين:

-" وهل ستضربني إذا قلت نعم؟ أم ستحلق لي ما تبقى من شعري؟"

-" ابنتي! حقيقةً لم أكن أُدرك ما أفعل, غضبي أعمى بصيرتي, أعترف أنني بالغت بردة فعلي, أرجوكِ سامحيني واطلبي مني ما شئتِ, أي شيءٍ تُريدينه سيحضر"

-"أريد أن أنام. لو سمحت "

بعد دقيقة سمعت صوت أقدامه متجهةً إلى الخارج, عدت وأغمضت عيناي. هذه المرة يدٌ دافئةٌ تمسح على رأسي, استدرت لأرى؛ لم يُساورني الشك أنها أمي, حنونة روحي, كانت جفونها منتفخة, وبانت عروقٌ حمراء في عينيها.

-"هل أنتِ بخير عزيزتي؟ ماذا يؤلمك أخبريني؟"

أمسكت بيدها, ووضعتها على حنجرتي.

-" هنا يؤلمني كثيراً, أشعر بأنني أختنق "

أطلقت سراح دموعي بعدما تناثرت دموع أمي على وجهي:

-" أمي, أخبريني بالحقيقة, لِمَ أبي يُعاملني بقسوة؟ لا يثق بي؟ أشعر بأنه ليس والدي "

-"حياة: طفلتي أرجوك أخرجي هذه الأفكار من مُخيلتك, تعلمين كيف ينقلب حاله عندما يغضب"

-"أمي, نامي بجانبي "

-"حياة: كما تشائين صغيرتي "

دفنت وجهي بحضن أمي ورحت أغطُ بنومٍ عميق, رائحتها كانت أفضل من كل الأدوية المهدئة.

أيقظتني في الساعة الواحدة ظهراً, كان يبدو عليها الشحوب والتعب.

-"باتي هيا صغيرتي انهضي, سلمى هنا تريد الاطمئنان عنك"

نهضت من سريري, واتجهت إلى غرفة الضيوف حتى أنني لم أغسل وجهي.

-"سلمى: باتي ماذا حدث لوجهك؟ هل ضربك؟ "

-"بتونيا: لا تهتمي لي, اجلسي سأُحضر لكِ كأساً من العصير"

-"سلمى: لا أريد شيئاً, أخبريني ماذا حصل؟"

رفعت عن يداي وقدماي, وأريتها الألوان التي صُبغ بها جسدي, رأيت الذهول في وجهها, تجمعت بعض القطرات بعينيها, وأخيراً خلعتُ الحجاب عن رأسي؛ حينها لم تتمالك نفسها, وأطلقت العنان لدموعها لتفترش وجهها, أحاطتني بذراعيها وأخذت تنحب, سألتها:

-" هل تغير مظهري كثيراً؟"

-" لا, أبدا, أصبحتِ أجمل "

-"بتونيا: الأصدقاء لا يكذبون على بعضهم يا سلمى, لكن لا بأس أعذرك؛ فأنت أختي, لست صديقتي فحسب"

"حياة: بتونيا. صدقاً يا ابنتي أصبحت أجمل, لاق عليك الشعر القصير, يحتاج القليل من التهذيب لا أكثر "

أردفت :

-" هيا أذهبي وأرتدي ثيابك؛ لأصطحبك إلى صالون التجميل"

-"بتونيا: وأبي؟ "

-"حياة: لا تهتمي عزيزتي هو من طلب ذلك "

-"بتونيا: يقتل القتيل ويمشي بجنازته"

-"حياة: باتي أرجوك لا تُطيلي؛ إنه يشعر بالذنب, ولا يدري ما يفعل؟ لتسامحيه."

-"سلمى: إذن, وأنا سأرافقكما؛ إن سمحت لي الخالة حياة"

-" حياة: بالتأكيد تستطيعين عزيزتي, لكن ماذا عن عائلتك؟ "

-"سلمى: أخبرت أمي في الصباح أنني سأزور بتونيا بعد انتهاء الدوام"

-" حياة: إذن حُلَّ الموضوع, هيا صغيرتي بدلي ملابسك"

اتجهنا إلى صالون التجميل القريب من حينا, جلسنا مدةً ليست بقصيرة على مقاعد الانتظار. اقتربت منا صاحبة الصالون, وقالت:

-" أعتذر على الإطالة؛ فكما ترون الزبائن كثر اليوم"

-"حياة: لا مشكلة لدينا"

-"تفضلن بمن سأبدأ؟"

وقبل أن أقول أنا, نطقتا بذات الوقت وقالتا:

-"حياة: أنا "

-"سلمى: أنا "

بانت ابتسامتي, ونظرت إليهن نظرة شكر, وامتنان, وحب.

غريب كيف للإنسان أن يحمل في نفس القلب أكثر من شعور, أكثر من غصة, وأكثر من حُلم. بل كيف نستطيع استجماع أنفسنا بعد كل انكسار, وقلة حيلة, وهل تتسع عضلةٌ كعضلةِ القلب التي بحجم الكف أن تتحمل ما تعانيه أجسادنا, وأرواحنا من صدوع؟

أم أنه لا شأن له بما نعتقده عنه, لا أعلم لِمَ نربط المشاعر بهذه العضلة الصغيرة :التي وظيفتها هي نقل الدم إلى جميع أجزاء الجسم, يعني لم نسمع أنها توزع الحب, أو الحقد مثلاً.

دائماً ما يخطر ببالي هذا السؤال, لِمَ المشاعر ترتبط بالقلب؟ مع أن المخ هو من يفرز الهرمونات, يعني أن المخ هو من يحب ويكره. ما شأن القلب بالقوة؟ لِمَ لا نقول مخه قوي عوضاً عن قلبه قوي ؟ في النهاية المخ من يفرز هرمونات الخوف, أو القلق, الجوع, إلخ...

لا أدري لِمَ نهضم حق هذه الكتلة العظيمة؟ ونعطي إنجازاتها للقلب الَّذي ليس له علاقةٌ بمن نحب, وعن من نفترق, ولمن نشتاق, مشاعرنا وأحاسيسنا جزء لا يتجزأ من المخ.

-"حياة: باتي هيا يا ابنتي, حان دورك "

-" بتونيا: أوه ما هذا الجمال يا حنونتي؟ أصبحت أجمل مما كنتِ عليه. وأنت أيضاً يا سلمى, شعرك لطيف جداً"

-"إذن لنرى كيف سيبدو عليك؟ "

هممت بخلع حجابي. كانت صاحبة الصالون تنظر نحوي باستغراب, وذهول, وقبل أن تبادر بالسؤال, قلت:

-" لقد ضجرت من شعري وقصصته؛ لكنني لم أفلح بذلك, هل تستطيعين إصلاح ما تبقى منه؟"

-" لا تهتمي, اجلسي على الكرسي لأرى"

كانت المرة الأولى التي أقف فيها أمام المرآة بعد حادثة الأمس, شعرت أنني لم أعد أشبه نفسي, لكن هل يتبدل مظهر الإنسان بعد أن يقص شعره؟ أم أن ما تبدل كان بداخلي؟

-"ما رأيك؟ هل أعجبتك القصة الجديدة؟"

-"نعم, أعجبتني, أشعر بأنني قوية "

-"ما شأن الشعر بالقوة؟ "

-"بتونيا: قص الشعر؛ يعني بداية جديدة للأنثى, وعلى الأغلب مع كل شعرة تبتر تزداد الأنثى قوة, وتتخلص من قيودها. بالمختصر تشعر بأنها حرة "

-" أعتقد أنك من مُحبي المطالعة"

-"حياة: فأرة كتب "

-"سلمى: بان جمال وجهك يا باتي "

بعد خروجنا من صالون التجميل أوصلنا سلمى إلى منزلها, ونحن نهمُّ بالذهاب, خرجت والدة سلمى, ولوحت لنا بيدها, توقفت أمي ونزلت من المركبة, وبعد السلام استدعتنا للداخل, لم تقبل أمي بادئ الأمر, ثم بعد الإصرار وافقت.

رافقت سلمى إلى غرفتها, أما أمي فتجالس الخالة رنا في الأسفل, أعتقد أنني سأكون محور الحديث.

-"سلمى: سأطلعك على أخر رسوماتي؛ لتُشاركيني رأيك. "

تناولت الدفتر, وأخذت أقلب الواحدة تلو الأخرى, هذه الفتاة موهوبة, أناملها سحرية, استوقفتني إحدى الرسومات, تأملتها: إنها تُشبهني, لا بل أنا, حتى أدق التفاصيل موجودة.

-"سلمى! "

-"ماذا؟ هل أتممتها؟ "

أمسكت الورقة, وأريتها إياها"

-"بتونيا: أنتِ مبدعة, فعلاً تُشبهني "

-"سلمى: إذن أعجبتك رسوماتي"

-"بتونيا: طبعاً أعجبتني, بل أبهرتني, أنت موهوبة يا صديقتي"

-"سلمى: أشكرك على رأيك الإيجابي. سأذهب لأُحضر لك العصير كمكافأة. "

ضحكنا سوياً, ثم انطلقت قاصدةً المطبخ, عدت أتأمل بقية الرسومات.

فُتح الباب وظهر منه أخر شخص أتمنى رؤيته, بل لا أتمنى أبداً.

-"سلم..., عقلة الإصبع!؟ ماذا تفعلين هنا؟"

-"بتونيا: ماذا ترى؟ "

-"وسيم: يعني هل والدك يعلم؟ "

-"بتونيا: أمي تجالس والدتك في الأسفل"

-"وسيم: ماذا أصاب وجهك؟ هل ضربك مجدداً؟ "

لم أجب, أنزلت عيناي إلى الأسفل, ورحت أحدق بالسجادة, وأتفحصها, أحاول منع نفسي من قتله والإستحمام بدمه.

-"وسيم: أعتذر منك, لم أكن أعلم أن هذا ما سيحدث"

-"بتونيا: لا عليك, لقد نسيت "

-"سلمى: ماذا تفعل هنا؟ ألم تكتفي بما سببته لها؟ "

-"وسيم: قصصتِ شعرك! هل أنت مجنونة؟"

-"سلمى: نعم, مجنونة"

-"وسيم: سلمى تكلمي بأدب, ثم ما شأني أنا؟ وماذا سببت لها؟ والدها يضربها بسبب أو بدون"

وضعت الصينية على الطاولة, وأخذت تسرد عليه ما حصل معي, أنا كنت أستمع, وأحدق بالسجادة, وفي داخلي أتمنى تمزيق أحشائه.

-"وسيم : لكن ما شأني أنا بكل هذا؟ هي استصغرتني, وأنا أردت أن أريها حدودها في الكلام معي, بالنهاية هي من غابت عن الوعي, ووالدها مُتسرع ولا يثق بها, أين موقعي في الأعراب؟ "

-"سلمى: بغيض"

-"وسيم: ألا تسمعي أمي تناديك؟ كفي عن الثرثرة وانصرفي"

خرجت سلمى مُتثاقلة, والشر يخرج من عينيها, انتهزت الفرصة وقلت: "سمعت أنك تمتلك مكتبةً كبيرة بغرفتك؟"

-"وسيم : نعم, من عمر الثالثة عشر وأنا أجمع الكتب"

-"بتونيا: وأنا أمتلك مكتبة صغيرة في غرفتي أيضاً, تُرى هل أجد لديك كتاب صاحب الظل الطويل؟ بحثت عنه كثيراً؛ لكني لم أجده"

أجابني بتفاخر وغطرسة:

بالتأكيد, وهل يمكن أن لا يكون؟ إنه كتابي المفضل, لكن بشرط أن تُلقبيني بصاحب الظل الطويل بدلاً عن شرشبيل, وسيكون هذا الكتاب لك "

لا يعلم ماذا سيحل به هذا الطويل الهبيل؟ أنا سأُريك كيف ستصبح المعتوه الطويل؟

-"بتونيا: اتفقنا"

بعد دخوله لغرفته انطلقت وأحضرت زيت من زيوت الشعر خاصة سلمى, ثم أسرعت إلى عتبة السلم, ومسحته بالزيت, ونزلت للأسفل بحذر.

بعد مدةٍ ليست بالطويلة, سمعنا صوت ارتطام, أسرعنا جميعاً لنرى ما الَّذي سقط؟ طبعاً أنا أعلم طبيعة الشيء الَّذي أرتطم بالأرض, كان صوته ينتشر و يصدع, لوهلةٍ إرتبكت, وخفت أن يُكشف أمري. طلبت أمي الإسعاف, والخالة رنا تنوح خوفاً على ابنها المتغطرس, بعد قدوم سيارة الإسعاف طلبت مني أمي اصطحاب سلمى لمنزل جدتي, إلى حين عودتها.

-"بتونيا: أمي, سأصعد وأحضر حقيبتي ثم نخرج"

-"حياة: أسرعي عزيزتي, لا تتركيها لوحدها"

صعدت مسرعةً وتوقفت عند العتبة, أخرجت خرقةً من جيبي, ونظفت فيها بُقع الزيت, ثم نزلت للأسفل.

كانوا قد ذهبوا؛ أما سلمى تسند نفسها على الباب الخارجي للمنزل, اتجهت نحوها, وبدأت أهدئ من روعها, وأهون عليها الأمر, وفي داخلي كان قلبي يعتصر خوفاً من أن يحدث شيء أندم عليه ما تبقى من عمري, سامحك الله يا أبي هذه نتائج قسوتك, ولَّدت بداخلي العنف والحقد. "يا رب ألطف بي"

أخذت سلمى إلى منزل جدتي, جلست قرابة الساعة أواسيها, ثم غلب عليها النعاس.

الهاتف يرن وأخيراً.

-"بتونيا: مرحبا أمي, أخبرينا ماذا حصل؟"

-"حياة: أُصيب المسكين بكسر في الحوض, ووضعوا له حزاماً خاصاً بتلك المنطقة "

-"بتونيا: أمي, هل سيمشي بعد هذه الحادثة"

-"حياة: إن شاء الله, أخبرنا الطبيب أنهم سيبقونه أسبوع في المستشفى وبعدها سيرتاح لمدة ستة أسابيع في المنزل, ويبدأ بالعلاج الطبيعي "

شعرت برغبةٍ شديدة بالبكاء, هل أُعدم ضميري إلى هذا الحد؟ ما الَّذي فعلته؟ لقد تسببت بمرض السند الوحيد لسلمى وأمها.

-"حياة: باتي.. باتي "

-"بتونيا: نعم أمي"

-"حياة : لا عليك يا أبنتي, سيُشفى"

أشعر بقلبي ينقبض ألماً للحال التي وصلت لها, لا أعلم كيف أواسي سلمى وأنا المذنبة؟

-"سلمى: كيف أصبح أخي؟"

-"بتونيا: بخير, لا تقلقي, سيشفى قريباً "

-"سلمى: الحمد لله, كنت لن أسامح نفسي لو أصيب بمكروه وهو مستاء مني"

-"بتونيا: اطمئني يا صديقتي, سيتجاوز هذه الضائقة"

-"منى: صغيرتي سلمى. خالتك وأبنتها ينتظرانك في الخارج"

ذهبت سلمى إلى منزل خالتها, وأنا بقيت أنتظر والدتي.

في المساء عادت أمي واصطحبتني إلى المنزل, كان أبي يجلس في الصالة, أنزلت عيناي إلى الأرض وانطلقت إلى غرفتي, كان شعري لا يزال مُفترشاً الأرض.

-"حياة: لا عليك يا صغيرتي, سيمضي"

باشرنا تنظيف الغرفة من الشعر, وعندما انتهينا, ذهبت أمي لتحضر العشاء, أما أنا فاستلقيت على سريري؛ أغوص في الأفكار وأستغفر ربي لما اقترفت من ذنب.

-"حياة: باتي, هيا صغيرتي. العشاء جاهز"

-"بتونيا: هل أبي سيجلس معنا؟ "

-"حياة: لا, تناول طعامه في الخارج"

أنهيت طعامي واتجهت إلى غرفتي؛ كي لا أصدف والدي, كانت ليلة طويلة وعصيبة.

في الصباح استيقظت باكراً, وارتديت ملابسي, وانطلقت إلى مدرستي قبل استيقاظ والدي, وطوال الطريق أستغفر ربي"

-"شهد: بتونيا. ما بك شاردة الفكر؟"

انتبهت لها مؤخراً:

-" آسفة, لم أنتبه لوجودك"

-"شهد: بماذا تفكرين؟ "

-"بتونيا: لا شيء, أنتظر سلمى "

-"سلمى: لا أظن أنها ستأتي اليوم؛ بسبب ما حدث لشقيقها"

-"سلمى: بنات ماذا تفعلن هنا؟"

-"بتونيا: كنا بانتظارك, هل هناك أخبار جديدة؟"

-"سلمى: حالته جيدة, ولكن يتوجب عليه البقاء بالمشفى لمدة قصيرة"

-"بتونيا: أرحتني, لم أستطع النوم جيداً, غلبني التفكير به"

-"شهد: سلمى احترسي, ربما باتي تحب شقيقك"

نظرنا إليها بذهول, وانفجرنا في الضحك

-"سلمى: لا تهذي يا عزيزتي, لو لَمْ يسقط من تلقاء نفسه لقتلته, لكنها تمتلك قلباً أبيض من الحليب "

-"بتونيا: لو تعلمين يا صديقتي أن لي قلباً أسود من سواد الليل, وأنني أحقد كالجمل لما جالستني دقيقة"

-"سلمى: تتكلمين هكذا لأن ألمك لا زال حديثاً, اصبري سيعود وضعك كالسابق مع والدك "

شهد مقاطعةً للحديث:

-" بصفتي بطيئة الاستيعاب, ما هو حقد الجمل؟ "

-"بتونيا: الجمل من أكثر الحيوانات حقداً فإذا أذاه صاحبه لا ينسى, حتى وإن مرت سنين يُبقي بداخله إلى أن ينتقم"

-"شهد: معلومة جديدة كل يوم, هذا ما أتعلمه من صحبتك"

-"بتونيا: يُحكى أن جمل تلقى ضرباً مبرحاً من صاحبه, ولأن صاحبه يعلم بحقد الجمال, قام ببيعه, ومضت عشر سنين والجمل ينتقل من صاحب لآخر, و في يوم من الأيام سافر صاحب الجمل القديم, و مر بقبيلة استضافوه, ونصبوا له خيمة لينام فيها, وفي الصباح رأى الجمل صاحبه, وعرف كل منهما الآخر, وفي الليل أحضر صاحب الجمل القديم الرمل و الأحجار وجمعها في خيمته, وخلع ملابسه, ووضعها داخل الرمل, وهرب, فيما بعد قام الجمل بفك قيوده, وانطلق لخيمة صاحبه, وبرك على

كومة الرمل, وصار يطحن كل ما تحته ممزقا الملابس, وهكذا اطمأن أنه قتله, ومرت السنين, وكان صاحب الجمل بالسوق, فرأى الجمل, وعندما وقعت عين الجمل على صاحبه سقط ميتاً من الحزن وكتمانه له."

-"سلمى: هل يعقل لحيوان كهذا أن يكتم الحقد بداخله لسنين؟ أشعر بالدهشة لما أسمعه"

-"شهد: باتي, هل تُفكرين بقتل والدك بعد بضعة سنين؟!"

-"سلمى: أضحكتني يا شهد, تتجنب السير بقرب النمل؛ كي لا تدوسه بالخطأ, لتقتل والدها"

-"بتونيا: أعجبتني الفكرة, لِمَ لا, سأخطط لها"

ضحكنا واتجهنا إلى غرفة الصف, وبعد انتهاء الدوام تفرقنا, كلٌّ منا إلى بيته, وبالطبع كنت أسير مشتتة الأفكار ضائعة, وصلت إلى منزلي, كان أبي يجلس في الحديقة, تجاوزته إلى المدخل

-"زياد: بتونيا..."

لا أخفيكم تجمد الدم بعروقي, أجبت بصوتٍ مرتجف يكاد يسمعه

"نعم"

-"زياد: اقتربي, واجلسي هنا"

وأشار إلى المقعد المواجه لمقعده, اتجهت نحوه متثاقلة, وقلبي يوشك على الإنفطار

-"زياد: اعذريني يا ابنتي على طبعي المُتسرع, والمنفعل, لكنني أخاف عليك من هذا الزمان وما يحويه, لا أريدك أن تقترفي أخطاء لا أستطيع أن أسامحك عليها, أنت ابنة قلبي, عمري الجميل"

كنت أنظر إليه بعينين ساكنتين, وجسد مضطرب, أمسك يداي وقال:

" هل تخافين مني يا باتي ؟"

أنزلت بصري للأسفل, وأجبت:

"أجل, أخافك"

تنهد تنهيدةً يأس, وقال:

"ما زلتِ صغيرة وقليلة التجربة, ضعيفة جسمانياً, أضعف من الذكور, أخاف عليك منهم, أخاف أن يتعرض أحدهم لك, أنا رجل شرقي يخاف على ابنته من النسمة, لهذا يكون ردي قاسياً على أخطائك, لا أريد أن تتطور تلك الأخطاء وتكبر, خوفي هذا عليك؛ يجعلني أفقد اتزاني أحياناً, وقسوتي لتكوني أقوى وتعي ما يدور حولك من مخاطر بزماننا هذا "

ثم ضمَّني إليه, وأردف:

"صغيرتي, أنت أملي ومستقبلي, اغفري لي زلاتي, تفهمي خوفي من أجلك, ولا تخافيني, فأنا والله ما أحببت من دنياي كما أحببتك, وأعدك أن أضبط نفسي ويتبدل حالي للأفضل"

-"حياة: ماذا تفعلان هنا؟ هيا إلى الداخل الطعام جاهز"

ترافقنا إلى الداخل, لا أخفيكم لا زلت أخافه, أعلم أنه عند أول خطأ سينسى كل حُبه لي, ولن يتغير حاله.

في المساء اصطحبتني أمي إلى المشفى؛ لنطمئن على وسيم, وأبي لم يُعارض خروجي. عند دخولنا إلى الغرفة حاولت الإختباء خلف أمي؛ كي لا أرى وسيم, ظناً مني أنه يعلم أنني المسبب بحادثته.

-"سلمى: باتي! هل أنت هنا أيضاً؟"

أمسكتني من يدي وجرتني باتجاه وسيم.

-"بتونيا: شافاك الله وعافاك"

-"وسيم : أشكرك على مجيئك بعد ما حدث, وأود أن أعتذر منك أيضاً, أعتقد أن ما أصابني من أجل قلة تهذيبي, وما سببته لك"

ارتبكت كنت أنتظر سيلاً من التوبيخ, والتهديد. إذاً هو لا يعلم أنني المسبب بسقوطه, على الأقل سيرتاح قلبي, وينتهي الحقد والإنتقام هنا.

-"بتونيا: لا عليك, كان الخطأ متبادل"

-"سلمى: أوه ما هذه التطورات العجيبة, إذن حل السلام بينكما"

-"بتونيا: علي اللحاق بوالدتي "

-"سلمى: سأرافقك للخارج"

كانت دقائق صعبة, من الآن لن أرتكب الأخطاء بحق أحد

-"سلمى: باتي بما تفكرين؟"

-" بتونيا: والدي اعتذر."

-"سلمى: ليعاود الإساءة لك لاحقاً "

-"بتونيا: لا عليك, لنترك ما تخبئه الأيام لي. أين خالتك وأبنتها؟"

-"سلمى: في منزلنا ستأتي خالتي بعد قليل لنعود معها "

-"بتونيا: ومن سيرافق وسيم؟"

-"سلمى: زيد أبن عمي؛ هما في نفس التخصص ولا يفترقان"

-"بتونيا: وما هو تخصصه؟"

-"سلمى: صيدلة؛ هذه السنة الخامسة, وأظن أنها ستؤجل "

-" بتونيا:عذراً لتطفلي, إذا كان وسيم طالب, فمن يؤمن مصاريفكم؟"

-"سلمى: أمي معلمه كما تعرفين, و لدينا متجر ألبسة كبير, يتشارك به أبي وعمي, وبعد وفاة أبي أصبح وسيم يعمل هناك مساءً برفقة زيد"

-"حياة: باتي هيا عزيزتي, والدكِ ينتظرنا "

ودعتُ سلمى و توجهنا إلى المنزل,كان أبي مُبتهج يبتسم من تلقاء نفسه, كان قد أحضر معه معدات الشواء, ودعا جدتي, عمتي, وخطيبها لسهرةٍ لن تُنسى كما قال.

كانت ليلة من ليالي العمر, أبي استلم الشواء, وأحمد كان يملئ الأسياخ باللحم: أما أمي وعمتي فتتقاسمن معدات السلطة, جدتي كانت تُدندن الأغاني القديمة, وأنا أُحضِّر المائدة وأشاركها الغناء.

أطلنا السهر, والضحك. لا أخفيكم كان قلبي يرقص فرحاً

-"زياد: بتونيا أنظري ماذا أحضرنا لكِ: أنا, وأمك"

وأخرج علبةً حمراء, في داخلها سلسلة ذهبية بديعة المنظر تتدلى منها زهور بتونيا صغيرة, بنفسجية اللون, وأخرى وردية, ذُهلت بها, أخذت قلبي تلك القلادة.

-"حياة: هل أعجبتك يا ابنتي ؟"

-"بتونيا: أمي ماذا تقولين؟ زهرة المجرة البتونيا, أكاد أطير من الفرح أشكركم من أعماق قلبي, انتظرتها كثيراً"

وأسرعت إلى حضن أمي, ومن ثم اتجهت نحو والدي, أحاطني بذراعيه, وقال:

" أطلبي ما تشائين يا ابنتي, أنت وحيدتي, وقرة عيني, لو طلبت روحي أهبك إياها بلا تردد "

-"بتونيا: أبي الغالي أحبك جداً, أدامك الله سنداً لي"

-"جدتي: وأنا ؟ ألا تحبينني ؟ بفضلي حصلتِ على هذا الاسم المميز"

-"منى: ماما تشعر بالغيرة, إذن يعود الفضل لوالدك يا أمي"

ضحكت وضحكنا معها, فعلاً كانت ليلة لا تنسى

مر شهر وأنا أرتدي قلادتي, حتى عند النوم, أصبحت جزء مني, أحببتها جداً وأحببت طباع أبي الجديدة, آمل أن يبقى على حاله.

-"باتي"

-"نعم يا أمي "

-"حياة: هل ستذهبين معي غداً؟"

-"بتونيا: بالطبع, قدمي ستسبق قدمك لكن إلى أين؟"

-"حياة: أم وسيم تقيم مأدبة غداءٍ بمناسبة شفاء ابنها, وقبل قليل دعتنا للحضور"

-"بتونيا: لكنه لم يشفى تماماً, لا زال أمامه المزيد من الوقت؛ ليمشي بشكل طبيعي "

-"حياة: ما شأنك بها؟ لتفعل ما تشاء. هيا اذهبي وأحضري ثيابك المتسخة لأنهي أعمال المنزل باكراً"

-"بتونيا: صحيح, غيرت رأيي لن اذهب معك, لدي الكثير من الواجبات"

-"حياة: ما الذي غير رأيك بهذه السرعة؟ "

-"بتونيا: أمي لا أحب هذه التجمعات, سيكون هناك العديد من النساء"

-"حياة: بااااااتي منذ متى لا تحبين التجمعات؟ هل هناك خلاف بينك وبين سلمى؟"

-"بتونيا: لا يا أمي, لا يوجد شيء بيننا "

-"حياة: إذن سترافقينني, لا أحب الذهاب لوحدي إلى مثل هذه المناسبات"

-"بتونيا: تمام أمي, سأذهب معك, أمري لله"

لما تُصرين على ذهابي يا أمي, لو تعلمين ماذا فعلت لقتلتني! سأذهب وأقضي وقتي بغرفة سلمى, ممن سأخاف؟ وسيم قارب على الشفاء التام, ولا أحد يدري عن القصة, تصافينا.

*****

أوه.. ما هذا الإزعاج منذ الصباح الباكر؟, حملت وسادتي ولففتها حول وجهي؛ لتسد أطرافها أذناي, عبث.. صوت زغاريد خالتي وأبنتها يُصدع الجدران, ماذا سيفعل بوسادة من البوليستر؟ سامحك الله يا أمي, هل هذا وقته؟

صوت طرق الباب.. رزان بلا شك! من سيتطفل علي غيرها؟ أمسكت الغطاء وسترت به رأسي, فتحت الباب, وبدأت كلامها:

"استيقظ يا محب النوم, كل هذه التحضيرات من أجلك"

حاولت كتم نَفسي لكن عبث, اقتربت وسحبت الغطاء عن وجهي ليظهر أمامها وهو متجهم.

-"رزان: ما بك؟ لِمَ أنت عابس الوجه؟ هيا انهض"

-"وسيم: ماذا تريدين يا رزان؟ الدعوة للنساء؟ هل تعتقدين أني رغد مثلا؟ "

-" رزان: لكن الدعوة من أجلك, هل ستبقى في الفراش؟ "

-"وسيم: حسب معلوماتي؛ فأنا مريض مكسور الحوض, هل سأنهض لأشاركك الدبكة والزغاريد؟ "

بدأت تضحك وتوزع رنين صوتها في أرجاء الغرفة, بل أرجاء المنطقة كلها"

-"سلمى: ما الذي يحدث هنا؟ ما بك تصهلين يا رزان؟"

ها قد جاءت منقذتي, أختي العزيزة.

-"رزان: لا شيء, كنا نتحادث قليلاً"

-" سلمى: هل هذه كانت محادثة؟ ظننتكم بدأتم الإحتفال؛ فأتيت لأرقص على صوت صهيلك"

لم أستطع منع نفسي من الضحك, أخذتُ أُرسل ضحكات أعلى من صهيل رزان كما شبهته سلمى.

-"رزان: أنتما الاثنين تفيضان قذارةً "

ضربت الباب بشدة, وخرجت, عدنا لنقهقه بصوت أعلى من ذي قبل؛ فرزان أكثر إنسانة مستفزة على وجه الأرض.

-"سلمى: لا أحب التجمعات بسببها"

-"وسيم: لا عليكِ؛ فأنت ستمضين وقتك مع عقلة الإصبع"

-"سلمى: لا أعتقد, ربما لن تأتي, الحمد لله أن شهد موجودة؛ و إلا من سيتحمل خفة دم ابنة خالتك"

-"وسيم: لما لن تأتي هذا غريب؟ فهي من أكبر المعجبين بي, كيف ستفوت فرصة اللقاء؟"

-"سلمى: وسيم! لا تبدأ أرجوك"

-"وسيم: حاضر, لقد مازحتك و حسب, انتهى الخلاف بيننا"

-"سلمى: الحمد لله, لا أريد أن أقف بينكما, أرجوك"

-"وسيم: اطمئني عزيزتي سأتزوجها أيضاً؛ لأرضيكِ"

ابتسمت وخرجت: أما أنا فعدت لأدفن رأسي تحت وسادتي, هذه المرة لم أستطع النوم من صوت أفكاري, لِمَ لا تخرج من بالي عقلة الإصبع؟ منذ حادثتي: وأنا أراها في أحلامي, وأفكر بها في يقظتي, هل هذا يعني أنني بدأت أعجب بها؟ عقلي بدأ يخرج عن السيطرة, وسيم والحب هه, ربما تأثرت بقصتها, ووضع حياتها, وربما لأنني منذ نشأتي لم يُعاندني أحد كعقلة الإصبع.

الباب يطرق من جديد.. أغمضت عيناي لأبدأ التمثيل, ورحت أغط بنومٍ عميق دون أن أشعر.

صحوت في الثالثة عصراً, كان صوت الموسيقى يقرع رأسي بعنف, أريد قهوة لأستفيق, لكن كيف؟ أخرجت علبة السجائر خاصتي, وبدأت أسحب الدخان والأفكار إلى داخلي, وأنفثها مرةً أخرى لِتُحيطا بي.

وجدتها.. سأطلب سلمى عن طريق الهاتف؛ لتأتي لإنقاذ أخيها مرةً أخرى

*****

وصلنا الآن لمنزل أم وسيم, ألقيت التحية على عمتي منى, والخالة رنا, وصعدت إلى غرفة سلمى.

-"سلمى: وأخيراً, إحداكن أتت "

-"بتونيا: نهاية سعيدة إذن. أخبريني كيف حالك اليوم؟ وكيف أصبح شرشبيل؟"

-"سلمى: باتي سأُخرِج شعرك بيديّ, ألم تجدي لأخي الجميل, سوى شرشبيل كلقب؟"

-"بتونيا: كنت أود أن أطلق عليه صاحب الظل الطويل؛ لكن تعلمين ماضينا"

-"سلمى: ظننت أن الخلاف انتهى بينكما, هل ما زلتِ تحملين بقلبك عليه؟"

-"بتونيا: لا يا عزيزتي, أمازحك.. لقد تصافينا"

-"سلمى: كيف تصافيتم؟ أتقصدين أن حادثة أخي تُعتبر كسداد دين؟"

-"بتونيا: ما بك يا سلمى؟ أمازحك هل غضبتِ مني؟"

سلمى وهي تضحك:

"وأنا أمازحك يا عزيزتي "

قطع حديثنا صوت طرق الباب.. أعتقد أن شهد لحقت بحديثنا الجاد المُنكَّهِ بالمزاح.

-"رزان: مرحباً, سلمى خالتي رنا تريدك حالاً"

خرجت سلمى مهرولةً, أما رزان فاقتربت ومدت يدها لتصافحني, وقالت:

"أعتقد أنك عقلة الإصبع المشهورة؟"

كنت سألوي يدها, بغيضة هذه الفتاة, هل تتحدث هكذا مع من تراهم لأول مرة؟ صدقت سلمى عندما قالت: أنها مُستفزة.

-"اسمي بتونيا.. ببببتووووونيااا"

-" رزان: ما بك؟ أمازحك, وماذا يعني اسمك؟"

-"بتونيا: نوع من أنواع الزهور التي تنمو بفصل الشتاء, زهور زينة أطلق الفرنسيين عليها اسم البيتونيا, وتندرج تحت الزهور الباذنجانية"

-"رزان: يعني أنت باذنجانة "

وأخذت تضحك بهستيريا, شعرت بجسدي يتصببُ عرقاً, أضفتها لقائمة الأشخاص الذين سأقتلهم.

-"سلمى: هل يجب أن آتي دوماً على صهيلك يا آنسة رزان ؟"

-"رزان: لماذا تغارين مني يا سوسو؟ هل لأنني أمتلك روح الدعابة؟ على خلافك أنت وصديقتك الباذنجانة."

خرجت البلهاء وهي تضحك, أريد أن أمزق شعرها الأحمر المنفوش كصوف الخروف.

-" سلمى: هل قالت باذنجانة؟ أخبرتها معنى اسمك بالتفصيل الممل إذن"

وانفجرنا ضاحكات. أتت شهد بعد خمس دقائق من خروج رزان, جلسنا نتحادث, و نرقص, وبعد نصف ساعة, رن هاتف سلمى كان المتصل شرشبيل.

-"سلمى: سأعود بعد قليل"

-"شهد: سبيستون, قناة شباب المستقبل"

تشاركنا الضحك, وانطلقت سلمى مهرولةً باتجاه غرفة وسيم"

ترددت قليلاً, ثم قلت:

"شهد, أريد أن أعترف لك بشيء, أتمنى أن تُسدي لي بنصيحة تريحني من تداخل أفكاري"

-"شهد: ما بك؟ هل من جديد بينك وبين والدك؟"

-"بتونيا: أبي, آه من أبي هو سبب كل أحقادي, أتعلمين أنني بسببه فعلت شيئاً لن أسامح نفسي عليه؟"

شهد متسائلة:

"ماذا فعلتِ يا باتي؟"

-"بتونيا: حادثة وسيم أنا المتسببة بها"

-"شهد: ماذا تفضلتِ؟ أجننتِ أنت؟ ألم تري إلى أي حالٍ أوصلته؟ ألم تجدي سوى هذا الإنتقام, وأنت تعلمين أنه السند الوحيد لعائلته, هل أعجبتك فعلتك يا صديقتي؟ "

-"بتونيا: شهد أرجوك, أنا أعلم ماذا فعلت, أريد نصيحة, أحمِلُ حِملاً ثقيلاً أرهق كاهلاي, لا أستطيع العيش معه وتقبله"

-"شهد: تريدين نصيحتي, إذن اذهبي وأخبري سلمى قبل أن تعلم متأخراً؛ كي لا تخسري صديقتك بسبب أمراضك النفسية"

-"بتونيا: أجننتِ؟ كيف سأخبرها؟ بالتأكيد سأخسرها, لن أستطيع فعل ذلك"

-"شهد: كنتِ فكري بهذا قبل أن تفقدي عقلك, ثم إن لم تُخبريها أنتِ سأخبرها أنا؛ فأنا لا أخون صديقتي يا صديقتي, أعلمي هذا"

-"بتونيا: شهد أرجوكِ, أخبرتك لتساندينني لا لتُهدديني"

-"شهد: أساندكِ أم أُصبح شريكةً لكِ؟ أنا ذاهبة الآن"

-"بتونيا: إلى أين؟ أرجوكِ أمهليني المزيد من الوقت؛ لأرتب كلماتي"

-"شهد: سأذهب لبيتي لا تخافي, لكن أمهلك فقط يومين, لو سمحتِ لا أريد أن أختار بينكما. إلى اللقاء"

انطلقت مثل العاصفة مخلفةً ورائها ضيق كبير بصدري, أشعر الآن بمدى جدية الموقف, كيف سأجابه هذا الوضع لوحدي؟.

بعد ثواني قليلة من خروج شهد دخلت رزان, كانت ترتسم على شفاهها ابتسامة صفراء, وكأنها استرقت السمع لحديثنا؛ إذن الآن انتهت صداقتي بسلمى.

-"رزان: ما بك ارتبكتِ عند رؤيتي؟"

أجبتها وأنا أشعر أن قلبي ينبض بعنقي:

"لِمَ لأرتبك؟ كل ما في الأمر أنني لم أستلطفك"

-"رزان: سأجعلك تدفعين ثمن جُرأتك هذه يا باذنجانة؟ ثم لِمَ لمْ تُحبيني؟ انتظري.. أستطيع تخمين الإجابة, هل لأنني أجمل منكِ؟ أم لأنني أطول؟ "

-"بتونيا: ما فائدة جمالكِ وأنتِ تفتقرين للتهذيب؟"

-"رزان: سنرى بعد قليل من يفتقر للتهذيب؟ ومن لا ضمير له أساساً؟"

ذهبت وهي تتمايل بتفاخر, وتدندن. يا رب.. لم أجد من يساندني, ساعدني و أخرجني من هذه الورطة التي أوقعت نفسي بها؟ تُرى هل سأدخل السجن؟ يا ويلي هذه المرة سيدفنني أبي.

قطع صوت أفكاري صوت أقرب الناس لي, سلمى

-" ما بكِ يا سنفور مفكر؟ بما تملئين عقلكِ الكبير؟ "

ضحكت وأردفت:

" ثم أين ذهبت شهد؟ هل نزلت للأسفل؟"

-" اضطرت للذهاب على عجل"

-"سلمى: ما الَّذي حصل؟ هل هناك خطبٌ ما؟"

-"بتونيا: اهدئي, ليس هناك شيء, كل ما في الأمر؛ أنها ستذهب للتسوق مع والدتها "

*****

متى سينتهي هذا اليوم الطويل؟ أين أنتِ يا مُقلة عيني؟

انبلق الباب وظهرت منه ملاكي العزيز

-"وسيم: لِمَ تأخرتِ يا سلمى؟"

-"سلمى: أولاً ذهبت للمطبخ, وحضرت لك القهوة, ووضعت لك الطعام, وفي تلك الأثناء طلبتني السلطانة رنا؛ لأحضر لها علب المناديل من غرفتها, ثم صعدت و.."

-"وسيم: أرجوكِ أصمتي, أشكرك على تعبك من أجلي يا عزيزتي"

-"سلمى: تناول طعامك قبل أن يبرد, لا أريد الانشغال بك اليوم, سأعود لأرى صديقاتي"

-" وسيم: تقصدين عقلة الإصبع, أم أنها لم تأتي؟"

-"سلمى: أخبرني ماذا يحصل لك؟ لِمَ تتساءل كثيراً عن باتي؟ ثم إنني قلت: صديقاتي لم أقل صديقتي"

-"وسيم: ماذا؟ ماذا ؟ باتي! اسمها باتي إذن, أتعلمين أنه لم يخطر ببالي أن أسألك من قبل عن اسمها؟ حتى عندما كنتِ تتحدثين عنها لم أكن أستمع لك, وأحاول أن أغلق أذناي... إذن باتي "

-"سلمى: اسمها بتونيا, والمقربون منها يُطلقون عليها باتي "

-"وسيم: بتونيا! بتونيا اسم جميل."

-" سلمى: بسم الله, هل جننت يا أخي؟"

أشعر أني أبدو كمعتوه أمام أختي, لكن اسمها مميز أعجبني, أسكتها وطلبت منها أن تُحضر عقلة الإصبع؛ لأعطيها كتاب صاحب الظل الطويل, كانت قد طلبته مني قُبيل الحادثة, عاندتني قليلاً ثم قبلت.

بدلت ملابسي ورششت الكثير من العطر, حتى شعرت بالدوار, أين مشطي يا تُرى؟ أين اختفى؟ أوه.. هل هذا وقته؟

الباب يُطرق.. ماذا أصابني؟ أرتجف, وأشعر أن قلبي سيخرج لاستقبالها, سأجلس هنا, سحبت الكرسي ورميت نفسي عليه, آآآه.. أشعر أن عظامي تفتت من جديد, حتى أنني نسيت إصابتي, فتحت حاسوبي الشخصي وتظاهرت باهتمامي به, أما قلبي فيجلس أمام الباب ينتظر بتونيا صاحبة الإسم الجميل.

أوف.. ما هذا الحظ السيء؟ إنها رزان.

-"رزان: عندي لك خبر سصيدمك"

-" وسيم: وما هو هذا الخبر الَّذي سيصدمني؟ تفضلي."

-"رزان: بتون.."

وقبل أن تكمل دخلت سلمى, وبتونيا, كان يبدو عليهما الحزن, لا بل كان هناك بقايا دموع في أعينهن, تُرى ماذا حصل؟

-"وسيم: ماذا يجري؟ ما بكِ يا سلمى؟ لِمَ عيناكِ ممتلئة بالدموع؟ أخفتني.

-"سلمى: لا عليك, كنا نُشاهد فيلم رومانسي, وأُثيرت عواطفنا"

-"وسيم: أكثر من أكره من النساء العاطفيات, ذوات المشاعر الجياشة"

لا أدري لِمَ أقول بلساني عكس ما يخطر ببالي؟ أصطنع التعجرف وأتظاهر بالقوة أمامها, وأنا كعجينة البسكويت.

ساد الصمت لثواني, ثم قلت وأنا مُندهش:

-"غريب, عقلة الإصبع التي أعرفها كانت تُعيد كلماتي لي, وتضربني بأقسى منها, ماذا يحصل لكِ؟ هل الأمور تسير على ما يرام بينك وبين والدك؟

شحب وجهها وذبل أكثر من ذي قبل, ثم أنزلت رأسها, وأجابت بتلعثم:

"أن.. أنا آس آسفة"

عيناي تُحدقان بها باستغراب, لم أفهم لِمَ كل هذه الريبة التي هي فيها؟ أوجعني قلبي لحالها.

-"وسيم: هل سيخبرني أحد ماذا يحدث هنا قبل أن ينفذ صبري؟ سلمى؟!"

-" سلمى: أخي بتو.."

قاطعتها رزان سريعاً قبل أن تكمل:

"بتونيا السبب بحادثتك, سمعتها وهي تُفضي لصديقتها بغرفة سلمى"

-"سلمى: أخي لم تكن تقصد ذلك,كانت لحظة غضب, أرجوك لنتحدث بهدوء, لتشرح لك الأمر"

-"وسيم: وأنتِ تعلمين ذلك منذ البداية يا أختي, وتدافعين عنها؟"

-"سلمى: لا والله, لم أكن أعلم, قبل قليل أخبرتني وها نحن أمامك؛ لنخبرك بكل شيء, لو لم تحشر رزان أنفها, كنت سأحكي لك القصة بروية"

أشعر بدوار وصداع فظيع يكاد يقتلع عيني, حتى أنني لم أقوى على الوقوف, وكأن المقعد يلتف حولي ويمنعني من النهوض, ومن التفكير.

نظرت نظرةً مطولةً لعقلة الإصبع, كانت ترمي بدموعها على بساط غرفتي, وكأنها نيران تنتشر وتسير نحو المقعد الَّذي أجلس عليه, ومِنْ مقعدي متجهةً نحو قلبي: أحرقته, وصيرته رماداً, ثم صعدت نحو عيناي, تطاير شرر دموعها من مُقلتاي, الآن أستطيع أن أنهض وأنفث نيرانها بوجهها.

*****

فكرت كثيراً: وقررت أن أخبر سلمى بكل شيء, لن أدع رزان تفسد علاقتي بصديقتي, أفسدها أنا ولا يفسدها غيري.

-"سلمى: أتعلمين يا باتي؟ أشعر بالأسى لحال أخي, أصبح سجين غرفته, وأفكاره, حتى أنه بدأ بشرب السجائر, ولا يقبل أن يزوره أصدقائه؛ كي لا يروا عجزه كما يقول, حتى زيد صديق عمره صار يتهرب منه, ويفرش أمامه الحجج كي لا يراه"

كيف سأخبرها الآن؟ أشعر بالخوف من ردة فعلها, قلبي ينتفض بألم, مع كل نبضة غصة.

-"سلمى: باتي..باتي.. هي بتونيا"

أفقت لواقعي المرير, وقلت:

-" أنا السبب بحادثة وسيم"

وبدأت أذرف الدموع, وأنظر إليها برهبة منتظرةً ردها, تجمدت في أرضها دون أن تنطق بشيء.

-"بتونيا: أنا أسفه, لم أكن أعلم نتائج فعلتي, أرجوكِ لا تصمتي, وبخيني, اضربيني أنا راضيةً بحكمك"

أجابتني وهي مكسورة الخاطر, وعينيها تذرفان الدموع:

" أنتِ يا صديقتي السبب؟! هل أرحتِ ضميرك الآن؟ هل أفضيتِ ضغينتك من والدكِ بوسيم؟ "

-"بتونيا: أنا أسفه, فكرت كثيراً بفعلتي, وصفعت نفسي كثيراً, صدقاً تألمت أضعاف آلام وسيم"

-"سلمى: أين أنتِ من آلام وسيم عندما كان لا يستطيع النوم من شدة الوجع؟ لا يتناول طعامه, ولا يحادث أصدقائه, ينفث السم إلى داخله من خلال سجائره, ويبتلع أكواماً من الأدوية المسكنة؛ للتخفيف من أوجاعه, أخي المُحب للحياة أصبح منغلقاً على نفسه, يُفكر مطولاً بحاله,

ويخاف أن يبقى مسنوداً على عكازٍ طوال حياته, أين أنتِ من هذا كله يا صديقتي؟

-"بتونيا: أنا آسفة, لا أدري ماذا أقول؟ أشعر بالخجل منكِ, ومن عائلتك"

نهضت واتجهت نحو الباب, وقبل أن ألتقط المقبض, أمسكت بيدي ودفعتني إلى الجدار, وبدأت تصفعني وتهزني, وتشتمني, وأنا خاضعةٌ لها, وأطلق العنان لعينيَّ, ثم أمسكت بيدي وقالت:

-"ستذهبين معي الآن لغرفة وسيم, وتخبريه بكل شيء"

-"بتونيا: لا, أرجوكِ, لا أستطيع أن أفعل هذا, لا أستطيع"

-"سلمى: ستأتي معي وسيكون هذا عقابك, أخي ينتظرك ليُقدم لك الكتاب الذي طلبتهِ منه ذاك اليوم, وهو يشعر بالخجل من تصرفاته السابقة معك, ولا يعلم أنك جمل حقود وسيء"

-"بتونيا: هل ستسامحينني إن أخبرته يا سلمى؟"

أشاحت بوجهها عني وقالت:

-" المهم الآن أن يعلم أخي بمكيدتك, وبعد ذلك أتفرغ لك"

-"بتونيا: أريد أن أخبرك بشيء آخر "

-"سلمى: ماذا فعلتِ أيضاً؟"

-"بتونيا: رزان استرقت السمع لحديثي أنا وشهد, وأصبحت تعلم بتلك الواقعة"

-"سلمى: ماذا تقولين؟ هل تخبريني بهذا الآن؟ تعالي لنسرع قبل أن تُفشي سرك"

توجهنا إلى غرفة وسيم, وكلٌّ منا في حالةٍ يرثى لها, كان الباب مفتوح, ورزان في الداخل, عندما أبصَرَنا وسيم, استهل وجهه, و بدأ يسأل: عن حالنا, وحاول أن يُثير غضبي ظنّاً منه أني سأجيب, لكنني أنزلت رأسي أبحث عن مخرج, أو آلةٍ تسرع الزمن, وبقي مُلحاً في سؤاله: عن ماذا يحدث لنا؟ كادت سلمى أن تخبره بالقصة, لولا تدخل رزان الغبية. ازداد خجلي وضعفت قوتي, أشعر بأني سأفقد الوعي إذا مسني أحد, دموعي تقطر من مقلتاي, أنظر لقدميّ خوفاً من النظر في عينيه, وأنتظر ردة فعله.

قال موجهاً سؤاله لسلمى:

-"وسيم: وأنتِ تعلمين ذلك من البداية يا أختي, وتدافعين عنها"

-"سلمى: لا والله, لم أكن أعلم, قبل قليل أخبرتني وها نحن أمامك؛ لنخبرك بكل شيء, لو لم تحشر رزان أنفها, كنت سأحكي لك القصة بروية"

-"وسيم: سنرى الآن ما ستخبرانني به؟ "

ثم استدار نحو رزان وقال:

" رزان, أخرجي لو سمحتِ, ولا تخبري أمي بشيء, وإلا سأجعلك عبرةً لمن أُعتبر"

خرجت رزان من الغرفة وهي تتمتم, وترميني بنظرات انتصار قذرة.

تقدم وسيم نحو الباب وضربه بشدة, كان يستند على عُكازه الخشبي, ويحاول السير مسرعاً, إلى أن خانته قدماه, وانحنت. أشعر الآن بألمٍ يُمزق كل خليةٍ بجسدي, كيف لي أن أفعل فعلتي هذه معه؟

حاولت سلمى مساعدته؛ فرمى بيدها, وأكمل طريقه, ليستقر على طرف سريره

-"وسيم: تكلمي يا عُقلة الإصبع, كيف فعلتِ هذا بي؟"

كان قد أخفض حاجبيه, وتشكلت بعض التجاعيد فوق عظمة أنفه: أما عيناه الخضراء فقد ضاقتا, وانبلق منهما بريقٌ يحرق حتى أنفاسي, هل هذه أخر أيام حياتي؟

عاد وصرخ:

"لِمَ لا تجيبين؟"

كان جسدي يرتعش خوفاً, وراحتا يداي مُتعرقتين, أجبته بكلمات مُتقطعة:

" وضعت قليلاً من الزيت أعلى..."

أسكتني مقاطعاً بصوتٍ يُصدع جدران الغرفة, ويُصدع قلبي:

"لماذا ؟"

ثم أخفض صوته مُغيّراً من نبرته:

"أحقاً تظنين أنني السبب بمعاملة والدكِ السيئة لك؟ وهل كانت معاملته لك أفضل قبل أن تعرفيني ؟"

وكأنه زرع سكينه في منتصف قلبي؛ فأبي كان ولا زال مصدر أحقادي, نُقطة ضعفي, لم يكن قدوة, بل كان رجلٌ لا أتمنى أن أرى على شاكلته في حياتي كلها.

-"بتونيا: أنا آسفة, لم أكن في كامل وعيي, وإدراكي, كانت لحظة غضب."

-"سلمى: أخي, أرجوك سامحنا؛ فنحن كما تعلم مراهقات, وما زلنا لا ندرك سوء أفعالنا, باتي طيبة القلب؛ لكنها ممتلئة بأحقاد, وقسوة ليست هي إلا ردةُ فعلٍ لطريقة أبيها بالتربية "

الآن أرخى ظهره مستلقياً على سريره, وأغمض عينيه, تُرى بماذا يفكر؟ وهل كلمات سلمى ستؤثر به؟ نظرت باتجاه سلمى: هي الأخرى كانت قد أغلقت عينيها, وبدأت تتمتم بأدعيةٍ؛ علها تتخلص من غضبه.

بعد دقائق معدودة, رفع رأسه وعاد جالساً, ثم قال:

" أنتما الاثنتين ستخدمانني ساعةً في اليوم لمدة أسبوعين"

صُعقت بما سمعت, ماذا يهذي؟

"لكنني لن أستطيع, تعلمون طباع أبي, وتشدده, لا أستطيع المجيء لبيتكم يومياً, مستحيل"

-"وسيم: لم أُكمل حديثي, سلمى ستخدمني ساعةً في المساء"

-"سلمى: كما تُريد أخي, لكن باتي حقاً لن تستطيع"

-"وسيم : لا, بل تستطيع, عند خروجها للمدرسة ستتوجه لمنزلنا"

-"بتونيا: أجننت؟ سيقتلني أبي لو علم بإبطائي عن المدرسة "

-"وسيم: لن يعلم, سأتواصل هاتفياً بصديقي إبن مديرة المدرسة, وستمنحكما الإذن لساعةٍ يومياً "

-"بتونيا: لن أستطيع, هذا خطر جداً, لا, هذه المرة سيدفنني أبي وأنا على قيد الحياة"

-"وسيم : كما تُريدين, أنتِ أدرى"

-"سلمى: أخي أرجوك لا تكن قاسياً, اختر لها عقاباً آخر"

-"وسيم: سأُخفض المُدة لأسبوع, ولن أُغير عقابي, أريدها أن تشعر بالعجز الّذي تسببت لي به, وأن تُعاني ولو القليل مما أعاني"

سيء إنه إنسان سيء, بل أسوء من أبي, ماذا سأفعل الآن؟ كيف سأنجو من بين يديهما؟ في كلتا الحالتين أنا المتضررة.

-"بتونيا: سأفكر "

خرجت من الغرفة كمن يخرج من قبوٍ مظلم, اتجهت نحو أمي راجية إياها العودة إلى المنزل, وافقتني الرأي. مررنا إلى بيت جدتي؛ لنُلقي عليها التحية, جلسنا قرابة الساعة, كنت قد وضعت رأسي بحِجر جدتي؛ لتتلو علي آياتٍ من القرآن الكريم؛ علني أرتاح من تخبط أفكاري.

وافانا أبي قُبيل غروب الشمس, كنت أجلس مقابلةً له, وأنظر إليه؛ علني أستكشف سبباً لطباعه القاسية, أو لتقلبه من حال لآخر

-"زياد: حياة ما بك عزيزتي؟ هل تسمعينني؟"

قال هذا أبي: محاولاً إيقاظ والدتي التي فقدت الوعي, جميعنا حولها: أنا أحمل الكلونيا, وعمتي منى تحمل كوباً من الماء, وجدتي تدعو لأمي.

بعد عدة محاولات لإيقاظها أفاقت, كان لون وجهها باهت, أجابتنا:

"بخير, لا تقلقوا, لكنني منذ الصباح أشعر بالدوار, والوهن, أرهقت نفسي كثيراً اليوم, ربما لهذا السبب"

أصر والدي أن يصطحبها إلى المشفى؛ ليطمئن قلبه

بعد ساعة من انتظار نتائج التحاليل, جاء الطبيب يحمل بيديه تلك الأوراق وقال:

" مبروك المدام حامل"

لم أعلم في مثل هذا الوقت ماذا أفعل؟ أأفرح؟ أم أحزن؟ كانت حالة والداي غريبة, بل غريبة جداً. كان بياض عينيهما مُتسع, حاجبين مرفوعين, والشفة السفلى متدلية, نفس التعابير, ينظران إلى بعضهما البعض مصعوقين, الآن بدأت الدموع تنهمر, أخذ أبي يُحيط أمي بذراعيه ويقول:

" أخيراً.. أخيراً يا حياة, أنتِ حامل بابننا الّذي طالما انتظرناه"

هنا في مثل هذا الموقف شعرت بأنني لاشيء, كنت لا شيء بالنسبة لوالدي. أنا الآن وحيدة, حتى أمي سرقها مني, رحت أبحث عن مقعد مجاور أرمي بثقلي عليه, هل أبي كان يُريدني ذكراً؟ ألهذا السبب كانت قسوته؟ أم أنني... وقبل أن أفتح المجال للأفكار السيئة, أقبلت أمي نحوي, احتضنتني وقالت:

"حملي هذا لن يغير من محبتي لك, ولو بمقدار ذرة, تعلمين هذا يا باتي؟"

هززت رأسي إيجاباً, لكن قلبي كان يرفض الفكرة بأكملها, عدنا إلى المنزل, توجهت إلى غرفتي ورحت أفضي بكل غصات اليوم, على شكل دموع, وتنهيدات تكاد تجرح حنجرتي, كنت أنحب بصمت, خوفاً من تنغيص فرحة والداي. غداً سأبدأ بسداد ديني لوسيم, وسأبدأ مرحلةً جديدةً في منزلنا, الله المستعان على حياتي ومن فيها.

*****

لا تسألوني لِمَ اخترت عقاب كهذا لعقلة الإصبع؟, ربما هذا ما يسمونه الانتقام الحلو, أو أنني فعلاً أُسحق تحت أحاسيسي التي لم تُفارقني منذ شهر, ربما أجد في فكرة الانتقام ما أبحث عنه, لا أعلم العواقب لكنني أشعر بالحماس حيال هذا الانتقام, وهذا بالطبع لا يعني أنني لست مستاءً منها, فهي أحدثت نَدبةً بقلبي قبل قدماي .

أما أكبر خيبة أمل فكانت من أختي, بالرغم من أنها تعلم أن بتونيا السبب, لم تهدم الدنيا فوق رأسها, وآثرت الدفاع عنها, لا أعلم لما نحن الاثنان عالقان بتلك الفتاة؟ ولا نستطيع أن نعطيها ما تستحق من عقاب, لا أدري مدى قربها منها لتحميها هكذا, لكن أعلم أنني لا أزال حديث العهد في الهوى, فلِمَ أفعل هذا؟ صدقاً لا أعلم.

خرجت من غرفتي وقالت:

"سأفكر"

أطلقت سراح نظري إليها وهي تسير بترنح, وكأنها ستسقط من فرط ما فيها, هل تُراها لن تأتي؟ وأضطر للانتقال للخطة الأخرى, وهي الإنتقام المدمر المليء بالحقد والضغينة.

أفقت من أفكاري لتقع عيني على سلمى: التي تقف مستندةً إلى الحائط, وتنظر لي بخجل.

-"وسيم: هلّا خرجتِ يا سلمى؟ سأنام, ولا أريد لأحد أن يزعجني, لا أحد حتى أمي "

-"سلمى: وسيم أنا آسفة, علمت بالحادثة قبل نصف ساعة لا أكثر, ثم إنني لم أقف ورائها؛ بل رحت أصفعها, وأهزها, وأشتمها, لكن عندما رأيت حماس رزان للإيقاع بها لم أحتمل"

-"وسيم: هل جننتِ لتضربيها؟ ألا يكفيها ما تتلقاه من أبيها؟"

-"سلمى: أخي حقاً لا أدري كيف سأرضيك؟ عندما دافعت عنها زجرتني, وغضبت مني, والآن تفعل ذات الشيء, أخبرني لِمَ لَمْ تسامحها إذن؟ بما أنك تُدرك ما تُعانيه"

-"وسيم :لا تتدخلي, هيا إلى الخارج"

قلت هذا وأنا أدفعها نحو الباب, أوقفتني بسؤالها:

"وأمي؟ كيف ستخبرها بما حصل؟ هل ستُبقي هذه المهمة لرزان؟"

-"وسيم: ماما لن تعلم بشيء, هي بجميع الأحوال تخرج باكراً كما تعلمين, أما بخصوص رزان فلا تقلقي, أنا سأُسكتها"

تنهدت تنهيدة طويلة, وقالت وهي تفتح الباب:

"حقاً لم أعد أفهمك, أنت غريب, بل أصبحت غريب جداً"

حتى أنا لم أعد أفهم نفسي, لستِ بمفردك

في المساء توجهت إلى شرفة غرفتي مستنداً على عُكازي, قبعتُ على مقعدي, ورفعت بصري نحو السماء, ورحت أُبعثر نظري بين النجوم, هل تُراها تنظر الآن إلى تلك النجوم التي ترتجف وتملئ السماء بهجة؟

الآن وجهت نظري نحو نجمةٍ لم أرى من أخواتها مثلما رأيت بها, كانت ترتجف بشدة, تومض سريعاً, تُشبه أحداً لم يفارق خيالي في الفترة الأخيرة, آه يا شقيقة القلب, لو تعلمين كم تحدثين بفؤادي براكين, وزلازل, لم تحدث على مجرتنا, ولم تعهدها هذه الأرض.

في صباح اليوم التالي استيقظت على صوت توديع سلمى لأمي, والدتي تعمل في مدرسةٍ بعيدةٍ بعض الشيء, فتضطر للخروج في السادسةِ والنصف: أما سلمى فقُبيل الحادثة كنت أقلها بسيارتي, أما الآن تذهب سيراً على الأقدام.

طرقات خفية على الباب:

"أدخلي يا سلمى"

-"سلمى: صباح الخير أخي"

-"وسيم: صباح الخير, هل ستأتي صديقتك اليوم؟"

-"سلمى: لا أعلم, جئت لأسألك إذا كنت تريد شيئاً"

-"وسيم: لا أريد, عندما تأتي عقلة الإصبع سأطلب منها"

-"سلمى: أخي أرجوك..لِمَ تفعل هذا؟ أخبرني بما يجول بداخلك؟ أشعر وكأن هذا العقاب مدخل لعقاب أكثر قسوة"

-"وسيم: هل تعتقدين أنني فقدت ضميري كصديقتك؟ ثم لا تخافي, لا أفكر بأكثر من هذا كعقاب, طبعاً في حال مجيئها"

صوت جرس المنزل.. إذن أتت عقلة الإصبع, ستكون بداية حافلة, غادرت سلمى الغرفة مسرعةً, ورحت أتبعها دون أن تشعر, ثم توقفت عند أعلى الدرج؛ لأسترق السمع لهما.

-"سلمى: تفضلي بتونيا"

-"بتونيا: ماذا سأفعل؟ هل أخبرك من أين سأبدأ؟"

-"سلمى: تمهلي لِمَ هذه العجلة؟ ثم ما بكِ لِما جفونكِ مُنتفخة, وعيناكِ حمراوين؟ هل هناك شيء؟"

-"بتونيا: لا عليك, لا يوجد شيء مهم"

عاودت أدراجي مسرعاً, ورحت أجلس على طرف سريري, كان بجانبي كتاب, تناولته ورحت أُبحلق بأوراقه, وتركيزي مع صوت قرعات قدميها, وكأنها تُقرع بروحي.

-"سلمى: أخي, بتونيا أتت, ماذا ستطلب منها؟"

-"وسيم: أليس لها لسان لتسأل؟ بتونيا تفضلي بالدخول"

تقدمت على استحياء, كانت بحالة مُزرية, وكأنها أمضت ليلتها بالبكاء, تُرى هل أنا السبب؟

-"بتونيا: تفضل ما هي أوامرك سيد وسيم؟"

فهمت سنتواصل بشكل رسمي:

" في البداية أريد أن تغسلي ملابسي تلك على يديكِ, ثم ستُعدين لي الإفطار, بعد ذلك س..."

قاطعتني سلمى:

" لدينا ساعة واحدة فقط يا أخي"

-"وسيم : افعلي ما أخبرتك به الآن, ثم إذا أتممتها عودي؛ لأُخبرك بقية مطالبي"

أخذت سلة الغسيل, وخرجت دون حتى إيماءٍ في الرأس, تبعتها سلمى, فقلت على مسمعٍ من بتونيا:

" لن تُساعديها, إذا فعلتِ هذا؛ سأرفع المُدة لأسبوعين"

مضت أول نصف ساعةٍ وكأنها دهرٌ بأكمله, كنت أشعر بألمٍ في معدتي, لكنه ألم لذيذ, أعتقد أنه ألم الحب, أشعر أن الفراشات تتراقص داخلي محدثةً تلك الآلام.

جاءت أختي لتخبرني أن أوامري تم تنفيذها, ثم دخلت عقلة الإصبع لتضع الطعام على الطاولة, ثم توقفت بقرب الباب منتظرةً ما تبقى من طلبات, دون أن تنبس بحرف. لا عليكِ, سأجعلك تتكلمين حتى لو بالإجبار.

-"وسيم: اجلسا على الأريكة "

أخذت ذاك الكتاب الَّذي تظاهرت أنني أقرأه قبل قليل, وأعطيته لها, كانت تجلس مُطأطأةً رأسها إلى الأسفل, حتى أنها لم تكن تتكلم مع سلمى, وكأنها هي من تعاقِبُنا لا نحن.

-"وسيم: الآن أريد أن أتناول إفطاري, وأنتِ ستقرئين لي "

-"بتونيا: من أين سأبدأ؟"

تناولت الكتاب منها, وفتحت على إحدى الصفحات بشكل عشوائي, ثم نَظَرَت نحوي وقالت:

-"لو سمحت, هلّا أعطيتني حاسوبك الشخصي؟"

أَخَذته ووضعت أغنية لفيروز وبدأت تقرأ, الآن أصبحت أعلم ذائقتها الموسيقية, إذن أنتِ فيروزية الهوى يا سيدتي الصغيرة.

كانت فيروز تُرنم بصوتٍ عذب:

(بعيونك حنين وبسكوتك حنين لو بعرف حبيبي بتفكر بمين)

وأنا أنظر نحوها وأتساءل بمن وبما تفكر؟ وما الَّذي أوصلها لتلك الحالة من البرود؟.

كان الكتاب لغادة السمان (رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان)

-"بتونيا: (أعرف أن الكثيرين كتبوا إليك, وأعرف أن الكلمات المكتوبة تخفي عادةً حقيقة الأشياء خصوصاً إذا كانت تُعاش .. وتحس وتنزف على الصورة الكثيفة النادرة التي عشناها في الأسبوعين الماضيين... ورغم ذلك, لحين أمسكت هذه الورقة لأُكتب كنت أعرف أن شيئا واحد فقط أستطيع أن أقوله وأنا أثق من صدقه وعمقه وكثافته وربما ملاصقته التي يخيل إلي الآن أنها كانت شيئا محتوما, وستظل كالأقدار التي صنعتنا: إنني أحبك.)

"إنني أحبك " أشعر بالغبطة من غسان لقدرته على إيصال مشاعره لغادة بتلك السلاسة, ليتني أستطيع الشرح عما في داخلي لبتونيا, أن أخبرها كم أصبحت شخصاً مألوفاً لقلبي, بل وأصبحت روحي تهوى إسمها ورسمها. دون أن أشعر كنت أُحدق بها بجمود, أفقت من نشوة أحلامي على صوتها:

-"ما بك تنظر إلي هكذا؟"

أمسكت بي وأنا متلبسٌ بالنظر إليها, تلعثمت, ورحت أصفُّ كلماتٍ ليست لها معنى:

" أنتِ لا تعرفين القراءة بشكل صحيح, فوجئت: كنت أعتقد أنكِ أكثر مهارةً, بما أنكِ على إطلاع وتقرئين الكثير من الكتب"

لا أعرف بما أهذي, أُحاول أن أخلص نفسي من تهمة النظر إليها, أقول بلساني عكس ما أخفي بقلبي, كانت تقرأ بصوتٍ عذب, وكلماتٍ تنساب كالماء دون حتى أن تُخطئ بضمة أو فتحة.

-"بتونيا: (يزيد سفاهةً فأزيد حُلماً... كعودٍ زاده الإحراق طيباً)"

أوه ما أقساها! لكنني أستحق ذلك

-"وسيم: كأنني لم أسمع ما قلتِ, تابعي القراءة, وإلا أبلعتك كلماتك تلك"

عادت تنظر في الكتاب, وعدت أنا أواصل النظر إليها.

*****

كنت أجيب ما يطلبه دون أن أنطق, ولم أظهر له حتى استيائي منه, طلب مني أن اقرأ له صفحات من كتاب لغادة السمان, لم يكن الكتاب غريباً علي, فأنا أحفظ نصف اقتباساته, إن لم تكن كلها, كنت أحاول أن أنهي الوقت المخصص دون مُشادات كلامية, لكنني لم أنجح بذلك ,كان ينظر لي وكأنه ينظر إلى احد أحلامه: بشغف, وابتسامة, دون أن يرف له جفن, باغتني قلبي قبل لساني بالرد, وراح ينتفض سريعاً, تُرى هل أنا حقاً غاضبة من نظراته تلك؟, لا أعلم, الآن تدخل عقلي وشعرت برغبةٍ بفقء عينيه, قلت مستاءةً:

-"ما بك تنظر إلي هكذا؟"

أجابني بشفتين مترددتين قليلاً, متلعثماً, قبل أن يُفكر بكلماته حتى:

-"وسيم: أنتِ لا تعرفين القراءة بشكل صحيح, فوجئت كنت أعتقد أنكِ أكثر مهارةٍ, بما أنك على إطلاع, وتقرئين الكثير من الكتب"

فرددت سريعاً دون أي تفكير صغير:

-" (يزيد سفاهةً فأزيد حُلماً... كعودٍ زاده الإحراق طيباً)"

-"وسيم: كأنني لم أسمع ما قلت, تابعي القراءة, وإلا أبلعتك كلماتك تلك"

آه يا أبي, هل ترى أين أوقعتني؟ رحت أتابع القراءة, ولم أكن أستمع لصوتي بقدر ما كانت أذناي مع فيروز, ودون أن أشعر بمرور الوقت, صحوت من غفلتي على يد سلمى تهزني وتقول:

-"ما بك يا بتونيا؟ ما كل هذا التركيز؟ هيا لننهض سنتأخر على المدرسة"

أغلقت الكتاب ورددت:

"عفواً, لم أسمعك "

نهضت على عجل, وتناولت حقيبتي, ورحت أركض كغزالٍ شارد, حتى أنني لم أنتظر سلمى.

-"سلمى: بتونيا, ما بك اليوم كالبلهاء؟ ماذا يحدث لك؟ انتظريني على الأقل"

توقفت عند مُقدمة الدَرَج, ورددت مُجدداً:

"عفواً, لم أنتبه"

-"سلمى: ما بك؟ عفواً..عفواً, وضعك لم يعجبني, هل هناك شيء لا أعرفه؟ أم أنك تعاقبيني؛ لأن أخي يُعاقبك؟"

-"بتونيا: أخبرك في الطريق, هلّا أسرعتي؟"

ذهبت لتُحضر حقيبتها, كان وسيم يقف عند باب غرفته, ويتابع حديثنا, ثم غرد البلبل وقال:

" تستطيعين إخباري بمشكلتك: إذا كنت تُريدين حلاً من إنسان يفهم, ويمتلك عقلاً يكبر عقلك بقياسات"

كنت أظن أنه يمتلك القليل من التهذيب؛ لكن من أين يأتي به؟ لا يُشبه إلا رزان, وافق شنن طبقا.

-"بتونيا: أكبر من عقلي, لكنه نظيف وما زال بعُلبته, لم تستخدمه, ولا أظن أنه يعمل أصلاً كمنتجات الصين"

-"وسيم: أنتِ فعلاً مريضة نفسياً"

-"سلمى: أنا جاهزة, هيا بنا"

خرجنا والبلبل يحاول أن يُلملم جبهته التي تُحلِّق في أرجاء المنزل.

في طريقنا إلى المدرسة, أخذت سلمى تستجوبني؛ لتعلم ما بي, فأخبرتها بما حدث.

-"سلمى: لِمَ الحزن على هذا الموضوع؟ إنسي الجانب السيئ, وانظري إلى الطرف الجميل, سيكون لديك أخت أو أخ ,يُشاركك كل شيء, يملئ عليكم المنزل بهجّ, وربما مجيئه سيُلطف الأجواء المشحونة في منزلكم, ويجد والدك ما يُلهيه عنك"

-"بتونيا :لا أعتقد ذلك؛ فأبي هو أبي, لن يُغيره شيء, فالطبع يغلب التطبع يا عزيزتي"

-"سلمى: اسمحي لي, أنت تُبالغين, لِمَ تُحملين نفسك أكثر من طاقتك؟ فكري بنفسك, وكيف تتجاوزين هذا الأسبوع بسلامة؟"

وصلنا إلى المدرسة, وانطلقنا إلى غُرفة الصف, كانت شهد قد قطعت الأمل من مجيئنا, وبدأت تُفكر بالسوء, عندما رأتنا سوياً عقدت حاجبيها, ونهضت عن مقعدها, وقالت:

" ماذا يحصل؟ ووجهت نظرها لي"

-"بتونيا: لا تخافي, أصبحت تعلم"

وانسحبت من بينهما, تاركةً لهما الحديث؛ لأن قلبي لم يعد يحتمل, رحت أجلس على مقعدي, وأُحدق بالمعلمات, تدخلُ واحدةً, وتخرج أُخرى, وتفكيري مشتت بين حمل أمي, وعقاب شرشبيل.

عدت إلى المنزل, كانت أمي مشغولةً في إعداد الطعام, وأبي لم يأتي بعد, رحتُ أحضن أمي من الخلف:

-"أمي, هل تعلمين أنك أفضل من في حياتي على الإطلاق؟, بهجة روحي أنتِ "

-"حياة: بُنيتي ما بكِ؟ هل هُناك شيء يُزعجك؟"

"لا يا أمي؛ فقط اشتقت لك كثيراً, هل أساعدك بشيء؟"

-"حياة: نعم, اذهبي بدلي ملابسك, وصلي, وتعالي لنُحضِّر المائدة"

أنهيت صلاتي وعدت إلى أمي, أتعلمون؟ أشعر وكأنني سأفارقها قريباً؛ ربما لأنني أخاف فعلاً أن تتعلق بطفلها الجديد وتنساني, أحاول أن أشبع نفسي بُحبها واهتمامها.

وضعنا الطعام على الطاولة. ها قد أتى والدي, ذهب نحو أمي: قبلها من وجنتيها. ثم أمسك بيدها, وأجلسها على مقعده الذي مُنذ ولادتي لم يجلس غيره عليه, وأخرج من جيب معطفه حذاء أطفال أزرق اللون. راحت أمي تضحك وتبكي في آنٍ واحد, هل أمي أيضاً مثل والدي كانت تتمنى أن أكون ذكراً؟

رفعتُ نفسي عن الكُرسي بصعوبة, وقلت:

"أستأذنكما, لا شهية لي"

ورحت أسير إلى غرفتي

-"زياد: بتونيا"

الحمد لله, وأخيراً أحدهم شعر بوجودي.

"نعم يا أبي"

-"زياد: اجلسي, وانتظري أن ننهي طعامنا, من الآن وصاعداً أنتِ من ستتولين نظافة المنزل, وحتى أنتِ ستُعدين الطعام, وتعتنين بأمك"

ماذا؟ أنا! يعني الآن سأصبح خادمةً في بيتي, ألا يكفيني خدمة شرشبيل, ضغطتُ على قبضتي, وقلت:

" لكني لا أُجيد الطبخ, ومدرستي؟, وواجباتي المدرسية؟ كيف سأفعل هذا؟"

-" حياة: والدك يُمازحك يا ابنتي"

قاطعها قائلاً:

"لا أمزح, أنا أتكلم بوضوح, من الآن وصاعداً لن تذهب للمدرسة, وستهتم بك, وبالمنزل, في النهاية ستتزوج ولن تحتاج إلى شهادتها, وواجباتها "

صَعقني أبي بكلامه, هل هذا كلام يصدر من إنسانٍ مُتعلم؟ كنت أقف بجمود, وبخيبة, أشعر أن الدنيا أغلقت جميع أبوابها بوجهي.

-"حياة: لن أقبل بهذا أبداً ما حييت, بتونيا ستكمل دراستها, لن أسمح لك بهدم مستقبلها؛ من أجل طفلٍ لم يولد بعد"

-"زياد: أرجوكِ, لا تُتعبي نفسك بالكلام, اهدئي قليلاً"

وأخذا يتكلمان, ويتناقشان, وتعلو أصواتهما, وأنا أبكي, وأقف دون حراك, والدمعة تجر الدمعة.

-"زياد: بتونيا اذهبي وحضِّري لنا كوبين من الشاي"

كان يقول ذلك والطعام ما زال متجمعاً بفمه, استجبت لأمره, ورحت أصنع أتعس شاي أعددته بحياتي, مُحمل بدموع عيناي, وغصة روحي قبل أن أخرج إليهما, توقفت لأسترق السمع, لكنني لم أسمع شيئاً, وكأنهما يتكلمان بأذان بعضهما البعض.

أخرجت كاسات الشاي لهما, ووضعتهما على مائدة الطعام, وأخذت أرفع الصحون, وأرسلها إلى المطبخ, ثم وضعتها بآلة الغسيل, ووضعت ما تبقى من الطعام في الثلاجة, ثم ذهبت إلى والداي, كانا قد أنهيا جدالهما, يشربان شاي الغصات الّذي أعددته.

" أنهيت تنظيف المطبخ, ماذا تريدني أن أفعل؟"

قلت هذا وأنا أنظر إلى الأرض منتظرةً رده.

-"حياة: اذهبي عزيزتي أنهي واجباتك المدرسية ونامي, لن نُخرجك من المدرسة "

نظرت إلى أبي؛ لأتأكد فرمقني بنظرة لن أنساها ما حييت, وكأنني أجلس على قلبه, وكأن وجودي بينهما هو سبب تعاستهما, ثم قال:

"ستعودين, لكن هذا لا يعني أنك لن تهتمي بأعمال المنزل, وإذا حدث وسمعت عنك شيئاً, أو تقاعستِ عن الأعمال المنزلية؟ سأبقيكِ بدون مدرسة"

-"بتونيا: والطعام كيف سأعده؟ أنا حقاً لا أعرف"

-"حياة: أنا سأطبخ لا تهتمي يا بُنيتي, هيا اذهبي لغرفتك, ولا تنامي وأنت جائعة "

الحمد لله أن لي أماً تقف بظهري دوماً, لي أم أفتخر بأنها أمي, تركتهما خلفي, رحت أرمي بنفسي على سريري, وأعانق وسادتي وأنفث نار صدري بها, روحي تحترق, وتحرق معها طموحاتي وأحلامي.

بعد ساعة, أتت والدتي تحمل صينية الطعام, وَضَعتّها على الطاولة, ثم اقتربت مني, وعانقتني, وأخذت تبكي:

"سامحيني يا ابنتي, أنا السبب بما تعانيه, أنا من أحضرتك لتلاقي تلك القسوة من والدك"

-"بتونيا: أخيراً يا أمي تعترفين أن أبي قاسٍ "

-"حياة: لا عليك, ما دمت أنا على قيد الحياة, لن تُضامي بإذن الله, أنتِ قلبي يا باتي "

-"بتونيا : لكن يا أمي, كيف سأهتم بالمنزل والمدرسة معاً؟"

-"حياة: لا تخافي, سأنجز أكبر قدرٍ من الأعمال ووالدك بالعمل, وأبقي لك أخفها"

-"بتونيا :آه يا أمي, كم أحبك! "

-"حياة: وأنا يا عزيزتي, هيا انهضي, كفكفي دموعك, وتناولي طعامك, وأنهي واجباتك المدرسية"

لم أنم ليلتها, ماذا لو علم أبي بأمر وسيم؟ ماذا سيفعل بي؟ هل سيحرمني من مستقبلي؟ كل ما يحصل لي بسببه, هو من أوصلني لهذه الحال.

نهضتُ في السادسة, رتبت المنزل وارتديت ملابسي, كان أبي مستيقظاً, يرتدي جواربه, ويُراقبني بعينين مليئتين بالغضب, يتمنى أن يُمسك بزلةٍ واحدةٍ لي.

-"زياد: اذهبي وحضّري لي القهوة"

أحضرتها له, وانتظرت أمراً آخر, فقال:

" ما هذا المعطف الذي ترتديه؟"

-"بتونيا: ما به معطفي يا أبي؟ إنه ساتر, وفضفاض؟ "

كنت أرتدي معطفاً طويلاً يمتد لأسفل رُكبتّي بخمسة أصابع, فوق زيي المدرسي, كان بنفسجي اللون, والمهم أنه ساتر, فلِمَ يعترض عليه؟

-" اذهبي وارتدي معطفاً آخر, هذا اللون مُلفت للنظر"

-"بتونيا : لكنك أنت من اخترته لي, وأخبرتني حينها: أنني البتونيا, ويجب أن أعطي اسمي الفرح الذي يحتويه "

-"زياد: غيَّرت رأيي, اذهبي وارتدي الأسود"

أذعنت للأمر كارهةً, انتظرت خروجه من المنزل, ثم ذهبت إلى منزل سلمى, لم يكن يبعد عن منزلنا سوى عشرة دقائق سيراً على الأقدام, عند وصولي بدأت سلمى باستجوابي من جديد.

-"بتونيا: أخبرك فيما بعد يا سلمى, لأنهي هذه الساعة أولاً "

توجهنا إلى الطابق العلوي, ثم إلى غرفة وسيم, طرقنا الباب ثم دخلنا, كان لا يزال نائماً, استيقظ على صوت سلمى وهي تناديه, وتهزه. ربما أطال السهر ليلة البارحة, نظر إليها بعينين نصف مفتوحتين, وقال:

"ماذا يحدث يا سلمى؟ ما بك؟"

انتبه مؤخراً لوجودي فعدَّل جلسته, وخلل أصابعه بين خُصلات شعره؛ ليُنظمه, ثم طلب منا الخروج؛ ليغسل وجهه. كان ينظر ببلاهة وكأنه نسي تماماً موضوع العقاب, يا ليته يفقد ذاكرته ونرتاح.

بعد عشر دقائق صاح لنا لنأتي, كان صوتُ فيروز يصدح:

(جاءت معذبتي في غيهب الغسق ..كأنها الكوكب الدُري في الأُفق..فقلتُ نورتني يا خير زائرةٍ ..أما خشيتِ من الحراس في الطرق)

ابتسمت تلقائياً, شعرت أنه شغل هذه القصيدة قاصداً, ثم تراجعت سريعاً عن تفكيري الأخرق هذا.

-"وسيم: الآن ستبدئين بترتيب مكتبتي, هيا أسرعي, لن تخرجي قبل أن أستسيغ شكلها"

هذا المخلوق ليس له أي داعٍ على هذه الأرض: بارد, متحجر القلب, هل كان سيكون رقيق الفؤاد لو كنا جزء من حكايات عالمية؟ كالجميلة والوحش مثلاً, لا أعتقد ذلك؛ فمن وُلِد على سجيةٍ مات عليها.

استفتحت عملي بإنزال جميع الكتب, ووضعتها على الأرض, كانت ثقيلة, ومُنوعة جداً, أبهَجَت قلبي, لكنه لا يستحقها, أيُعقل أن يُهملها هكذا, نظفت رفوف المكتبة, ورحت أرتبها حسب ما طلب مني البغيض, غيرت ترتيبها ثلاث مرات, وما زال يُغير رأيه, وأنا صبري قارب على النفاذ: أما سلمى فكانت تجلس على الأريكة, وتنسخ من دفتري فرض اللغة العربية. شرشبيل كان يجلس على مقعده, ويُصدر أوامره, ويتنقل بين أغنيات فيروز.

-"سلمى: باتي كيف أصبح وضع والدتك مع الحمل؟ هل ما زالت مريضة؟"

-"بتونيا: على حالها "

-"وسيم: والدتك حامل وهي بالخمسين من عمرها!, ماذا سيفعلون بطفلٍ بمثل هذا العمر؟ بالتأكيد ستكونين أنتِ المربية"

لا أخفيكم للمرة الأولى أفكاره توافق أفكاري, أشعر بأن هذا ما سيحصل, يجب أن أتزوج سريعاً؛ لأتخلص منهم, ضحكت بداخلي وراح صوتي يرتفع بالضحك.

-"سلمى: لا تكترثي لأخي, كما أخبرتك: الخيرة فيما إختاره الله"

وضعت أخر كتاب في مكانه, ونظرت إليها بيأس, ثم غلبت دموعي صوت ضحكاتي. وقلت:

-"لا أعتقد ذلك يا صديقتي؛ مساء الأمس أخبرني أن أعمال المنزل أصبحت لي, حتى أنه أصرَّ على عدم ذهابي إلى المدرسة لولا تدخل أمي, وأخبرني بكل صراحة أنه في أول خطأ لي, سأبقى في المنزل, وسأتزوج بأول عريسٍ يطرق بابنا, حتى لو كان من عمره, وبدأ محاولاته صباحاً في التحجج على لون معطفي. ما رأيك؟ هل حقاً أنا أبالغ؟"

تركت سلمى الدفاتر من بين يديها, واتجهت نحوي, وطوقت عنقي, وأخذنا نبكي بحرقةٍ وكأنه لم يكفني ما نُحت به البارحة, حتى نسيت وجود وسيم إلى أن أصدر صوته:

"ولِمَ لا تذهبي عند جدتك وتخبريها؟ علها تضعُ حداً له "

-"سلمى: حقاً يا باتي, لِمَ لا تستعيني بها؟ ربما هي أفضل من يستطيع مساعدتك"

-"بتونيا: لا أعتقد ذلك؛ فجدتي لا تستطيع أن تأخذ منه حقاً, أو باطلاً. سيجرني بيديه للانتحار, لولا أني أخاف الله؛ لفعلتها منذ زمن"

-"وسيم: ماذا تهذين؟ أتظنين أنك ستضُرينه بقدر ما تُدمرين نفسك؟ فكري بها, لم تكسبي الحياة, وأيضاً لن تكسبي الآخرة, لِما كل هذا الخوف منه؟ إن لم يكن الأب سندً لإبنته: فليذهب إلى الجحيم, ولِمَ لتخضعي له بكل شيء؟ لا تجعليه يُحدد مسير حياتك, أنت قُلتها كان سيبقيك في المنزل لولا تدخل والدتك؛ إذن فالحل موجود, كُلُّ كبيرٍ لهُ كبير, إذا اتحدت أمك وجدتك, وكبار عائلتك, لن يستطيع أن يجبرك على شيء, وإن رأيت أن الأمور تتعقد أكثر, بكل بساطة تذهبين لحماية الأسرة, وتحصُلين على كامل حقوقك"

وكأنه غرس خنجراً بصدري, أنا لا أجرؤ حتى على التفكير بمثل هذه الأفكار, فكيف سأطبقها؟

-"سلمى: لا تملئها بالحقد يا أخي, أُنظر إلى أين أوصلها الحقد, إلى خدمتك, فأين سيوصلها كلامك؟"

ثم وجهت خطابها لي:

" ابقي على حالك, الحديث سابق لأوانه, وإذا أبعدك عن المدرسة, حينها نُفكر بالحل, لا تحرقي نفسك بنفسك"

-"وسيم: لا تُثيري غضبي يا سلمى, أنت أصغر من أن تُفكري بحلول"

-"سلمى: وكأنك تكبرُني بعشرين عاماً ليس بستة."

ضِقت ذرعاً من نقاشهما, وضاق نَفَسي, فقلت لهما باستياء:

" كفاكما, ألا يكفيني ما أعيشه؟ لن أحتمل حتى جدالكما بهذا الموضوع"

تناولت حقيبتي وخرجت بغضبٍ عارم, أشعر وكأنني أثرت عاصفةً خلفي.

*****

نهرت نفسي بعنف, يكفيها ما تعانيه, لِمَ لنتآمر عليها جميعاً؟, ونزيد من آلامها وخيباتها.

-"سلمى! هيا اتبعيها بسرعة, حاولي أن تُنسيها همومها, ولا تتركيها وحيدة"

ذهبت سلمى تركض للحاق ببتونيا, آمل أن تلحق بها. رحت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً؛ علني أجد مخرجاً لتلك الفتاة من قبضة أبيها, منذ أن

رأيتها وهي تبكي بحرقة, وقلبي يؤلمني, ونار صدري تتأجج. أيا ليتني كنت والدها.

مضت على تلك الحادثة ثلاثة أيام, وفي الأيام الثلاث كانت تنفذ الأوامر بصمت تام, وكلما حاولنا أنا وسلمى جذب انتباهها؛ باءت محاولاتنا بالفشل, وحتى جِدالنا لم يكن يعنيها بشيء.

لم يدخل النوم لعينيّ منذ بكاءها الأخير, وكأنني أصبحت حارساً؛ أُفكر بحلول لعقلة الإصبع خاصتي, أصبحت أعيش في منتصف خدها الأيمن, وبالتحديد في تلك الغمازة الصغيرة, عندما تضحك يضحك قلبي من أعماقه, وأُدفن وأنمو في تلك الغمازة: كزهرة شتاءٍ قاسية, تحارب صفعات الرياح, وانهيال الأمطار عليها, تقف بشموخ زاهية الألوان كبتونيا.

بدأت أحب الشتاء, وصوت فيروز, حتى رزان أصبحت أحبها, أدخلت على حياتي الرمادية ألوانها البراقة, الساطعة, كيف سأمضي بقية أيامي من دونها؟ لم يتبقى سوى يومين لتنتهي هذه العقوبة الجميلة, أعتقد أنني كنت أعاقب نفسي ببتونيا, وكأنني لا أعلم أنها تشمئز مني, ولو أعطيتها ملعقةً من الماء لأغرقتني بها.

في المساء زارتنا خالتي مجد وابنتها ذات الشعر الأحمر المنفوش: رزان. زوج خالتي يعمل في الخارج ويرسل لهما النقود؛ ليصرفنها على مراكز التجميل, والملابس, والإكسسوارات. رزان تصغرني بعام واحد وعلى حسب مخططات أمي, وخالتي, وأحلامهما, تحاولان جاهدتين ليزوجنني

رزان, لكن لن أترك لهن الساحة للتفكير بمستقبلي, وتسيير حياتي كما يُرِدن, وهل أنا عقلة الإصبع؟ لأُذعن للأوامر دون دفاعٍ عن أحلامي, واااهٍ من عقلة الإصبع.

الباب يُطرق بعنف.. جاءت الآنسة اللطيفة, وكم الفرق شاسع بينها وبين بتونيا.

" أدخلي يا رزان"

قلتُ هذا وأنا مجبر؛ لأنها بكل الأحوال ستفتح الباب, وتقتحم غرفتي.

-"رزان: هيا انزل لتُرافقنا, أحضرنا لك الحلوى التي تُحبها "

-"وسيم: سأنزل لأُلقي التحية على خالتي وأخرج, زيد سيأتي ليأخذني إلى الملعب"

-"رزان: لكنك تعلم بمجيئنا, لِمَ لمْ تُلغي موعدك؟ ثم إنك لا تزال عاجزاً؟"

أثارت غضبي هذه الحمقاء, ألا يكفي أنها سيئة القلب, وأيضاً لا تعرف أدباً للحديث, لم أعرها انتباهاً حتى, وأخذت أسرح شعري ثم خرجت. هذه المرة سأعتمد على نفسي من دون استخدام عكازاي.

توجهت نحو أمي, قبلت رأسها, ثم قبلت خالتي من وجنتيها, وبدأ الكلام الذي لا أحبه أبداً.

"متى سنراك عريساً؟"

"أصبحت شاباً جميلاً, ويجب أن نجد لك عروساً: جميلة, ومهذبة"

وطبعاً الجميلة, والمهذبة من وجهة نظرهن هي رزان.

" الحمد لله, بدأت بالمشي على قدميك, والآن يجب أن تكمل نصف دينك"

أنا كنت أتناول الحلوى التي أحضرتها خالتي, ولا أعير إهتمام لكلامهما, إقتربت سلمى من أذني وقالت بهمس:

" أخي بدأت ساعتي, ماذا تريد مني؟"

نظرت إليها وقد ارتسمت ابتسامة بسيطة على شفتاي, ثم قلت:

" اذهبي فأنتِ طليقة"

لم تتمالك نفسها من الفرح, وراحت تعانقني, وتشكرني, والموجودين طبعاً, ينظرون إلينا؛ علنا نُخبرهم سبب ضحكنا, وعناقنا.

-"رنا: بسم الله, هل جُننتما لتضحكا بدون سبب؟"

-"وسيم: لا يا أمي, ضحكنا لسبب, لكننا سنحتفظ به لأنفسنا"

-"رزان: ما أخبار الباذنجانة؟ هل ما زالت تأتي لزيارتك يا سلمى؟"

سؤالها ملغوم, وربما ظنت أننا ضحكنا عليها؛ لذلك تحاول استفزازنا, فأجبتها أنا:

" لا يا عزيزتي, لِمَ لتأتي؟ "

-"سلمى: ما دخلك أنت؟ فهي صديقتي, تأتي متى تريد؟"

كانت ستجيبها لولا أنني رمقتها بنظرةٍ لتصمت, فامتثلت لي بالطبع, فكيف لها أن تُعارضني؟

بعد خمسة دقائق, أتى زيد, وبدء يضغط على بوق سيارته, وكأنه يُقيم إحتفالاً, ألقيت التحية عليهن, ووليت خارجاً.

-" زيد: يا أهلاً, يا أهلاً, وأخيراً تنازلت عن عنادك, وقررت أن تراني"

ضحكت على كلامه وتعانقنا عناقاً طويلاً, زيد الذي كان يرافقني يومياً, ليلاً ونهاراً, وأنا لا أراه منذ شهر تقريباً, وفعلاً اشتقت له كثيراً.

-"وسيم: هيا لنذهب أرجوك, أشعر بأنني سأنفجر من البقاء في المنزل, ومن رزان"

رد ضاحكاً:

" رزان ها, وخالتك, ومتى سنراك عريساً يا وسيم؟ أصبحت بطول النخلة وعقلك كعقل... "

قال هذا مُقلداً لخالتي, متقناً نبرة الصوت, وطريقة الكلام. أخذت أضحك بهستيريا, وكأنني جمعت حصيلة هذا الشهر, وأطلقتها دفعةً واحدة.

-"زيد : تفضل يا سيد وسيم, إلى أين تريد الذهاب؟ أؤمرني لأطيعك"

-"وسيم : في البداية أريد أن تجولني في البلدة؛ فقد اشتقت إلى شوارعها, وناسها, ومن ثم سنذهب إلى متجرنا"

-"زيد: المتجر! هل أنت مريض؟ لِمَ لنذهب إليه الآن؟ ثم أبي يديره في هذا الوقت, لا أريد أن أراه, فنحن لا نتفق في الفترة الأخيرة"

-"وسيم: ما بك أنت أيضاً؟ وما مشكلة الآباء في هذه الفترة؟"

-"زيد: تقصد عقلة الإصبع, هل تُراك تخطِبُها لي؟ لنتحد سوياً وننتقم من والدينا "

وحرك زاوية فمه اليسرى بخبث إلى الأعلى في ابتسامة ذات معنى, وددت لو سلخت جلده وصنعت منه حذاء, اِكفهر وجهي, ورحت أنظر إليه بنظرة غضب"

-"زيد: ما بك تحدق بي هكذا؟ أشعر وكأنك ستصفعني بعد قليل"

-"وسيم: هذا ما سيحدث غالباً "

اِتسعت حدقتا عينيه, وفغر فاه, وقال:

" تُحبها أليس كذلك؟!"

أرخيت عضلات وجهي, واِبتسمت؛ فشكل وجهه المذهول مضحك"

-"وسيم: نعم, أحبها, هل تُعارض ذلك؟ "

أوقف سيارته بالقرب من حديقةٍ صغيرة, ثم أشار لي بيده؛ لأترجل من السيارة, حقاً ذهوله أثار في قلبي المسرة, وأضحكني.

جلسنا على مقعد خشبي بجانب بعضنا البعض, ثم قال لي وآثار الدهشة ما زالت ترتسم على وجهه:

-" إذن أنت لا تمازحني, متى حدثت كل تلك التطورات ؟ أنت صديق خائن يا وسيم "

بدأت أقص عليه قصتي مع عقلة الإصبع, كان قلبي يرقص على لساني, كنت أشعر بفرحةٍ عارمة, أكاد أطير؛ فهذه المرة الأولى التي أُفصح لأحدهم عن مشاعري, لم نشعر بالوقت وهو يمضي, أصبحت الساعة الثانية بعد منتصف الليل, ولم نذهب لا لمتجر ولا لملعب, كان حديثي عن بتونيا يغرس حبها بفؤادي أكثر وأكثر, صدقاً شعرت أنني ذهبت إلى أخر العالم, وأنا أحلق من الفرح.

-"زيد: لكنها لا تُحبك, ولا تلقي لك بالاً, وأعتقد أنها تراك كنسخة مصغرة لوالدها"

وكأنه أخذني من شعري جراً؛ ليعيدني من أخر العالم ,لأقبع من جديد على مقعد الحديقة المتهالك, فأجبته بعد تنهيدةٍ طويلة:

"آه يا صديقي, لتراني كيفما تشاء, المهم هو أن أجد طريقةً ليُرخي والدها يده ولسانه عنها "

-" زيد: والله يا وسيم لو أخبروني فيما مضى أنك ستُصبح عاشقاً, ولبتونيا لما صدقت هذا أبداً "

-"وسيم: أنسى يا صديقي, هيا لننهض, فقد تأخر الوقت كثيراً"

عدت إلى البيت متأخراً, فتسللت بهدوء متجهاً نحو غرفتي. خمنوا بمن اصطدمت؟ لقد كانت رزان, ما الذي يبقيها هنا؟

-"رزان: ما بك مرعوب؟ هل أخفتك؟"

-" وسيم: نعم, أخفتني بشعرك المنتفخ كالجنيات, ثم لِمَ لا تزالين هنا؟"

-" رزان: سنبقى الليلة هنا, لم تسمح لنا خالتي رنا بالذهاب في وقتٍ متأخر من الليل"

آه منكِ يا أمي, هل هذا وقتك؟

-"وسيم: تُصبحين على خير إذن"

ووليت هارباً, رحت أطرق باب غرفة سلمى, فلم تجبني, بالتأكيد أصبحت بعالم الأحلام, فتحت الباب وأيقظتها, نهضت, ونظرت إلي بفزع, وقالت:

" ما بك يا وسيم؟ هل حدث لك شيء؟"

-"وسيم: أتعلمين أن رزان, وخالتي ستبقيان في منزلنا هذه الليلة؟"

انتفضت جالسة, ومصعوقة:

"ماذا؟ ماذا؟ وبتونيا. يا ويلي ستفضحنا رزان غداً, وإذا أسكتناها, ستتولى المهمة خالتي, ماذا سنفعل؟"

-"وسيم: هل تستطيعي مراسلتها الآن؟"

-"سلمى: أجننت أنت؟ ووالدها؟ ما مبرري لمحادثتها في هذا الوقت المتأخر؟ هل تُريد أن تُسبِبَ لها المتاعب ليلاً؟"

-"وسيم: إذن سنستيقظ باكراً قبل أن تأتي بتونيا, وتقرع الجرس "

-"سلمى: لن ننام يا عزيزي؛ فأنا لا أعدك بأني سأستيقظ مبكراً, فها أنت ترى, لم أنم سوى نصف ساعة, والوقت تأخر"

-" وسيم: إذن اذهبي, وأحضري لنا شطيرتين, وكوبين من الشاي"

-"سلمى: هل أعدتني للخدمة يا وسيم؟"

-"وسيم: لا يا صغيرتي, لكنني صعدت السلالم بصعوبة بالغة, واليوم أول يومٍ أخرج فيه من المنزل, وتعلمي.."

وضعت يدها على فمي لأصمت, ونهضت.

-"وسيم: أرجوكِ أذهبي وعودي بهدوء, لا نريد أن نمضي هذه الليلة مع رزان."

ذهبت وهي تضحك, و تردد:

(وجعلنا من بين أيديهم سداً و من خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون)

أمسكت بهاتفي, ووضعت أغنية لفيروز, ثم رحت أعبث بأغراض سلمى, وأجرب أدوات التجميل خاصتها, طبعاً من الملل, ثم لفت نظري دفتر رسوماتها, منذ سنة أو أكثر لم أرى شيئاً من رسوماتها, فقد أصبحت منغلقاً على نفسي, وعدائي, وهي أصبحت مجنونة. فترة المراهقة اللعينة أبعدتنا عن بعضنا, وجمعتنا بتونيا من جديد.

صرت أقلب صفحات دفترها, وأتمعن برسوماتها, فعلاً أصبحت موهوبة, كانت قد رسمت: أمي وأبي مبتسمان, أما أنا فرسمتني عاقداً لحاجِبيّ, غضبان, هل تراني هكذا؟ أعتقد أن هناك مشكلة جدية بيننا, يجب علي إصلاحها, أكملت تصفح أوراقها: وإذ بعقلة الإصبع تنظر لي بعينين عسليتين, واسعتين, ووجنتين ورديتان, ما أجملها من ملامح! وكأنها مازالت في السابعة عشر من عمرها, وجهها طُفُوليّ للغاية, أما شعرها فكستنائيّ اللون, وطويل.

طويل! إذن فهذه رُسمت قبل أشهر, اِنتبهت لتاريخها كان قبل ثمانية شهور. أخذت أتصفح بقية أوراقها؛ علني ألقى غايتي, فوجدتها أخر ورقةٍ في دفترها, وبدأت أتفحصها: شعرها هنا بدا قصيراً جداً, أعلى كتفيها, لكنها جميلة بكل حالاتها, بشعرٍ طويل, أو قصير, وأجملهن بالحجاب.

عندما نظرت لشعرها القصير بدأت أفهم حقدها تجاهي, وأعطيها الحق بالانتقام مني, وكأني صرت أنظر لنفسي بعينها.

اِنبلق الباب وظهرت منه سلمى, فعدت إلى صورتي, ولأخفي جرمي الّذي فعلته قبل قليل, أعلم أنه كان علي أن أغضّ من بصري, لكنني لم أستطع, فضولي كان يسحبني للبحث عن صورةٍ أخرى حديثة؛ لأحفظها بمُخيلتي, ثم اِنتبهت أنني أريها صورتي, وقلت:

" هل أنا عاقد الحاجبين, ومنفعل هكذا دوماً؟"

ضمت شفتيها مبتسمةً ابتسامة خفيفة, ثم وضعت الصينية أمامي, وقالت:

"هذا أنت يا أخي, دوماً حانق, وممتعض, وكأنك لا تحبني, سأكون صريحةً معك, أُشَبِهُكَ في بعض الأحيان بوالد باتي, صحيح أنت لا تضرب, ولا تشتم, لكنك تفتعل المشاكل, وتعاندني, وتصر على التقليل من شأني, ومن شأن من أصادق, وأقرب مثال: بتونيا "

صعقت! هل أنا الآن شبيهاً لأكثر إنسان أنزعج منه؟ هل يعقل أن بتونيا تكرهني؛ لأنها فعلاً تشبهني بوالدها؟ كما شبهتني به أقرب الناس لي؟

-"وسيم: لكن أنا.."

جلست على ركبتيها أمامي, ثم قالت مقاطعةً لي :

" أنت الآن تغيرت يا أخي, لم تعد كما عهدتك, أصبحت بشوش الوجه, جميل القلب, وحنون, وهذا فعلاً تغيير مفاجئ, ربما الحادثة المشؤومة

هي السبب بتغييرك للأفضل, لا أعلم لكن أرجوك ابقى على ما أنت عليه, حتى بتونيا التي كانت تبغضك أصبحت تألفك قليلاً"

-"وسيم: أصبحت تألفني؟ هل تمزحين؟"

-"سلمى: لا, لا أمزح, هي فعلاً بدأت تغيير إنطباعها عنك بعد الحادثة, وبالأخص في الأيام الأخيرة, بالرغم من عقابك لها"

هذه فعلاً أسعد ليلةٍ مرت علي منذ زمن بعيد, زمن كان فيه أبي على قيد الحياة. أخذنا الحديث ورحنا نتكلم عن ذكرياتنا, وطفولتنا, عن أبي, وفترة وفاته, وبقينا على هذه الحال إلى صلاة الفجر, وبعد أن أدينا صلاتنا غلبنا النعاس, فنمت أنا على الأريكة, وأختي على سريرها, ظننا أننا لن ننام, فقط سنستلقي قليلاً, ونكمل حديثنا, لكن أصبحنا في عداد القتلى بغضون دقائق.

صحونا على صوت جرس المنزل, نهضنا مفزوعين, وانطلقت سلمى مسرعةً إلى الأسفل, لكن بعد فوات الأوان, كانت رزان قد سبقتها,

لا أعلم ماذا حدث, لكنها عادت بوجه مضطرب: تتهدد, وتتوعد.

-"وسيم: ماذا يحدث هنا؟ ما بكِ تتمتمين؟"

-"رزان: أنت تعلم ما يحدث, لِمَ لتسأل عنك الباذنجانة إذاً؟ تفعلون شيئاً بالخفية, وسأعرفه الآن"

-"وسيم: عن ماذا تتكلمين أنتِ؟"

-"رزان: في الأسبوعِ الماضي كنت تتوعد, وتهدد, والآن تأتي لمنزلكم, وتسأل عنك لا عن سلمى "

-"وسيم: لا أعلم لما سألت عني, لكنني ما زلت على حالي, وأفكر لها بعقابٍ شديد, لا عليكِ أنتِ"

-"رزان: دعني أساعدك أنا في العقاب إذن"

-"وسيم: لا أرجوكِ, أنت فقط التزمي الصمت, ولا عليكِ, هيا اذهبي للنوم"

بعد أن تأكدت من ذهابها, نزلتُ قاصداً باب المنزل, حيث تقف بتونيا

-"وسيم: صباح الخير بتونيا "

-"بتونيا: صباح الخير, ماذا سأفعل اليوم؟"

-"وسيم: لن تفعلي شيء, لا اليوم ولا الغد, لقد عفوت عنكما"

نظرت لي باستغراب:

"أنت تسامحني أنا!, ولِمَ الكرم المفاجئ؟ هل خوفاً من أن تفضحك رزان؟"

-"بتونيا: أخاف أن تفضحك أنت, و تسبب لكِ المتاعب, لا أفكر إلا بك "

ثم أوليتها ظهري, وصعدت إلى غرفتي, إلى سريري بالتحديد, رميت عليه جسدي المتشنج من النوم على الأريكة, أخذت وسادتي, وأخفيت وجهي بها؛ علني أدفن كلماتي التي فضحتني بالخارج, ألم أجد لها سوى هذه الإجابة؟ كم أنت مغفل يا وسيم؟

*****

لم تخلوا أيامي السابقة من انفعالات أبي, وغضبه بداعٍ أو بدون, كان يدقق علي كل ما أفعله, حتى لو شربت الماء: لسألني لِما تشربيه؟ وإن كان بارداً, لقال لي لِمَ لا تشربيه دافئاً؟ ضِقتُ ذرعاً منه.

وصلت الآن أمام بيت سلمى, أدعو الله أن تمضي هذه الأيام سريعاً, قبل أن يشعر والدي, قرعت الجرس وانتظرت.

لِمَ لا يجيبون هؤلاء؟ رحت اضغط الجرس بشكل مستمر, لكن لم يفتح لي أحد, ربما حدث شيء ما, سأذهب الآن لمدرستي, وأتصل بسلمى في المساء.

اِستدرت لأمضي بطريقي, وقبل أن أخطو, فُتح الباب, وبانت منه الشمطاء الخبيثة.

-"رزان: ماذا تفعلين هنا يا باذنجانة؟"

نظرت لها باستغراب, كيف أتت هذه إلى هنا؟ الآن أصبحت قصتي على كل لسان.

-"بتونيا: تحدثي باحترام قليلاً؟"

-"رزان: سلمى لا تزال نائمة, ولا أستطيع أن أوقظها لكِ"

-"بتونيا: هل وسيم مستيقظ؟"

-"رزان: وسيم؟ وماذا تريدين منه؟"

الحمد لله, أن سلمى أتت لإنقاذي. وإلا كنت سأخبرها.

-"سلمى: صديقتي العزيزة, اِنتظريني قليلاً سأرتدي ملابسي, وآتي بسرعة"

-"رزان: صديقتك العزيزة كانت تسأل عن وسيم لا عنك"

-"سلمى: لتغيظكِ فقط, فأنتِ مستفزة كثيراً يا رزان "

ارتاح قلبي قليلاً, وقلت موجهاً كلامي لسلمى:

" هيا يا سلمى أسرعي في ارتداء ملابسك, ولا تنسي أن توصلي سلامي لوسيم "

ثم ذهبت وهي تشتعل, حتى أن شعرها الأحمر كان يلتهب من الغيظ, نظرت إلى سلمى, وضحكنا معاً على تلك المغفلة, بعد دقائق أتى وسيم

-"وسيم: صباح الخير بتونيا "

-"بتونيا: صباح الخير, ماذا سأفعل اليوم؟"

-"وسيم :لن تفعلي شيء, لا اليوم ولا الغد, لقد عفوت عنكما"

نظرت له بدهشة, ماذا تخطط الآن يا وسيم؟

"أنت تسامحني أنا, ولِمَ الكرم المفاجئ؟ هل خوفاً من أن تفضحك رزان؟"

-"بتونيا: أخاف أن تفضحكِ أنتِ, وتسبب لكِ المتاعب, لا أفكر إلا بك "

ماذا يقصد بلا أفكر إلا بك؟ هل يعني انه.. ؟ لا, لا أعتقد ذلك, تشوش عقلي الآن, ماذا يحدث لهذا الأبله؟ قطع صوت أفكاري صوت سلمى:

" انتظريني في الداخل يا باتي لن أتأخر"

-"بتونيا: لا أرجوكِ, لا أريد أن أتجادل مع ابنة خالتك المجنونة"

-"سلمى: كما تريدين"

ذهبت سلمى وأنا جلست على عتبة المنزل, أفكر بما قاله وسيم: لِمَ ليفكر بي؟ وهل بقي الخوف علي له؟ أوه ألا يكفيني ما أفكر به يومياً؟ ليدخل شرشبيل لأفكاري.

لأنظر إلى الجانب الجميل, تخلصت منه, ومن تأنيب الضمير, تبقت لدي مشكلة واحدة الآن: وهي أبي.

بعد انتهاء دوامي ودعت صديقاتي, وأكملت طريقي مع شهد, وسلمى, كالعادة. عندما وصلنا إلى الباب الخارجي للمدرسة: كان أبي يصطف

بسيارته على جانب الطريق, لا أخفيكم أخافني, منذ زمن لم يأتي ليأخذني من مدرستي.

ذهبت مسرعةً إلى السيارة, ولوحت لسلمى وشهد بيدي, وابتسمت, في ذات الوقت مر من أمامي شابان؛ فأبي العزيز لم يحسن الظن طبعاً, لِمَ ليغير عاداته؟ سيمرض إذا غيرها, نظر إلي نظرةً صلبتني بمكاني, كنت قد فتحت باب السيارة قبل أن أتجمد, فقبض على يدي وسحبني إلى داخل السيارة, وراح يتهدد, ويتوعد, ويشتم, الآن انتهت أحلامي.

أدخلني إلى المنزل وهو يضرب بيده على ظهري, كانت يده ثقيلة: كمطرقة تنزل بثقلها على مسمارٍ صغير؛ فيحنيه, ثم بدأ ينادي على والدتي, ليبلغها الخبر السعيد الذي ينتظره, وإذ بأمي تتلوى وتتألم, ذهبت أركض نحوها أنا ووالدي, ثم سارعت إلى غرفتها, وأحضرت لباس الصلاة, ألبسناها إياه, وأسرعنا إلى المستشفى, كان أبي يقود بسرعةٍ كبيرةٍ, وأنا أبكي ألماً, تارةً على أمي, وتارةً أخرى على ظهري المفتت, كنت أبكي قسوة أبي, غير المبررة, وأخذت أدعو الله أن تنقلب السيارة بنا ونموت جميعاً.

عندما وصلنا إلى المُستشفى أدخلوا أمي للطوارئ, وبعد فترة خرج الطبيب؛ ليخبرنا بأن أمي أجهضت طفلها, وأنه من البداية كان يتوقع حدوث ذلك: لمشكلة ذكرها لم أعرها انتباهاً, وكأن الحقد الّذي ولّده أبي بداخلي هو من جعل أمي تجهض.

جلس أبي على المقعد الذي يقبع خلفه, ووضع يديه على وجهه ليخفيه, وأخذ يبكي بحرقة, لم أشفق عليه؛ لأنه لم يشفق علي, عندما ضربني, وضل يبحث عن خطأ ليحاسبني عليه؛ فأخذ الله حقي منه, بقيت تلك الليلة في المستشفى بجانب أمي, كان وضعها يدمي القلب, وكأنها تفقد أول جنين لها.

كان بكاؤها مكبوت بصدرها, طوقتها بذراعي, وبدأت دموعها تبلل ملابسي.

-"بتونيا: أمي أرجوك كفي عن البكاء, قدر الله وما شاء فعل, لله حكمةٌ في هذا "

أجابتني ورأسها ما زال مغموراً بصدري:

" إني والله لم أعترض على حكمه, لكنني كنت أتمنى أن أرى صغيري, وأحتضنه يا باتي"

رفعت رأسها بيديّ ومسحت دموعها ثم قلت:

" الخيرة فيما اختاره الله, ربما كنتِ ستموتين وأنت تضعينه, أو أن يكون سيء الخُلق, ويتعبك, ادعي الله أن يبدلك خيراً منه و أن يعوضك بالأفضل"

-"حياة: يا رب, بتونيا.. ماذا حصل؟ نسيت أن أسألك لِمَ والدك كان يضربك عند عودتك من المدرسة؟"

-"بتونيا: ألا تعلمين طباع أبي؟, منذ أن علم بحملك وهو يبحث عن زلةٍ؛ ليبقيني كخادمة لمنزله, ربما الله أخذ الطفل منه؛ ليعاقبه على ما يفعله بي"

نظرت إلي أمي نظرة يأس, وتنهدت تنهيدةً متقطعةً, ثم انهارت من البكاء,

كانت تراودني نفسي أن اذهب للطبيب, بما أننا في المستشفى؛ ليفحص ظهري, لا أستطيع أن أسنده إلى الخلف من شدة الألم, كانت أمي تغط في نومٍ عميق بعد أن تناولت أدويتها, فوضعت رأسي على طرف السرير وأنا لا أزال جالسة على المقعد.

استيقظت صباحاً على صوت عمتي منى, نظرت إليها بعينين نصف مفتوحتين, وقلت:

-"صباح الخير,عمتي لم أشعر بوجودك"

فردت جدتي:

"وأنا يا صغيرتي, ألم تريني؟"

فعدلت ظهري بصعوبة بالغة, حتى أنني تأوهت من الألم

-"منى: طبعاً سيؤلمك ظهرك, كيف تنامين هكذا؟"

ذهبت وقبلت رأس جدتي, وعانقت عمتي, ثم دخلت إلى سرير أمي, ووضعت رأسي على صدرها, وأغمضت عيناي, وهي بدورها وضعت يدها على رأسي وبدأت تقرأ ما تيسر من القرآن الكريم.

دخل أبي وقبل أن أنهض, أخذ يصرخ:

" هل جننتِ أنتِ؟ هل أبقيتك عندها, لتنامي على سريرها وتضايقيها؟"

-"حياة: أرجوك يا زياد ليس وقته, متى سأخرج من المستشفى؟"

"الآن سنخرج هيا استعدي, سأنهي بقية الأوراق, وأعود"

عدنا إلى المنزل, ورافقتنا جدتي, وعمتي. كان الوضع مستقر؛ فأبي التزم الصمت, طبعاً لم يخلو الأمر من نظراته, وأوامره, في المساء أتى أحمد خطيب عمتي, وجلس مع أبي في غرفة الضيوف, فارتحت قليلاً من أبي؛ لأن عمتي كانت تتولى مهمة إرسال الضيافة لهم.

في السادسة مساءً رن هاتف أمي, كانت المتصلة سلمى, فأخذت الهاتف لأحادثها على عجل؛ كي لا يمسك بي والدي.

-"بتونيا: أهلاً يا سلمى, كيف حالك اليوم؟"

-"سلمى: بخير, أخبريني أنتِ, ماذا حدث البارحة؟ "

-"بتونيا: لا عليكِ مني, أمي أجهضت الجنين, وبقيت برفقتها الليلة الماضية"

-"سلمى: الحمد لله على السلامة, إذن سنزوركم غداً, أنا ووالدتي"

-"بتونيا: أهلاً وسهلاً, بانتظاركم يا عزيزتي"

-"انتظري لا تُغلقي, هل فعل لك شيئاً البارحة؟"

كان وسيم الّذي يطرح السؤال؟ صُعِقت.. هل سلمى أخبرته بما حدث أمام المدرسة؟ سأنتف شعرك عندما أراكِ يا سلمى"

-"وسيم: أجيبي يا بتونيا ماذا حدث؟"

-" بتونيا: لم يحدث شيء, سأغلق.. لقد جاء والدي, وأقفلت الهاتف, كان والدي يقف خلفي, ستقوم القيامة الآن, يا له من سوء حظٍ كبير.

-"مع من تتكلمين؟ ألم أخبركِ أن الهاتف ممنوعٌ عليكِ؟ هل تُعاندينني؟"

ثم تدخلت والدتي قائلة:

" هذه سلمى, كانت تريد الإطمئنان عليها؛ لتغيبها اليوم عن المدرسة, وستزورنا غداً هي ووالدتها"

-"زياد: لا يا عزيزتي, لن يزورنا أحد, وابنتك هذه تفتقر للتربية, وأنا الآن سأربيها"

بدأ يصفعني, ويركلني, ولم يستطع أحد منهم أن يُفرقه عني, حتى دموعُ أمي لم تكفي ليُنزِل أبي يده, لم يكن أب بل كان وحشاً كاسراً, سمعت جدتي تقول:

"اللعنة على أبٍ مثلك, حسبي الله ونعم الوكيل, هل رأيت حكمة الله في إجهاض حياة لجنينها؟ "

أنزل يديه أخيراً, لا أعلم أأنزلهما خوفاً من دعاء جدتي أم ليلتقط أنفاسه؟ وقفت أنا؛ لأحاول الهرب إلى غرفتي, لم أشعر إلا بقدمه تركلني لأهوي أرضاً, كان رأسي قد اصطدم بالأرض بقوة, ثم فقدت الوعي.

عندما استيقظت كنت بالمستشفى: ممددةً على السرير, كان الصداع يُقيم إحتفالاً برأسي, ولم أذكر لما أنا بالمستشفى, أشعر بتعبٍ شديد, ولم يبقى جزءِ من جسدي لم يتأذى.

-"أمي.. ماذا حدث لي؟"

-"حياة: لا تخافي يا ابنتي, أنتِ بخير "

-"لكن رأسي يؤلمني بشدة.. وجسدي.. آهٍ يا أمي"

بدأت أتأوه وأبكي, وتذكرت ما صنعه أبي بي, أخذت أمي تمسح على رأسي, وتُقبل يديّ. بعد دقائق دخلت عمتي وجدتي؛ ليطمئنا علي, ويرافقهما أحمد, أما أبي فلم أره.

-"أحمد: عزيزتي باتي.. الشرطة هنا؛ يريدون أن يعرفوا كيف سقطتِ عن السلالم؟"

ما به؟ هل فقد عقله؟

"لكن أبي هو.."

قَبَضت أمي على يدي, وأغمضت عيناها ترجوني أن أصمت, وفي نظراتهم جميعاً خوفٌ, ورجاء. لا أعلم لِمَ تذكرت حديث وسيم؟ عندما قال لي:

أن أُخبر الشرطة إن لم أجد من يردعه, وها هم عِوضاً عن عِقابه يقفون مُتكاتفين إلى جانبه.

"سيدي..سأخبرُك بكل ما حدث"

حاوطتني نظراتهم المرعوبة والمُخيفة بذات الوقت, أخذت أختلقُ حادثةً, وأُخبِرَها للشرطي, بعد أن أنهيتُ حديثي خرج مُتمنياً لي السلامة. تنهد الجميع في آنٍ واحد, أغمضت عيناي وانهرت من البكاء, ولم أقبل مواساة أحدٍ منهم: حتى أمي.

في اليوم التالي.. أتى الطبيب للتفقد: فأخبر والدتي أن وضعي مُستقر, وأن ما أصابني كان ارتجاج بالدماغ, ثم اقترب مني وقال: اسمعيني يا ابنتي ولا تخافي, ليس هُناك ما هو خطير, لكنك في المستقبل ستُعانين كثيراً من الصداع, وربما تفقدين الوعي, ستُعانين قليلاً من التركيز والنسيان, سيُصاحبك طنين في الأُذن وقيء, ويكون استيعابكِ بطيء بعض الشيء, لا أخبرُكِ هذا لتخافي؛ بل لتعلمي عندما يمُرُّ بك أي عرض من هذه الأعراض التالية, أنه طبيعي, ومن الحادثة, بالإضافة إلى التعب والإرهاق الشديدين واضطرابات في النوم, التذوق, والشم, ستزيد حساسيتك تجاه الضوء, والأصوات المرتفعة, وتصبحين انفعالية وعصبية, أما الآن ستبقي في المُستشفى؛ لنطمئن عليكِ أكثر.

ثم بدء الفحص للرؤية, والسمع, وردود الفعل, وغيرها, بعد ذلك بدأ يطرح علي الأسئلة؛ ليتأكد من ذاكرتي, وتركيزي. أمضيت وقتً طويل

مع الطبيب, فيما سبق كنت أعتقد أن ارتجاج الدماغ مميت, لكنني اكتشفت أنه مرض كغيره...

أتعلمون؟ لقد شعرت بالخوف من أعراض المرض الكثيرة, وأخاف أن أبقى هكذا ما حييت, أمي كانت تجلس على مقعدٍ بعيد قليلاً عني, وأبي كان يقف على الباب؛ كي لا أراه, لكنني أشعر بوجوده كخطرٍ يقترب مني.

عندما خرج الطبيب توقف عند الباب؛ ليُحادث والدي, أخبره أني بحاجةٍ للراحة التامة, جسدياً, وعقلياً, ويجب التخفيف من الفروض المدرسية, ومن الرياضة, والحركة حتى من استخدام الهاتف, والحاسوب. طال حديثه وشرحه لأبي, لكنه أبي لن يرتاح إلا حين يقتلني بيديه.

في المساء..أتت سلمى ووالدتها لزيارتي, وطبعاً وسيم الّذي بقيَّ ينتظرُ خارج الغرفة, أبي كان قد ذهب ليرتاح في المنزل, والحمد لله أنه لن يعود, لأنكم تعلمون عواقب اجتماعه بوسيم التي أبتلعها أنا.

*****

بعد خروج سلمى لمدرستها, أقفلت باب غرفتي بالمفتاح؛ كي أمنع رزان من تنغيص نهاري, وضعتُ سمَّاعتي في أذناي, وأخذت أستمع لفيروز, تناولت كتاب لأحلام مستغانمي بعنوان (عابر سرير) وقرأت الكثير من الصفحات, حتى وصلت إلى هذا الاقتباس, اقرأوا بالله عليكم.

(عاودتني تلك الأمنية ذاتها: ليت صوتها يُباع في الصيدليات لأشتريه .. إنني أحتاج صوتها لأعيش.. أحتاج أن أتناوله ثلاث مراتٍ في اليوم.. مرة على الريق, ومرة قبل النوم, ومرة عندما يهجم علي الحُزن, أو الفرح كما الآن .. أي علم هذا الذي لم يستطع حتى الآن أن يضع أصوات من نحب في أقراص, أو في زجاجة دواء نتناولها سرا, عندما نُصاب بوعكةٍ عاطفية بدون أن يدري صاحبها كم نحن نحتاج إليه)

التفكير وحده بأنني لن أراها يوماً يُنغِّصُ كُلَّ أوقاتي, لست بحاجةٍ لتدخل من رزان, سأنتظر الآن الفترات المتباعدة لأُلقي عليها السلام فقط, يا رب أعلم أنها من ضلعي, أشعر بهذا فعجل التئامنا.

في الثانيةِ عصراً, عادت سلمى من مدرستها, اتّجهت نحوي مباشرةً دون أن تُلقي السلام, كنت حينها أجلس مع خالتي وأمي, وصاحبة الشعر المُنتفش, انحنت مُقتربةً من أُذُني, ثم قالت مُرتجفة الصوت:

"هلّا أتيت معي ؟"

كان الجميع ينظرون نحوها متسائلين, لكنها لم تُعرهم انتباهاً, وذهبت إلى غرفتها.

-"رنا: ماذا أخبرتك؟ ما بها ؟"

-"وسيم: لا أعلم يا أمي, الآن سأصعد لأرى ما بها "

لم أصل إلى غرفتها إلا بشق الأنفس؛ فقد كانت قدماي تؤلمانني بشدة, عندما صرعتُ الباب وجدتُها تجلسُ على الأريكة: مُصفرة الوجهِ, مُرتجفة الجسد.

-"وسيم: ما بكِ يا صغيرتي؟ أخبريني ما هذه الحالة؟"

-"سلمى: باا..تي"

انزلق قلبي إلى قدماي خوفاً, وكأن ما أصاب سلمى من هلعٍ قد أصابني.

"ماذا حدث لها؟ هيا تكلمي"

أخبرتني بما حصل أمام مدرستها, اشتعلت النار بداخلي, ماذا سنفعل الآن؟ كيف سنتدخل؟

لِحقت بنا والدتي؛ لتعلم ماذا يحدث؟ فأعادت سلمى سرد الحادثةِ على أمي, وأنا أذرعُ الغُرفة ذهاباً, وإياباً, يميناً يساراً, يداي مُتشابكتان, وباطنهما مُتعرق, قلبي يتسابق بالنبض والألم مع أمعائي, هل يا تُراه يؤذيها؟

أَخَذَت أمي تُطبطب على سلمى, وتُهدأ من روعها, وأنا يا أمي, ألا تعلمين بكمية الحريق الذي يجتاحُ جوفي؟

إصطحبتنا أمي معها لنتناول طعام الغداء؛ لكننا بقينا نُحرِك الملاعق في أطباقنا دون أن نُقربها من أفواهنا حتى.

اعتذرت أنا وصعدت إلى غرفتي, ولحقت بي سلمى, بقينا نفكر بحلٍ, لكننا لم نجد, في المساء غادرت خالتي, ولم ننزل لنودعها.

بقينا هكذا لليوم التالي, ثم أصريتُ على سلمى أن تتصل بها.

"سلمى, هلّا اتصلتِ بوالدة بتونيا؟ "

-"سلمى: لا أستطيع, أخاف أن أزيد الطين بِلة"

-" أرجوكِ. هيا المهم هو أن نطمئن عليها"

أخذت سلمى هاتفها تطلب والدة باتي, فردت عليها عُقلة الإصبع, أخذت الهاتف من سلمى, وفتحتُ مُكبر الصوت, نَظَرَت الأخيرةُ نحوي باستغراب ثم حركتُ لها إصبع السبابة بحركة دائرية أمام فمي؛ لتتذكر لِمَ اتصلت بها؟.

-"بتونيا: أهلاً يا سلمى, كيف حالك اليوم؟"

-"سلمى: بخير, أخبريني أنتِ, ماذا حدث البارحة؟ "

-"بتونيا: لا عليكِ مني, أمي أجهضت الجنين وبقيتُ برفقتها الليلة الماضية"

حمدتُ الله كثيراً في سرِّي أنها بخير.

-"سلمى: الحمد لله على السلامة, سنزوركم غداً, أنا ووالدتي"

-"بتونيا: أهلاً وسهلاً, بانتظاركم يا عزيزتي"

تناولت الهاتف من يد سلمى, ورحتُ أسألها بانفعال:

-"انتظري..لا تُغلقي, هل فعل لكِ شيئاً البارحة؟ أجيبي يا بتونيا, ماذا حدث؟"

ثم اعتذرت مني وأغلقت الهاتف, لِمَ لمْ تُريحي قلبي يا مُهجة الفؤاد؟ لِمَ تتركيني حائراً تائهاً بين إحتمالات وفرضيات سيئة؟

-"سلمى: ما هذا الذي فعلته؟ ماذا لو كان والدها أيضاً يفتح مُكبِر الصوت؟"

توقف قلبي وجلست على سريرها بقلةِ حيلة, هل سأبقى أنا المُسبب بالآم تلك الفتاة المُنهكة؟

اقتربت سلمى نحوي وجلست على رُكبتيها أمامي, وركزت عينيها في مُنتصف القزحية, في بيابي عيناي بالتحديد متسائلة:

" أنا صديقتها ويحق لي القلق عليها؛ أما أنت فمن تكون لها؟"

أنزلتُ عيناي إلى الأسفل؛ لأراوغ بالإجابة, وقبل أن أبدأ بالتلفيق قالت: " تُحبها, أنت والله تُحبها"

-"وسيم: وإن أخبرتكِ أني أُحبها, ماذا ستفعلين؟"

-"سلمى: وسيم! هل تُمازحني؟ ورزان, ومخططات والدتك, لا تملك بصيص أملٍ حتى, ثمَ إنَّ بتونيا صاحبة الشأن لا تعلم بعد "

-"وسيم: هل أُخبِرك بهذا؛ لتُحطمي آمالي؟"

-"سلمى: لا أُحطم آمالك يا أخي؛ لكن هناك شيء يُدعى: المنطق, ألم تسمع به ؟"

-"وسيم: هيا يا عزيزتي إلى غرفتك, لا أُريد أن أرى وجهكِ اليوم "

-"سلمى: يا وسيم استمع لي, ألن أُحب لك الخير مثلاً؟ لكن ..."

أسكتها وقلت وأنا أفتح الباب؛ لأخرجها:

"هذا الحديث سابق لأوانه, هيا إلى الخارج"

أمضيت ليلةً لا يعلم بها إلا الله, كنت أنتظر اليوم التالي بفارغ الصبر, في داخلي شعور سيء للغاية, هل شعر أحدكم يوماً بألمٍ يعتصرُ أمعائه عندما يخاف, أو يتوتر؟ لا أعلم؛ لكنه إحساس قبيح, وسيء, ويستهلك حتى نَفَسَ الإنسان.

كان اليوم التالي يوم الجمعة, اجتمعنا لتناول طعام الإفطار قبل صلاة الظهر, ثم توضأت واتجهت إلى المسجد القريب من منزلنا, وبعد الصلاة عدت لمنزلي على عجل؛ علني أُقنع والدتي بالذهاب معها, حتى لو بقيت أحرس الباب.

-"وسيم: أمي, أين أنتِ؟"

كان صوتها يأتي من المطبخ؛ فاتجهت نحوها, كانت تجلس برفقة سلمى, ومن الواضح أن هناك حملة تنظيف كبيرة؛ فالأرض ممتلئة بالماء والصابون, كما خزائن المطبخ. جلست على مقعدٍ بجانب سلمى التي منذ استيقاظنا

وهي تنظر نحوي بحيرة, أعتقد أنها أصْبَحَت تعلم سبب التغيير المُفاجئ الّذي طرأ علي, ألم تُخبرني هي أن لا أتغير؟ إذن لن أتراجع وسأبقى مصمم؛ للحصول على ما أريد.

-"وسيم: أمي, متى ستذهبين لزيارة والدة بتونيا؟"

-"رنا: لا أعلم يا عزيزي, ربما بعد صلاة العصر"

-"وسيم: إذن سأرافقكما"

-"رنا: لِمَ لترافقنا؟ أتُريد أن يقتلك والدها؟ أعطشت لأجلك يا بني؟"

-"وسيم: سأنتظركما بالخارج يا أمي "

-"رنا: لن تذهب معنا يا وسيم, وانتهى النقاش هنا "

استشطت غضباً, وخرجت إلى غرفة الجلوس أُفكر كيف سألحق بهما؟ فأنا لا أستطيع قيادة السيارة بتلك القدمين الباليتين, ثم لاح في تفكيري صورة ابن عمي العزيز زيد, إنه مُنقذي الوحيد.

وافتني سلمى بعد دقائق تحمل كوباً من الشاي, وضعته على الطاولة أمامي, ثم استقرت على المقعد المواجه لمقعدي, وراحت تُحدق بي, ثم قالت:

-" ما الّذي تحاول فعله يا أخي؟ أنت لا تزال في مُقتبل عمرك, لما لترمي بنفسك في نيران لن تتحمل هبوها؟"

-"وسيم: لا أدري كيف سأوضح لك حقيقة ما أشعر به يا أختي؟ بتونيا: هي السبب بتغير حالي للأفضل, أصبحتُ أرى الناس من منظورٍ آخر, أريد أن أحيا تلك الحياة التي أرهقتني بعد موت والدنا. بدأتُ أُحب الصباح, وصوت العصافير الذي كنت أنزعج منه؛ لقد صرت أرقص فرحاً على أنغامه, أحببت الليل ونجومه, حتى أنني بدأت أحب صوت صراصير الليل, رزان البغيضة التي كنا نتجنب لقاءها بدأت أتفهمها, وأتفهم حبها المستميت لي؛ لأنني أعيش ذات المشاعر لغيرها.

نهَضتُ من مكاني, ورحت أجلس بقرب أختي, أمسكت بيدها, ووضعتها على صدري وقلت:

"ألا تشعرين بنبضات قلبي؟ إذا وجدتها طبيعية فانظري لعينيّ, ألا ترين بريقهما؟ تفحصيهما جيداً, سترين أن بتونيا تقبع داخلهما, وداخل صدري, وفكري, وأحلامي "

لم أُكمل حتى ما بدأت من كلام, أخذت تُعانقني بشدة وتقول:

-"إذن..أنت عاشق يا أخي البغيض, كنت أُشفق على من ستُحبها: لكنني الآن أشعر براحةٍ كبيرة تسكنني. أخي أحبب بتونيا بكل ما لديك؛ لأنها تحتاج إلى من يُحبها ويقدرها"

وبعد هذا الفيض الكبير من المشاعر, تناولنا طعام الغداء. بعد صلاة العصر ذهبت أمي وسلمى لتبديل ملابسهما, وقبل أن تخرج والدتي, أخَذَت الهاتف وطَلَبت والدة باتي, ألقت التحية عليها, وسألتها إذا كان

بإمكانها زيارتها, ثم فتحت فمها وعينيها مصعوقة, لا أُخفيكم تجمَّدَ الدم بشراييني, حصل لها مكروهٌ ما, أشعرُ بذلك من البارحة.

أغلقت أمي هاتفها. وأخذت تقصُّ علينا ما أخبرتها به الخالة حياة, إذاً ارتجاج دماغي يا مفتري.

"سأقتلك يا زياد.. سأقتلك"

قلت هذا وأنا أهمُّ بالخروج من المنزل, كان الغضب قد تملك ما تملكه مني, أُغشي على عيناي من شدة النيران المتطايرة, لحقتا بي أمي وسلمى محاولاتٍ كبح جِماح جنوني, هدأت قليلاً ثم رافقتها, كنت أود لو أستطيع قيادة السيارة؛ لأطير وأحلق لرؤية قُرة عيني, والإطمئنان على حالها, بدلاً من قيادة أمي المتباطئة, كانت قد فتحت المذياع على إذاعةٍ للقرآن الكريم قاصدةً تهدئة كلينا: أنا وسلمى, كانت حالة سلمى يُرثى لها, ساكنة, مُصفرة الوجه, جسدها يرتجف, وشفتاها تتمتم بالذكر والدعاء.

وبعد طريقٍ طال, رغم أنه لم يتجاوز العشر دقائق؛ إلا أنه مر علي كعشرة أعوامٍ قاسيات, ترجلنا من العربة متوجهين نحو غرفتها بالمستشفى, وعلى بابها أمسكتني أمي من يدي وأوقفتني:

-"نحن سندخل, وأنت انتظرنا هنا"

همَّت إلى الغرفة وهي ترمقني بنظرةٍ مُدركةً لما أشعر به تجاه بتونيا"

بعد عشرين دقيقة أقبل والدها, نظرت إلى بلاط الممر مُتجنباً رؤيته؛ لكي لا أنقضَّ عليه, وأهشم وجهه المستفز, ليس من أجله بل خوفاً على عقلة الإصبع من بطشه.

اتجه نحوي وقال :

-"هي أنت, ماذا تفعل هنا؟ "

أجبته والحقد يتطاير من كل شعرةٍ بجسدي:

-" أنتظر والدتي وأختي. هل لديك أي اعتراض؟"

-"زياد: وهل تربيت على الانتظار أمام أبواب الغرف؟"

-"وسيم: لا تقلق, لقد تربيت على يد رجلٍ لو أمضيتُ عمري أدعو له, لن أوفيه جزءً من حقه"

-"زياد: ماذا تقصد؟ إلى أين ستصل بتلك الوقاحة؟"

-"وسيم: وهل ترى الخوف على الأبناء, واحتضانهم والوقوف خلفهم و خلف أحلامهم وقاحة؟"

قطب بين عيناه واقترب مني, ثم قال:

-" انصرف من أمامي كي لا.."

وأسكته مقاطعاً بنظرة غضب, وبنبرةٍ عالية:

"ماذا ستفعل؟ ها.. ماذا؟ أخبرني لأعلم"

ابتعد عني قليلاً, ثم قال:

-"هل تتزوج ابنتي؟ أم أجد لها رجُلاً آخر, أكْثر نضجاً منك؟"

كان هذا أخر شيءٍ يُمكن أن أُفكر به بحياتي, بل لن يخطر على بالي أبداً.

-"وسيم: ماذا تهذي أنت؟ ابنتك لا تزال صغيرة, كيف تُفكر بتدمير حياتها؟ ألا يكفيها ما عانته منك؟ لِمَ تُصر على قتل ابنتك بيديك؟"

-"زياد: لن أخبرك السبب, إذا كنت تريد أن لا تُعاني ما تُعانيه, أو أن تعانيه مع زوجٍ يكبُرها بعشرين عاماً؛ فعليك أن تقبل, وابنتي ليست بطفلة عمرها سبعة عشر عاماً"

-"وسيم: هل جُننت؟ ما زلنا أطفال لنتزوج, وكيف ترضى لأبنتك الزواج من شابٍ ما زال يدرس؟"

-"زياد: لا تتزوجا حالاً, لتحصل الخطوبة أولاً, وسيكون المقابل أن أخفف عنها ما تعانيه, أشعر بأنك ستكون سنداً لابنتي, أرجوك لا أريد أن أزوجها رجلٌ يكبرها بأعوام, أعلم أنني أُدمر حياتها. أخاف أن تموت على يديّ وأنا تحت تأثير الغضب, أدرك أنك لا زلت شاباً, كما أدرك غضبك من أجلها, وأشعر أنك تُحبها, وكما تعلم الرجال يفهمون على بعضهم"

-"وسيم: أتظن أنك رجُلاً؟ لا أستطيع أن أفهمك, تعلم أنك تُدمر حياتها, ومستقبلها, وتُصر على أن تؤذيها من قِبل شخصٍ آخر"

-"زياد: عرضتُ عليك عرضي, وأُريد الإجابة قبل أن تُغادر المشفى"

رحتُ أُجول ناظريَّ؛ علني أجد مقعداً أرمي بثقلي, وثِقل قلبي عليه, لكنني لم أجد سوى البلاط نفسه الذي كنت أحدق به. انزلقت جالساً على الأرض, أسندت رأسي على الحائط, ورحت أفكر, لأول مرةٍ أشعر أنني غير قادر على اتخاذ القرار, ماذا سأفعل؟ ماذا سيحدث ؟ لا أعلم. وكأن دماغي توقف عن التفكير, وعن الإحساس, أعادني إلى واقعي صوت والدتي:

-"رنا: وسيم.. ما بك يا بني؟ ما حالتك هذه؟"

ومن دون أن أفكر حتى, نظرت نحوها وقلت على مسمعٍ من زياد:

-" طلبت بتونيا من والدها؛ وقبل طلبي"

لم يكن باستطاعتي النظر لوجه أمي وأختي, لا, لا أُريد حتى أن أرى ردات الفعل. أعلم أنني أفعل شيئاً مجنوناً, لكني لن أستطيع أن أُفرط بمُهجة الفؤاد, قصبةِ السُكر؟ لن أتركها لهذا الظالم؟

أولتني أمي ظهرها مُتجهةً للخارج, ولحقت بها سلمى دون أن تنبسا بحرفٍ واحد.

أتى زياد وجلس بقربي ثم قال:

"أعلم أنك تكرهني, الآن سأخبرك بسر؛ لكنه سيبقى بيننا, ربما تعلم حينها سبب شكي وخوفي الدائم"

نظرت نحوه منتظراً ما سيقوله, ويا ليته لم يُخبرني؟

-"بتونيا ليست ابنتي, أخذتها من إحدى طالبات السكن الجامعي, ولا أحد يعلم: سوى والدتها. كل خوفي, وحرصي عليها؛ لأنني لا أريد أن تصبح كأمها التي أنجبتها, فإذا تزوَجَت؛ سأرتاح, لا أُريدها أن تُحِب, لأنني أعلم أن المُحِب لمن يُحب مُسلِما, هي بالنهاية ابنتي, لا أريد أن يُصيبها ضرر, وخوفي من أن أخسرها يُصيبني بالجنون, سأشعر بالطمأنينة عند خطبتها, وزواجها"

لا أعلم كيف سأصف لكم حالتي, الصدمات التي تلقيتها اليوم أو حتى خلال ساعة؛ تكفي لقتلي. كيف لهم أن يلعبوا بمصيرها؟ و كيف لي أن أحمل هذا السر؟ لا أستطيع أن أخبرها به, لا أستطيع أن أدمر كل ما تؤمن به؟ و بالأخص والدتها.

نظرت نحو زياد بقلة حيلة, والدموع تُغرق ثيابي, كنت أبكي وكأنني فقدت أبي مرةً أخرى. حل اللغز أصبح معي يا باتي.

-"وسيم: ما اسم والدتها؟ وأين هي الآن؟"

-"زياد: اسمها الكامل, واسم مدينتها بهذهِ الورقة"

ومد نحوي ورقةً صغيرة صفراء, مُتهالكة ثم قال:

-" لا نعلم عنها سوى ما في الورقة, هي من مدينة مجاورة, أتت لتدرس هُنا وقبل أن تعود لمدينتها وضعت بتونيا, باعتها لنا مقابل مبلغٍ من المال, ولأننا لم نُرزق بالأطفال قبلنا "

-"وسيم: سرقتم حياتها. أنتما مُجرِمَين, سأنتزعها منكما, لن أبقيها لك, سترى"

هممت بالنهوض ثم وضعت يدي على الجدار أتمسك به ليسند جسدي المثقل, ليسند قلبي مما عرفت, كيف سأتحمل هذا العبء؟

وقبل أن أخرج من باب المشفى صرخ ينادي:

-"زياد: يا شاب.. لا تنسى أن تُحضر عائلتك لزيارتنا"

نظرت إليه, ثم أكملت طريقي, كانت والدتي لا تزال تنتظرني أمام المستشفى, تعلمون قلب الأم, لم تستطع تركي بهذه الحال.

فتحتُ الباب وجلست على المقعد الخلفي, وساد الصمت طوال الطريق.

*****

عندما رأتني سلمى بتلك الحالة؛ أتت مسرعةً نحوي, مسحت على شعري, وانحنت مُقبّلةً لجبيني, حتى أن دموعها بللت جبيني, وشعري.

كنت أشعر بالخجل منها فبالرغم مما فعلته لشقيقها, لازالت تقف إلى جانبي في كل مشاكلي, كانت تفيض رقةً يا رفاق.

جلسنا قرابة الساعة, كان جُلَّ الحديث عن والدي, ومعاملته السيئة لي, اعتذرت الخالة رنا, وطلبت الإذن؛ لأن وسيم ينتظرهن بالخارج.

بعد خروجهن دخل والدي إلى الغرفة, تمتم بشيءٍ لوالدتي الذي اكفهر وجهها, ثم نظر نحوي وقال:

" بعد ثلاثة أيام سيتم تخريجك من المشفى, وسيكون بانتظاركِ أيام سعيدة "

كنت أتجنب النظر إلى عيناه, هذه المرة لن أقع بفخ طيبته الزائفة, أشعر أن الأيام القادمة ستكون أكثر سوءً, يا رب لطفك بي, لم أعد أحتمل, يا ترى ما مخططاته؟.

وقفت أمي أمامي وقالت:

" لن يحصل ما تفكر به, ولو كلفني هذا غالياً "

ما الذي لن يحصل؟ ما هذا الغموض؟

ثم عاد أبي ونظر نحوي, وقال:

" سنُقيم حفلاً صغيراً بمناسبة خطوبتك لشقيق سلمى"

نعم! لا أصدق, ماذا يهذي أبي؟ لا, لن أرضخ لقراراته هذه المرة, لِمَ ليُحطم آمالي, وأحلامي؟ بقيت أُحدق به مدةً لا تزيد عن دقيقة, ثم فقدت الوعي.

عندما أفقت: كانت أمي تجلس بالقرب مني, وتمسك بيدي, وجنتيها مبللتان بأنهر عينيها العظيمتين, وقبل أن أطرح سؤالي قالت:

" لا تذعري عبثاً يا صغيرتي, هذه المرة سأكون أنا من يمنعه, لقد طفح الكيل, حتى لو اضطررت للطلاق منه"

-"بتونيا: لا يا أمي, لا تقولي هذا, ألا تعرفين أبي؟ إنه يغضب ويثور, ثم يعود ويعتذر"

كنت أحاول تهدئة والدتي كي لا تتخذ قراراً مصيرياً بسببي, لكن بداخلي تمنيت أن تُطلقه, ونعيش أنا وهي سوياً, بعيداً عنه, وعن تعقيداته.

-"حياة: لكنه مُصر على رأيه يا ابنتي, بل هو من طلب من وسيم أن يخطبكِ, أي أنها لم تكن رغبة وسيم"

لا. إلا هنا وكفى. لِمَ ليرمي بي لوسيم؟ ولماذا يقبل وسيم طلبه؟

-"بتونيا: أمي, ماذا يحدث؟ لما كل هذه الحكاية؟ لوسيم! وسيم لا يُحبني يا أمي, كيف قبل طلب أبي؟ ووالدي لِمَ ليُزوجني من وسيم الذي لا يتحمل حتى رؤيته؟ حقاً لم أعد أفهم شيئاً "

-"حياة: اهدئي يا ابنتي, لن يحدث شيء من هذا "

-"بتونيا: لن يحدث ها, أنت تعلمين أن والدي عندما يضع شيئاً ما في باله يطبقه, كما فعل ليبعدني عن مدرستي, أمي, أبي يظلمني كثيراً, أنت تعلمين هذا وتصمتين, إذا فعل ما يفكر به؛ سأذهب إلى مركز الأمن, لن أصمت هذه المرة, ولمن؟ لوسيم.. لن يحصل هذا أبداً."

أمضيت ليلتي أفكر, لِمَ ليوافق وسيم على طلب والدي؟ ما الذي يخفونه عني؟. كان الصداع يُدمر خلايا دماغي, صداع لا أحتمله, حتى أنني لم أستطيع فتح عينيّ؛ خوفاً من تفاقم الألم, هل سأعيش مع كل هذه الآلام؟ ألا يكفيني ما يُطعمني إياه والدي؟ آه.. لو أستطيع الهرب منه إلى أبعد مكانٍ في الدنيا.

*****

عدنا إلى المنزل ولا زال دماغي يقطن المشفى, لا أستطيع أن أفكر بشيء, جلست على الأريكة في غرفة الجلوس, أما والدتي فذهبت لتبدل ملابسها, اقتربت سلمى مني ووضعت يدها على كتفي, رُبتت بخفة, ثم قالت :

" ماذا حدث يا أخي؟ كيف اتخذت هذا القرار؟ بل كيف لوالدها أن يقبل بذلك؟ "

تنهدت تنهيدةً مُتقطعة, ثم أجبتها:

" أرجوكِ يا صغيرتي يكفيني ما بي, أريد منك أن تُسانديني وتقفي إلى جانبي لإقناع أمي "

-"سلمى: أنت تعلم أنها لن توافق, ورزان؟ أنسيت أن رزان ستفضحنا؟ بالإضافة إلى النزاع الذي سينشب بين أمي وخالتي. الأمر مُعقد"

-"وسيم: سلمى.. سيزوجها برجلٍ يكبرها بعشرين عام أو أكثر؛ إذا لم أتزوجها أنا, سيدمر ما تبقى من حياتها"

-"سلمى: ماذا؟ هذا الرجل مجنون, أُقسم أنه ظالم ولا يخاف الله, وأنت طبعاً لن تتركها لرجلٍ كوالدها"

-"وسيم: لا أستطيع التفريط بها, حتى لو افترضت أنني لا زلت أبغضها, فكيف وهي شقيقة القلب, لن أستطيع أن أتركها لهم"

كانت والدتي تستمع لحديثنا دون أن نشعر, ثم أتت وانقضَّت على مقدمة قميصي, وأخذت تهزني وتزجرني:

"لِمَ لتكون أنت كبش الفداء؟ ليزوج ابنته بمن يُريد, لن أضعك طُعماً لهم, ثم ماذا تفهم أنت بالحب؟ لن أسمح لك بالزواج منها"

-"وسيم: البارحة كنتِ تُريدين تزويجي برزان, وأنتِ تعلمين أني أبغضها, لِمَ لتجبريني بالزواج بمن تريدين؟ أمي.. لم أعد طفلك ذو الخمسة أعوام كبرت, بل كبرنا "

أنزلت يداها عن قميصي وجلست أمامي, ثم قالت وهي تنحب:

"لقد كنت أباً وأماً لكما, ربيتكما بدمع عينيّ, واجهت طَمَعَ عمكم ومحاولة أكله لحقوقنا وأموالنا, كنت لكما السند والحضن الدافئ, ألا يحق لي أن أختار زوجةً لك؟ ألا يحق لي أن أعارض اختياراتكم الخاطئة؟"

"وسيم: أين الخطأ يا أمي؟ أحبها, بل أهيم عشقاً بها "

-"رنا: حب ماذا الذي تتكلم عنه؟ ما زال عمرك اثنان وعشرون عاماً, كيف ستتزوج؟"

-"وسيم: وهل عمري يكفي لرزان فقط؟ أمي اتخذت قراري, أنا أحب بتونيا, ولن أدعها تُعاني المزيد, أرجوكِ تقبلي قراري, بالإضافة إلا أنني لن أتزوجها حالاً, سنُقيم حفل خطوبة الآن, ونتزوج بعد أن يُصبح عمرها ثمانية عشر عاماً؛ أي بعد عام من الآن, ربما إلى حينها ستتقبلين الفكرة, أستأذنكما. سأنام قليلاً"

توجهت إلى غرفتي وأنا أجرُّ نفسي جراً من فرط ما بي, تركت أمي تندب حظي, وتبكي جُرأتي على عصيان أوامرها.

كان يوماً شاقاً ومتعب, رحت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً, نار صدري تتأجج, كانت مشاعري مُختلطة, لم أكن أعي كلامي عندما قلت أنها من ضلعي, ولم أعلم أن أبواب السماء كانت مفتوحة حين دعوت الله أن يُعجل التحامنا.

في العاشرة مساءً قُرِع جرس المنزل, وأعتقد أنكم تعلمون مَنْ القادم؟, لم يساورني الشك أبدا في أن تكون خالتي. بعد دقائق طُرق بابي, كانت الطرقات خفيفة "طرقات سلمى" قلت:

-"أدخلي عزيزتي"

فتحت الباب ودخلت, ثم أغلقته بالمفتاح, أحضرت مقعداً ووضعته أمام سريري وجلست, ثم أخذت تُحدق بي, أعلم أنها تعي انكساري, وتعلم أن هناك ما أخفيه؛ لكنني لا أستطيع البوح لكِ, أخاف أن أخسر فكرة الارتباط بشقيقة روحي, بالرغم من الأحداث الغريبة والسيئة: لكن داخلي فرحة لطيفة, تفيض وتملئ كل النخور في روحي, هل ستكون بتونيا هي زوجتي أم أطفالي؟ هل سيكون لي ثلاث أو أربع زهور بتونيا صغار؟ مجرد التفكير بهذه الفكرة ينعش روحي.

ثم خرجت أختي عن صمتها وقطعت سلسلة أفكاري الزاهية:

-"أخي.. هل هناك ما لا أعرفه؟ أنت تخفي شيئاً ما"

-"وسيم: لا يا سلمى, أخبرتك بما حدث"

-"سلمى: هل فكرت ببتونيا وردها؟ أنت تحبها وهذا شيء جيد, لكن لا تنسى أنه لم يمضي على عقابك لها سوى يومين, أي لا زالت تبغضك"

-"وسيم: أرجوك يا سلمى, ربما نجد الخير بداخل الشر فكري بها من منظوري, أنا سأحميها من والدها, بالإضافة إلى أنني أحبها"

-"سلمى: خالتي في الأسفل, بعد قليل ستسمع الصراخ والاحتجاجات "

-"وسيم: لا عليكِ, سترضخ للأمر الواقع في النهاية, فكري جيداً, أترين رزان مناسبةً لي أم بتونيا؟"

-"سلمى: طبعاً بتونيا, لكنك نسيت رزان وأملها بك, وإذا أخبرت أمي بما فعلته بتونيا معك لحتماً أمي سترفض, بل وربما تُبلغ الشرطة عنها؛ كي تمنعك من الزواج بها"

-"وسيم: لا تقلقي, أنا سأسكتها بطريقتي"

رن هاتف سلمى.. كانت المتصلة شهد صديقتها: أخبرتها أنها تنتظرها بالأسفل, بعد أن أغلقت الهاتف, وهي تهم بالنهوض قالت:

"هل أنت مصرٌّ على قرارك؟"

-"وسيم: لن أغير رأيي, لقد اتخذت قراري ولن أتراجع عنه"

-"سلمى: أعلم أن رأسك مليء بما يكفي, إذن لن أشغلك أكثر, بالإذن سأذهب لاستقبال شهد, سأصطحبها لغرفتي؛ كي لا تسمع المُشادات الكلامية بين أمي وخالتي"

خرجت سلمى.. وأتت رزان.. آهٍ من هذا اليوم الذي لن ينتهي. كان وجهها مُتجهم, وشفتيها مضمومتان, تنظر لي كأني ألد أعدائها, ولو مسستها ستبكي, تجاهلت نظراتها وعدت أجلس على سريري, ثم طلبت

منها أن تجلس أمامي على المقعد الذي وَضَعته سلمى, أتت وهي تنتفض, جلست أمامي وبدأت تهدد وتتوعد, تركتها تُفضي ما بها, وبعد انتهائها قلت:

"كل ما أفعله للانتقام من بتونيا"

-"رزان: هل تمازحني؟ أم تستصغر عقلي؟"

-"وسيم: لا يا عزيزتي, أريد أن أعاقبها عقاباً لن تنساه "

-"رزان: وكيف ستكون الخطوبة منك عقوبة؟ عاقبني أنا إذن"

-"وسيم: يا رزان.. أرجوكِ أفهميني قليلاً, هناك ما يدور ببالي؛ لن أرتاح إلا إذا فعلته"

شعرت أنها اقتنعت, ثم نهضت عن سريري لأُحضر لها كأساً من الماء؛ علها تهدأ, وقبل أن ألج من الباب, لمحت شهد التي اضطربت قليلاً حين رأتني, ألقيت عليها التحية فلم تُجب, ثم أسرعت إلى غرفة سلمى, هل يا ترُى سمعت ما أخبرت رزان به؟

لا, لا أعتقد, ربما خجلت مني, أكملتُ طريقي إلى المطبخ؛ فأوقفني صوت خالتي, وهي تهتف لي:

" انتظر, أريد أن أحادثك قليلاً "

أوه.. فعلاً من أسوأ أيام حياتي, ذهبت مُذعناً للأمر, وقفت أمامها, نظرت إلى وجهها وركزت بصري على بؤبؤيها, ثم سرحت بخيالي. يكفيني

ما سمعته اليوم, لن أدع أحدهم يُغير رأيي وتفكيري, يجب أن أنقذ قِبلة روحي من الجميع. لن يهدأ لي بالاً قبل أن أضعها تحت جناحي.

صحوت على خالتي وهي تُمسكني من كتفاي وتهزني, وكأنني سافرت إلى مكانٍ بعيد, بحيث أنني لم أستمع ولا لحرفٍ صغير, ولا حتى لهمزة قالت:

"ما بك لا تجيب؟ إذا كنت خجل لِمَ لتفعل هذا أنت وأمك؟"

-"وسيم: خالتي.. أرجوكِ, هذا قراري ووالدتي لا شأن لها, حتى أن رأيها كرأيك, في النهاية هذه حياتي, و لن أدعكم تتدخلون بأموري "

أتممت طريقي للمطبخ, وأحضرت كوبين من الماء, أعطيتهن لخالتي

"هذه الكأس لكِ, والآخر أعطهِ لرزان"

ثم نظرتُ نحو أمي قائلاً:

"سأذهب لأخبر عمي عن الموضوع, وربما أتأخر"

أسرعت خطاي للهروب منهن, أصبح الكل يضغط علي, ألا يكفيني ما أخفيه بصدري. جلست على عتبة المنزل, أخرجت هاتفي المحمول وطلبت زيد وأخبرته أني أنتظره.

بعد أقل من عشر دقائق أتى, نزل من سيارته مهرولاً نحوي؛ محاولاً معرفة ما أخبئه, أخبرته بكل شيء, ورميت بحملي عليه, كنت أنتظر

منه رداً كردود بقية أهلي؛ نظر إلى داخل عيناي وقال لي كلاماً لن أنساه ما حييت:

"أنت أمل بتونيا الوحيد لتزهر, أنت مرسال الله لإنقاذ تلك الزهرة من سوء الساقي, كل ما عليك أن تأخذها وترعاها, وسترى أنها ستزهر معك وبك, لا تتركها لرجلٍ أهداه الله هذه الزهرة فأهلكها بقلة الماء, وشدة الحرارة. كن أنت السماد لترابها, كن شمسها اللطيفة, بل كن لها فصل الشتاء بأكمله: إروِها وداريها؛ لترى حبها يا رفيقي, فالحب اهتمام واهتمام واهتمام"

فما كان مني إلا أن عانقته بشدة, وأطلت عناقه؛ وكأني أستمد قوتي منه, ربَّتَ على كتفي وقال:

"هيا لنخبر والدي, وتعلم والدي وشدته, وأنه ليس كوالدتك وخالتك, لكن لا عليك, أنا معك إلى الأبد هيا انهض"

كان يُحدِّثني عن هدايا الله, ولا يعلم أنه من أجمل الهدايا المرسلة لي, ابن عم مُنكِّه بأخ, ولو كان لي أخ لن أحبه كحبي لزيد.

عمي و آهٍ من عمي: هذا الكائن المتسلط, الذي يريد أن يأكل الجَمل بما يحمل, ولولا خوفه من خسارة ابنه؛ لأكل أموالنا منذ عامين, ليس من عبث أُخبركم أن زيد أخي, فقد كان بالمرصاد له, حتى أنه كان يخبرنا

بمخططات والده؛ لنتوخى الحذر, أورث زيد ما ليس به وكأنهما من عالمين مختلفين, فالصدق والأمانة التي يمتلكهما زيد أكاد أجزم أن عمي يمتلك منهما شيئاً.

وصلنا إلى المتجر وكعادته حين رآني, أنزل رأسه ورفع عينيه, وجانب فمه الأيسر للأعلى.

-"وسيم: السلام عليكم"

-"أبو زيد: وعليكم. خير إن شاء الله. لماذا أتيت بحالتك هذه؟"

-"وسيم: أريد أن أحدثك بشيء مهم"

-"زيد: أبي, وسيم يريد أن يخطب... "

-"أبو زيد: ماذا؟ هل جننت؟, وماذا تعرف أنت بالمسؤولية؟ والدتك وأختك لا تستطيع رعايتهما؛ لتُحضِرَ ابنة الناس أيضاً"

-"وسيم: تُرى من يرعاهما؟ هل أنت يا عمي؟. نحن منذ وفاة والدي لم نرى منك حتى رغيف خبزٍ يابس"

-"أبو زيد: ألا تأخذون نصيبكم من الدكان؟, لِمَ لأعطيكم رَغيف خبزً يابس؟"

-"وسيم: أنت قلتها: نصيبنا وحقنا, ولن أتركه لك... أنا أتيت؛ لأخبرك لتقف إلى جانبي في يومي السعيد، لكنني عندما دُست عتبة المتجر,

تذكرت أنك لم تساندنا في أيامنا السيئة, فكيف لك أن تقف معنا في أفراحنا؟"

-"أبو زيد: ما قلة التربية هذه؟ لا ألومك فأنت تربيت تحت يد امرأةٍ ليس لها كبير"

فار دمي حينها. ورحت أسير نحوه, وأوداجي تكاد أن تتشقق, وقف أمامي زيد ليمنعني عن والده؛ لأنه يعلم قسوته و جبروته, وأنه سيبلغ الشرطة عني لو لمسته, ثم التفت إلى والده وقال:

-"أنا سأرافق ابن عمي, إذا كنت لن تأتي؛ فأنا سأقيم ببيت عمي ابتداءً من هذه الليلة"

ونحن نهم بالخروج من المتجر هتف:

"سأذهب معكم أخبراني ابنة من؟ ومتى الموعد؟"

بدأ زيد يخبره عن أهل بتونيا, وأين يقطنون, اتفقنا بيننا على اليوم, بقي أن نخبر أمي؛ لتتواصل مع والدة باتي, وتخبرها بموعد الزيارة.

قبل أن أغادر المتجر, التفتت إلى عمي وقلت:

"من الغد سأعود للعمل, وسأغير الاتفاق بيننا على إدارة المتجر, وأعيد تدقيق كل المصاريف والإيرادات"

-"أبو زيد: ماذا تقصد بكلامك؟ هل أنا أسرقكم؟"

-"لا أقصد شيئاً, فقط لأطمئن على رزق والدي, من الآن وصاعداً سأكون معك صباحاً ومساءً, أجلت دراستي وسأتفرغ لعملي, وكما قلت أنت: بما أنني لا أعرف شيئاً عن المسؤولية فسأتعلمها منك "

خرجت دون أن أودعه, لحق بي زيد ليوصلني لمنزلي. كان يومي عصيباً, منذ ولادتي لم أعش يوماً كثيفاً, مليئاً بالأحداث, والنقاشات, والخلافات كهذا اليوم. صعدت إلى غرفتي, كانت الأنوار مغلقة, رميت جسدي على فراشي, دون أن أخلع حذائي, نمت كما أنا من فرط التعب.

في اليوم التالي.. استيقظت باكراً بعد ذهاب سلمى لمدرستها, كانت أمي مُجازة, ذهبت للمطبخ وحضّرت لها القهوة, رحت أيُقظها, كانت تمسك بمجلة, وعندما رأتني؛ أغمضت عيناها ودفنت نفسها ومجلتها تحت الغطاء, جلست على طرف السرير وقلت:

"أمي, أنا أعتذر على كلامي البارحة, أرجوكِ سامحيني, ولا تطلبي مني تركها لوالدها, لا أستطيع"

-"رنا: وما سر هذا الحب المفاجئ؟ وهل يحدث بيوم وليلة؟"

-"وسيم: أمي, ما اعتراضك على بتونيا؟, ضعي أحلامك الوردية بتزويجي لرزان جانباً"

-"رنا: سأبدأ إذن: أولاً لم تتجاوز الثامنة عشر من عمرها, ثانياً لا تحبك, ثالثاً غير سوية نفسياً؛ طبعاً من شدة والدها عليها, ماذا تريد أكثر من ذلك؟"

-"وسيم: لا أريد شيئاً يا أمي, ألم تخبريني أنتِ كيف حاربتِ عائلتك وعائلة والدي للزواج به؟ فلما تُحاولين فرض رأيك علي, وأنت تعلمين أني لو تزوجت من رزان ستصبح حياتي جهنم, تعلمين هذا وتصرين عليه, هل لأنكِ وعدتِ خالتي؟ وهل سترتاحين لحياتنا البائسة؟"

"أمي, أرجوكِ دعيني أنقذها من بطش والدها, أنا حقاً أحبها, ولو زوجتني نساء الأرض واحدةً تلوى الأخرى, لن أرضى سواها زوجةً وحبيبةً, أمي, بتونيا بالنسبة لي: خطوة العمر الجميلة, بداية عهدي بالهوى, أحلامي ومستقبلي, نبضة قلبي الأولى"

شعرت أن والدتي لانت قليلاً, ضمّت شفتيها وابتسمت ابتسامة صغيرة, نظرت نحوي وكأنها تسمع أغنيةً تُطرب روحها, نهضت أنا عن طرف السرير, وقبلت جبينها, ثم قلت:

" هيا أنهضي, حضّرتُ لك القهوة, سأُمضي اليوم بالتسكع معك, ما رأيك؟"

تنهدت وابتسمت ثم همّت بالوقوف, سبقتها نحو المطبخ ووضعت أغنيةً لفيروز, ورحت أدندن معها.

*****

بعد ثلاثة أيام خرجت من المستشفى, أمضيتهن بالتفكير والسكوت التام, سمعت زوج أمي يقول لها: أن السكوت علامة الرضا, ولا تستغربوا قولي: (زوج أمي) فلم أعد أشعر أنه يمت لي بصلة, كانت أيامي الماضية مسمومة, أما عن سكوتي؛ فلم يكن رضا أبداً, كنت أفكر كيف سأخلص نفسي من تلك الورطة؟ فكرت أن أهرب عند خالي, لكن كيف سأصل؟ فبيتهم بمحافظةٍ أخرى, ولم يكن لأمي سوى هذا الأخ, لكنني فكرت فيما بعد أن زوجته لن تقبل, وستخبر والداي قبل أن ألج منزلهم.

لا أعلم كيف سأنقذ نفسي, حتى أمي التي كانت تهدد, بدأت ترضخ للأمر الواقع, أما عمتي منى فتوافق أخاها وهذه كانت صدمةٌ أخرى لم أتوقعها. اشعر أنه لم يتبقى لي أحد سوى سلمى, التي كانت تزورني يومياً, وتطبطب على جراحي, أخبرتها أني أريد الهروب, لكن إلى أين لا ادري, فكانت نصيحتها لي:أن أقبل بهذه الخطوبة, وأخبرتني: أنه ليس لي خلاص إلا بها, وأنها مؤقتة, أشعر أنها تُسايرني, وتحاول التخفيف عني؛ كي لا أرتكب خطأً أندم عليه ما تبقى من عمري, فأفكاري كانت سوداويه جداً حتى أني فكرت بالإنتحار. نسيت أن أخبركم: في كل المرات التي زارتني بها كان يرافقها وسيم, لكنه كان ينتظرها في الخارج, وسيم الذي أعرفه يدخل ويُلقي بسمومه ثم يذهب, ما الذي جعله يوافق

أبي ؟, هناك شيء ما خلف تلك الحكاية, يجب أن أعرفه, ربما غايته أن ينقذني من يد والدي؛ فوسيم رجل من هذا النوع, بالرغم من أنني لا أستلطفه, لكنه ذو قلبٍ طيب, وحنون والدليل على هذا, أنه لم يُكمل عقابه لي, ولم يُخبر والدي أو حتى والدته بما فعلت.

عندما وصلنا إلى المنزل, كانت جدتي وعمتي تجلسان في الصالة تنتظران وصولنا, ذهبت باتجاه جدتي, حضنتها ورحت أنظر إليها برجاء؛ علها تقف بوجه والدي, لكنها حركت وجهها يميناً ويساراً بقلةِ حيلة, خرجت من بين يديها وذهبت لغرفتي متجاوزةً عمتي, التي كانت تنتظر لآن آخذها بالأحضان, لكن لا, كل من يقف بطريق سعادتي سأمسحه من حياتي.

بعد أقل من ساعة, أتت أمي للإطمئنان على وضعي, كنت قد أنهيت صلاة الحاجة, وأدعو الله وعيوني تنهمر, اقتربت مني ومسحت على رأسي ثم قالت:

-"ربما خلاصك يا عزيزتي؛ هو الزواج من وسيم"

نظرتُ نحوها مستنكرةً ما تقول:

-" لِمَ لمْ تقفي في وجهه كما قلتي ؟ لِمَ تقفين أمامي الآن؛ لإقناعي بالزواج ؟ هل تظنين أن زواجي من وسيم سيخلصني من والدي؟ ألم تفترضي أن يكون وسيم كوالدي, أو أسوأ منه ؟"

-"حياة: وسيم يحبك يا باتي؛ وإلا لِمَ ليقبل بطلب والدك؟ "

-"بتونيا: هذا يعني أنه يُريد أن يُخلصني من ظلم والدي, اجلسي لأخبرك ماذا فعلت به, وأنتِ قرري إذا كان يحبني أم لا"

رحت أسرد لها كل ما حدث من البداية, كانت تستمع لي باهتمام, ودهشة

-"حياة: أنتِ يا بتونيا فعلتِ هذا؟ بماذا تختلفين عن والدك إذن؟"

-"بتونيا: لم أخبرك هذا؛ لتلوميني بل لتعلمي أنه من المستحيل أن يوافق وسيم على هذا الزواج لأنه يحبني, ربما يريد أن يعاقبني عقوبةً أكبر"

-"حياة: لا تخافي يا عزيزتي, أنا سأساندك. أنتِ وحيدتي, لن أفرط بك فقط أخبريني, إذا حصل شيءٌ ما "

-"بتونيا: ها أنا أُخبرك: أبي يريد أن يزوجني وأنا في هذا العمر, تفضلي ماذا ستفعلين؟"

تأوهت أمي وقالت بضيق:

" آه يا عزيزتي, هذا الأفضل من أجلك, هناك خير في كل شر"

-"بتونيا: أمي, ألم يحن الوقت؛ لتخبريني بما تخفونه عني؟ "

-"حياة: لا نُخفي عنكِ شيئاً, لِمَ لتفكري بهذه الطريقة؟"

-"بتونيا: تعلمين أني لن أغفر لكِ ما حييت, إذا تأكدتُ من ذلك, أرجوكِ أخبريني الآن, لا أريد أن أكرهكِ أنتِ أيضاً"

-"حياة: أنا يا باتي؟ وهل تستطيعين ذلك؟"

-"بتونيا: لا أعلم, أنتِ أدرى بتفكيري, وبما افعله."

اضطربت ونهضت, أولتني ظهرها وقالت وهي تهم بالخروج من غرفتي:

" غيري ملابسك وتزيني قليلاً؛ لتُخفي ذبول وجهك, سيأتون أهل وسيم بعد صلاة المغرب, أرجوكِ لا أريد المزيد من الهموم."

هي أغلقت الباب, وأنا أخذت أضرب بقدميَّ الأرض, وألطم وجهي, لا أصدق ما يفعلونه بي, وكأني لست إبنتهم, ووحيدتهم, قرة عينهم الأولى والأخيرة.

توجهت إلى خزانتي, أخرجت تنورة خضراء, وقميص بنفسجي, وحجاب قرمزي اللون, ووضعت الكثير من الألوان على وجهي.

جرس المنزل يُقرع... اقترب أجلي يا الله. كن بعوني

بعد نصف ساعة أتت أمي تُناديني للخروج, عندما رأتني فتحت فمها و عينيها مصعوقةً, من قوس قزح الَّذي يظهر أمامها, هتفت:

-" ما هذا يا باتي؟ هل ستفضحيننا أمامهم؟ أرجوك يا ابنتي بدلي ملابسك, وامسحي تلك الألوان عن وجهك, هيا أسرعي, إنهم بانتظارك"

-"بتونيا: هكذا سأخرج ولن أبدل شيئاً"

-"حياة: أنتِ أدرى, سأهتف لوالدك ليتدبر أمرك"

خرجتْ, وبعد أقل من دقيقة أتى والدي, نظر نحوي بغضب, ثم التقط ذراعي بشدة, وراح يوبخني, أشعر بأن ذراعي تتهشم بين يديه,

رفعت رأسي لأنظر إليه, ثم قلت:

"لن أخرج, ولن أتزوج, إفعل ما تشاء"

و قبل أن أتم جملتي, نزلت يدهُ على وجهي كالصاعقة, ثم قال:

"بدلي ملابسك سريعاً, وإلا سأُبرحكِ ضرباً أمامهم, بل سأزوجكِ اليوم ومِنْ صديقي هشام "

أفلتَ ذراعي وولى خارجاً, كانت أمي تقف أمام الباب, أغلقت الباب ولم تتحرك لي شعرة لحزنها. لم أستطع منع دموعي من السقوط, أخرجت فستاناً أسود, وحِجاب بنفسجي اللون, نَظفت وجهي من المكياج, ولم أبالي باحمرار وجهي, ولا بأصابعه التي وُشِمت على خدي الأيمن.

ذهبت إلى المطبخ: كانت عمتي قد حضَّرت القهوة, حملت الصينية؛ لأخرج فقالت لي:

-" ما هذا يا باتي؟ وجهك ذابل, لِمَ لم تضعي شيئاً ليُزهر قليلاً؟, أو على الأقل لتُخفي الاحمرار الّذي يصبِغُ خدك"

لم أعر كلامها أي اهتمام, حملتْ صينيتي, وتوجهت إلى غرفة الضيوف.

*****

استيقظت باكراً وكلي حماس, كان صوت فيروز يصدح في جميع أنحاء المنزل, ارتديت ملابسي وتناولت إفطاري, ثم ودعت والدتي وذهبت إلى صالون الرجال برفقة زيد, هذبت شعري ولحيتي, ثم عدت إلى المنزل. استحممت وارتديت بذلتي السوداء, ثم نزلت إلى الأسفل, كان زيد يجلس مع والدتي وأختي, حين وصلت انهالت علي كلمات المديح, والاستحسان. قالت أمي:

-" ما هذه العجلة يا بني؟ بدِّل ملابسك كي لا تلوثها "

-"وسيم: ما بك يا أمي؟ لم أعد طفلاً, ثم إنني متحمس جداً "

-"زيد: اتركيه يفعل ما يشاء يا عمتي, لو كان الأمر بيده لذهبنا نطلب يدها في المستشفى"

نظرت سلمى نحوي وأطلقت العِنان لدموعها, اتجهت نحوها وأحطتها بذراعيّ, وأمطرت عيناي أمطار سخية, انضمت أمي إلى حفلة الدموع خاصتنا.

-"زيد: ما بكم؟ لِمَ كل هذه الدموع ؟ اليوم فرحة, بل عيد "

أنت لا تعلم يا صديقي أننا نبكي والدنا, لا تعلم كم هو ضروري وجود الأب بمثل هذه المناسبات, ولا تعلم أيضاً أننا من دونه كحديقة جافة, غابت غيومها, وأصبحت صحراء ناشفة متشققة.

أدينا صلاة المغرب, وذهبت لأُحضر باقةً من الورود البيضاء, وطبقاً من الشوكولاتة الفاخرة, وقبل أن نتجه إلى منزل بتونيا, شرّف السيد عمي.

كان زياد ينتظرنا بالخارج, ولو كان الأمر بيده لأعطانا باتي قبل أن نطلبها, رحب بنا وأدخلنا إلى غرفة الضيوف.

رحت أُجيل بصري بتلك الغرفة, إذ لم يتبقى مكان لتجلس به عقلة الإصبع خاصتي. اعذروا فرحتي؛ فقد مر أسبوع دون أن أراها, ولا أعلم عن حالها شيء بعد أن خرجت من المستشفى.

بدأ الحديث بين عمي وزياد, وكأنهما فِلقتان لثمرة واحدة, طبعاً ثمرة فاسدة, دار بينهما الحديث المعتاد لمراسم طلب الفتاة: من مهر, ومصاغ, وغيره, ولم يكن بالي معهم ... كنت أنظر نحو باب الغرفة منتظراً شروق شمسي, استأذنت والدة بتونيا وخرجت, الآن ستأتي بشقيقة القلب, لم أعد أشعر بنبضات قلبي, ولا أستطيع اللحاق بسرعتها.

بعد دقائق عادت الخالة حياة, وطلبت زياد إلى الخارج, ماذا يحصل؟ هل ما زالت متوعكة؟ لم يَطُل غيابه, عاد وهو يضحك, ويقول:

-" دلال الفتيات وما أدراكم به؟ ستأتي الآن"

والثواني أصبحت أعوام, والآن انبلق الباب, وبان منه قمري, وشمسي, وزهرة أحلامي, ما هذا الذبول يا عزيزتي؟ كانت مُصفرة الوجه شاحبة, وتظهر علامة حمراء على خدها الأيمن, أخذت توزع فناجين القهوة بعد أن ألقت التحية, أما أنا فأرسلت نظري إلى زياد, ورمقته بنظرة غضب؛ فابتسم ابتسامة صفراء, ولولا خوفي من أن يُغير رأيه ويزوجها لشخصٍ آخر, لهشمت وجهه.

الآن وقفت أمامي, كانت ترتدي فستان أسود طويل, أكمامه مُطرزة بخيطان بنفسجية اللون, ويلتف حول وجهها الصغير حجاب لونه بلون الخيطان التي تُطرز ثوبها, أما وجهها, وآهٍ من وجهها, يبدو كلوحةٍ باهتة, من دون ألوان إلا اللون الوردي الذي ينطبع على خدها الأيمن, كنت أتأملها بصمت, و نسيت أنني يجب أن أمد يدي لآخُذَ فِنجاني, كان زيد يجلس بقربي, عندما رأى شرودي لكزني بأصابعه, فأفقت وتناولت فنجاني, أخفضت رأسي في خجل, أما هي فأكملت توزيع الفناجين, ثم هتفت لها والدتها: لتجلس بقربها, فأذعنت للأمر بخجل.

مضى ربع ساعة على مجيئها, كانت تنظر إلى حذائها, وتتفحصه وكأنه هو العريس لا أنا. الآن يطلب عمي من زياد أن نجلس أنا وبتونيا سوياً لنتعرف على بعضنا, ألا أعرفها؟, أكاد أبصم ملامحها غيباً, حتى أنني أصبحت أعلم أسراراً عن حياتها لا تدري عنها شيئاً.

توجهت برفقتها إلى الصالة, جلست أنا على الكنبة, وهي بقيت واقفة, عَقَّدت ذراعيها أمام صدرها, وأخذت تَهزُّ إحدى ساقيها بتوتر, قلت لألطف الجو قليلاً:

"هل تخجلين مني يا عقلة الإصبع؟, اقتربي واجلسي أمامي, بتونيا التي أعرفها لا تخجل"

أقبلت نحوي متأبطة شراً, كانت عيناها كالجمر وجاحظتين, تنظر لي كأني عدوها اللدود, ثم استقرت على الكرسي وأعادت نفس وضعيتها السابقة, لكن وهي جالسة, حركة قدمها زادتني توتر, فقلت لها:

-"هلاَّ توقفتِ عن هذه الحركة؟"

صرَّت أسنانها بحقد, وقالت:

-" ألم يتبقى لك بنات في كل هذه المدينة؟ لِمَ لتوافق على طلب والدي؟ ما هي غايتك؟"

-"وسيم: رويدك علي, كل ما أفعله من أجلك"

-"بتونيا: ومن أخبرك أنني أريد مساعدتك؟ ثم ماذا ستستفيد؟"

-"وسيم: استمعي لي أرجوكِ, لا أريد شيئاً منكِ, والدك كان سيزوجك بصديقه ذو الأربعين سنة, أهذا يُرضيكِ؟ لم يتحمل عقلي تلك الفكرة

وقررت أن أساعدكِ, لا تخافي فقط لمدة قصيرة, ليقتنع والدكِ بأنه مخطئ "

أجابت بلهجة تشوبها سُخرية:

" من والدي ؟! وسيغير رأيه! إذا كنت تفكر هكذا فستجدني زوجةً لك, وأمٌ لأطفالك على الأكيد, لا تراهن على ضمير والدي؛ فأنت لا تعلم كيف يفكر"

آه.. سيكون يوم سعدي إن أصبحتِ زوجةً لي, أنت لا تعلمين ماذا أحدثتِ بفراغات روحي, وبخور قلبي ؟

-"وسيم: أنتِ اقبلي الآن, ولا عليكِ, لا تعلمين ماذا تخبئ لكِ الحياة, والأهم من ذلك, زياد وعدني أنه لن يضربكِ, ولن يمنعك من مدرستك"

استرخت ملامحها وقالت:

-"لِمَ لتفعل معي مثل هذا المعروف بعد كل ما فعلته بك؟ ورزان؟ لا أستطيع أن أفعل هذا بها, حتى لو كنت أكرهها؛ فهي تحبك وتطمح للزواج منك, حتى والدتك تُريدها زوجةً لك, لن أقبل بذلك"

-"وسيم :لِمَ تشغلي بالك بتلك الأمور؟ لا عليك, تحدثت معها وأقنعتها"

-"بتونيا: أقنعت رزان, واقتنعت؟! اعذرني, لا أستطيع تصديق ما تقول"

-"وسيم: عقلة الإصبع أرجوكِ لا تُطيلي, اقبلي بتلك الخطوبة, أنتِ الخاسرة الوحيدة من عدم قبولك"

-"بتونيا: ماذا سيفعل؟ هل سيقتلني؟ لم أعد أهتم, ليفعل ما يشاء"

-"وسيم: لن يقتلك سيزوجك بغيري, وبدون أن تكملي تعليمكِ حتى "

كانت تنظر لي بشرود وكأنها لم تفهم كلماتي, وتحاول ابتلاعها, فرحت أنكز حِذائها بحذائي, أفاقت من شرودها ونظرت نحوي بغضب, وهتفت:

"ماذا تفعل؟ ستلوث حذائي يا أبله"

ابتسمت وأشرت لحذائها قائلاً:

"أظن أنكِ تعتقدينه عريسك المنتظر؛ فمنذ دخولك لغرفة الضيوف وأنتِ تتفحصينه"

ابتسمت وبانت غمازتها التي لم أراها منذ مدة, وقالت:

"لا تقلق, أنت أجمل منها بقليل, كنت أبحث عن الفروق بينكما"

متملقة هذه الفتاة, أضحكني ردها.

-"وسيم: يا لكِ من حمقاء. صحيح.. كيف أصبحت حالتكِ الصحية؟"

-"بتونيا: قد بلغ الوهن مني مبلغه, وبالرغم من ذلك قبل قليل ضربني على وجهي, وكأنه لا يعلم بالأمراض التي سببها لي, أشعر وكأن رأسي سيخرج من مكانه من شدة الألم"

-"وسيم: مريض نفسي, ولِمَ ليضربكِ؟ ماذا فعلتِ؟"

-"بتونيا: ارتديت ألوان فاقعة, ولطخت وجهي بالكثير من المكياج, وحين أخبرته أني لن أبدل ولا أريد الزواج صفعني, لا عليك, اعتدت على يده. المهم الآن, هل أنت تُريد الزواج بي بكامل عقلك؟ فرصتك الأخيرة للرفض"

-"وسيم: بعد ما أخبرتني به الآن تُريدينني أن أُغير رأيي, لا, لا تحلمي بذلك, بإذن الله سأخلصك من شره"

التفتنا إلى صوت صرير الباب وهو يُفتح, كانت سلمى صاحبة الفضل في ظهور بتونيا بحياتي.

*****

استأذنت سلمى, وأتت نحوي لتتفحص وجهي, ثم قالت:

"كسر الله يديه, الحمد لله, ستتخلصين من بطشه"

عانقتني وأضافت:

"ماذا قلتِ؟ هل توافقين على الارتباط بأخي؟"

-"بتونيا: مجبرٌ أخاك لا بطل, سأوافق فقط لأرى هل سيتغير أم لا؟"

ألقى وسيم نظرة احتجاج تشوبها سخرية, وقال:

"مجبرٌ ها, يجب أن تُلقبيني الآن بصاحب الظل الطويل, لما لي من فضلٍ عليكِ"

متخلف عقلي لكنني لن أزعجه بكلامي؛ لأنه بفعلته هذه لا يفضل علي وحسب, بل سأكمل تعليمي بسببه, لأدخل سن البلوغ فقط, وسيرى والدي ما سأفعله؟

"كما تريد يا صاحب الظل الهبيل"

أخذنا نضحك حتى أننا نسينا الضيوف في الغرفة المجاورة, ولِتسلم عمتي منى أتت لتُذكرنا بهذا:

-" بتونيا, هيا لِمَ أطلتم؟ ينتظرونكم بالخارج"

ذهبنا إليهم, ثم وجهت نظري إلى والدي وهززت رأسي للأسفل موافقةً, ثم جلست في مكاني, قرأوا سورة الفاتحة على نية التيسير, وتواعدوا في الغد؛ للذهاب لفحص الدم, وبعدها سنعود لمنزلنا؛ لنعقد القِران, لأن أبي يعلم أنه إذا ذهبنا إلى المحكمة الشرعية لن يقبلوا بزواجنا, حتى لو كانت خطوبة مطولة.

بعد ذهابهم توجهت إلى غرفتي دون أن أتلقى تهاني ولا حتى تعازي, دخلت غرفتي وأوصدت بابي مرَّتين؛ كي لا يدخل أحد, ثم تناولت

حبوب مسكنة للتخفيف من الصداع الّذي يُلازمني, أخفضتُ الإنارة, بدلت ملابسي, واستلقيت على سريري واضعةً كفاي تحت رأسي, وأغمضت عيناي لأفكر بما حدث.

لم يكن الأمر صعب كما توقعته, بل اعترتني فرحة غريبة, ربما سأنجو من والدي هذه المرة.

في صباح اليوم التالي.. أيقظتني والدتي باكراً, وطلبت مني أن أجهز نفسي؛ لنذهب إلى الفحص, يا رب إذا كانت هذه الخطوبة شراً لي فأفسدها بدون تدخل مني.

ارتديت ملابسي وجلست في الصالة, أنتظر والداي, وبعد خروجهما من الغرفة, أتت أمي لتحتضنني لكنني أبعدتها, وأسرعت خطاي باتجاه المركبة, كان الصمت يُخيم علينا طوال الطريق, وصلنا إلى المركز الصحي فكان وسيم ووالدته قد سبقونا.

همَّ وسيم مُقبلاً نحونا, ألقى التحية علينا, ثم اتجهنا إلى الداخل, تقدم شرشبيل قبلي حين رآني أقف بزاوية الغرفة؛ ليُشعرني أن الأمر بسيط, وعندما حان دوري أمسكت بيد أمي, فنَظَرَت نحوي بعطف, وقالت:

-"لا تخافي يا ابنتي, ليس بشيءٍ لم تجربيه من قبل"

سلمتِ يا أمي فقد ذكرتني بسبب وجودي هنا, استجمعت قواي وأعطيتها يدي, لم أشعر بشيء, فما كنت أتعرض له من تعنيف يشفع لتلك الإبرة.

بعد مدة ليست بطويلة ظهرت نتائجنا إيجاباً, مما يعني أنني سأصبح خطيبته لا محال, بعد الفحص ذهبنا لشراء المصاغ, تولت المهمة والدتي والخالة رنا, وكلما سألَتني لتأخذ رأيي كنت أهز رأسي إيجاباً: أما وسيم فكان يقف أمام خواتم الخطوبة يتفحص ويبحث بجد, وكلما أعجبه خاتم أعطاني إياه لأُجربه.

-"وسيم: وهذا الأخير, هيا جربيه"

اقتربت منه وهمست له:

"لما تجعلني أجرب كل هذا؟ في النهاية سننفصل, أمجنونٌ أنت؟"

-"وسيم: هيا جربيه ولا تدعيهم يُلاحظون, ثم في النهاية سأبقيه هديةً لك لتذكريني"

أبله.. أقسم أن والدته كانت تتوحم على حمار في حملها به, وضعت الخاتم ورفعت يدي نحو عينيه, عاد إلى الخلف, ثم قال وهو ينظر إليه:

" هذا هو المطلوب, هيا اخلعيه "

ذهب نحو الصائغ وطلب منه أن يكتب داخل خواتم الخطوبة, ولا أدري ماذا قال, ولا يُهمني الأمر حتى, انسحبت من بينهم وجلست

على كرسي خشبي, كان الصداع يتمركز في مقدمة رأسي, رحت أضع أصابعي على أطراف جبيني وأُدلك بشكلٍ دائري, فتقدم والدي نحوي وقال:

"هل يؤلمكِ كثيراً؟ هل أخذكِ إلى المشفى؟"

نظرت إليه نظرةً مطولة خالية من أي مشاعر, وقلت:

" شكراً, عندما أتزوج سيأخذني زوجي "

تسمر مكانه مصدوم من إجابتي, ثم انسحب إلى الوراء. بعد أن أنهينا عملنا عدنا إلى المنزل, وكان الجميع ينتظروننا هناك, والشيخ أيضاً, كان قد أحضره أحمد خطيب عمتي.

بعد إتمامنا لعقد القران, وقف وسيم ومد يده ليُصافحني, فلم أعرف ماذا أتصرف؟ ورحت أنظر إلى الموجودين؛ علهم يشورون علي, ثم قال والدي أقصد زوج أمي:

"هيا يا ابنتي لا تخافي "

مددت يدي وصافحته, وما كان منه إلا أن طبع قُبلةً على جبيني: تسمرت مكاني من الذهول, ماذا يفعل هذا؟ صعَّدَت الدماء إلى وجهي, وتوردتُ خجلاً, ثم فقدت الوعي.

*****

سَقَطَت أرضاً ويدها بقيت مُعلقةً بكفي مرةً أخرى, نزلت إليها؛ لأحملها, أذكر أني عِشت مشهداً مُشابهاً لهذا, كان بدايةً لكل شيء.

رفعتها إلى الأريكة المجاورة, تقدمت الخالة حياة نحوها, ثم خلعت عنها حجابها, لكن هذه المرة لم يطلب مني أحدهم الخروج, بعد مدة قصيرة أفاقت, وعندما همَّت بالجلوس, صُدِمَت أنها بلا حجاب, فأخذت تُخفي وجهها بالوسادة, وقالت:

" ماذا تفعل هنا؟ هيا أخرج"

نظر نحوها الجميع بذهول, إلا أنا ضحكت من أعماق قلبي, حبيبتي البلهاء كيف سأجعلها تتقبل وجودي بحياتها بعد الآن؟, اقتربت منها سلمى وقالت:

" لِمَ الخجل يا باتي؟ أصبح خطيبك, ستعتادين من الآن وصاعداً"

-"زياد: بتونيا يا ابنتي لا تذعري؛ فوسيم الآن نصف زوجٍ لك "

بعد حوارٍ طال اعتذرت والدتي وأهل زياد, وانصرفوا: أما أنا فبقيت؛ لأنني كما قال زياد أصبحت صهره, وسأتناول معهم طعام الغداء.

جلستُ مدة ساعةٍ أو أكثر برفقة زياد, وكأنني خطبته هو, باتي والخالة حياة كانتا تُعدان الطعام في المطبخ, والروائح الزكية تتسرب إلى مكان جلوسنا, أشعر أن معدتي تكاد تنفطر جوعاً, بانت قِبلة روحي الآن,

وصارت الأطباق تنهال على طاولة الطعام, جلست مقابلاً لبتونيا, كانت تنظر بطبقها بخجل.

-"زياد: هيا تفضل يا وسيم, لا تخجل فالبيت أصبح بيتك "

هززت رأسي أشكره, لا أخفيكم أكرهه, ولو باستطاعتي لسلخت جلده, كانت باتي تُحرك الشوكة في طبقها دون أن تضع شيئاً بفمها, رحت ألكز قدمها بقدمي من تحت الطاولة, فما كان منها إلا أن جفلت ونظرت نحوي باستغراب, فأشرت بعينيَّ إلى طبقها, فهِمَت قصدي وأعادت لي الركلة بأقوى منها, فتأوهت, قالت مُضطربة:

" أنا آسفة, نسيت أمر قدَميك"

-"زياد: ماذا يحدث؟ ما بكما؟"

-"وسيم: لم يحدث شيء, ركلت قدمي بالخطأ, فتألمت"

-"حياة: ما بكِ يا باتي؟ وكيف وصلتِ إلى قدميه وأنتِ بهذا الطول؟"

-"بتونيا: أمي! أنتِ ما بك؟ طولي كطولك, لِمَ لتعايرينني؟"

-"زياد: هذا يكفي, هيا تناولوا طعامكم "

بعد أن أنهيت طعامي اصطحبتني باتي إلى المغاسل, طبعاً بأمرٍ من والدها, ولو بقي الأمر لها لما تحركت قيد إنملة.

-"بتونيا: ما بك يا أبله؟ لِمَ لتركل قدمي؟"

-"وسيم: الذنب ذنبي؛ لأنني ذكَّرتُك بطعامك الذي كنتِ تلعبين به"

-"بتونيا: أنهي غسيل يديك وأنصرف, ما هذا؟ هل ستبات عندنا اليوم؟"

أجبتها بسخرية:

-"لِمَ لا, فكرة جيدة"

نَظَرَت نحوي بغضب, وركلت قدمي مرةً أخرى, وقالت:

"لقد استحقيت هذا بالمرتين"

*****

ما هذا الكائن الغبي؟ أنهى طعامه ولا يزال هنا, ما قلة الذوق هذه؟ أتممت صُنع الشاي ووضعته أمامه, ثم اعتذرت؛ للذهاب لغرفتي, لكن زوج أمي هل سيُرضيه تصرفي هذا؟

-"تعالي وجالسي خطيبك قليلاً, لِمَ هذه العجلة؟"

أذعنت للأمر كارهةً, وجلست مقابلةً له, وبدأت أرفع حاجبيَّ, وأُحرِك يديّ وقدميّ, وهو ينظر لي ويتجاهلني, أريد أن أُكسر أسنانه التي لم تنستر بشفاهه منذ أن عُقد قِراننا, ما به؟ هل أعجبته اللعبة وصدقها؟.

-"حياة: شاركينا الحديث يا باتي, ما بك صامتة؟"

-"بتونيا: رأسي يؤلمني, وأزعجني الضوء كثيراً"

همَّ واقفاً وأخيراً, ثم قال:

-" استأذنكم.. يجب أن أغادر, هذا يكفي لليوم"

ماذا يقصد ب(لليوم)؟ هل سيزورنا يومياً؟ أُقسم أنني سأقتله لو فعلها"

قال موجهاً كلامه لي:

" غداً سآتي لأصطحبك إلى صالون التجميل, كوني جاهزة في الساعة العاشرة صباحاً"

-"بتونيا: ولِمَ صالون التجميل؟"

-"حياة: ما بك يا ابنتي, غداً سنقيم حفل خطوبة لكما؛ ليعلم الجيران والأقارب أنك خطبتِ"

-"بتونيا: وما الداعي لذالك؟ أخبريهم بالهاتف؟"

-"زياد: باتي ما بكِ؟ لِمَ ترفضين كل شيء, وتنغصين فرحتنا بكِ؟ لِمَ كل هذا العناد؟"

احتد صوته وهو يكلمني, فنظر إليه وسيم وقال:

" لتُعاند وتتصرف كيفما تشاء, فرحتها وهي أدرى بها"

أما أبي فارتاحت ملامحه وقال:

" أنا أتحدث من أجلك, أنتم أدرى"

وانسحب من بيننا إلى غرفته, ما الذي يحدث؟ آه يا رأسي سيقتلانني هذين الإثنين.

رافقت وسيم إلى الباب, وقلت:

" ماذا يحدث بينكما؟ أرى والدي للمرة الأولى يتصرف هكذا, أخبرني ماذا تخفيان؟"

-"وسيم: لا نخفي شيئاً, لكنك الآن أصبحتِ خطيبتي, ولا يحق له فرض قراراته عليك, صحيح كوني مستعدة في العاشرة, سنأتي أنا وسلمى لاصطحابك"

-"بتونيا: هيا اذهب قبل أن أرتكب جريمةً بحقك"

أغلقت الباب ورائه, وعدت إلى غرفتي, لا أريد أن أُصادف والديّ, أريد أن أعاقبهما بمفهومي المتخلف عن العقاب, لقد تعبت اليوم كثيراً, ويجب أن أنام, فينتظرني غداً يومٌ طويل.

آه.. أيُعقل أن أعيش تلك المرحلة التي ينتظرنها كل الفتيات هكذا, بالإجبار وبهذا العمر؟ سأساير الجو لأرى ما العقبات التالية؟

استيقظت على صوت أذان الفجر, توضأت وصليت, ثم توجهت للمطبخ لأتناول شيئاً قبل استيقاظهما, وحينما هممت لأُخرج الخُبز, دخل

والدي. ما هذا الحظ العاثر؟ أعدته أدراجه, وهممت بالخروج من المطبخ,

أمسك والدي بيدي, وقال:

"هلَّا جلستي لنتحدث قليلاً؟"

-"بتونيا: أريد أن أنام؛ فاليوم سيكون مُتعب كما تعلم"

-"زياد: لن أُطيل عليكِ, هيا اجلسي"

-"بتونيا: تفضل, ها أنا أستمع"

-"زياد: أعتذر منكِ يا ابنتي, أنا أعترف أنني قسوت عليكِ كثيراً, أعلم أنكِ تريني كوحشٍ يُدمر مستقبلك وحياتك, لكن يا ابنتي ستعلمين لاحقاً أن ما فعلته من خوفي وحرصي عليكِ, الآن سيطمئن قلبي؛ فوسيم شاب طموح عطوف, قوي القلب, أستطيع أن أضع إبنتي أمانةً لديه."

أطرق للحظات مُفكراً, ثم قال:

"أشعر يا ابنتي أن أجلي يقترب, لا أريد أن أترككِ دون سند, أعلم أنني لم أكن سنداً لكِ, وهذا الأمر لم أراه إلا الأمس, عندما صفعتني بكلماتك التي غُرِزت بصدري, وحين رأيت خوف وسيم ولهفته عليكِ ارتحت؛ لأنني أعلم أني سأترككِ لرجلٍ يحفظك, ويقف بظهرك كالجبل"

عندما قال أبي: أجلي يقترب, لا أعلم ما الّذي حل بي؟, سرت قشعريرة بكامل جسدي, وشعرتُ بداخلي أني أحبه بالرغم مما فعله بي, إلا أنني أكذب على نفسي وأنا أقول زوج أمي وليس أبي؛ فأنا والله لا أرضى أن يُصيبه مكروه. فكرت في داخلي, هل أنا أُعاني من متلازمة ستوكهولم؟ هل يُعقل أن أتعاطف مع الشخصي الّذي يُدمر حياتي؟ صحوت من شرودي على يد والدي التي حطت على يداي المتشابكتين على الطاولة, وهتف:

"أعلم أنكِ تكرهينني, لكن هذه المرة أعدك أنها الأخيرة, سيتبدل حالي, وسأكون أباً, وسنداً لكِ مرةً أخرى, هل تقبلين ذلك يا ابنتي؟"

-"بتونيا: هل ستُطلقني من وسيم وتدعني أُكمل تعليمي؟"

-"زياد: أرجوكِ يا ابنتي, لقد تحدثنا بموضوع وسيم, إذا تطلقتِ منه فسأكون أسوأ من ذي قبل, وسأزوجك بهشام أيضاً, ارضي بنصيبك من الدنيا, ولنكسب بعضنا من جديد"

سحبت يديّ من أسفل يديه بقوة, ثم وقفت, وتأكدت أنني لا أُعاني من أية مُتلازمة:

"إذن لن أسامحك ما حييت, سأمحيك من حياتي بعد زواجي من وسيم"

وليت خارجةً, واصطدمت بأمي في الرواق, سألتني:

"ما بكِ؟ ماذا يحصل بينكما؟"

نظرتُ إلى عينيها, ثم هززت رأسي يميناً ويساراً, وهتفت:

"أكرهكم جميعاً, أنتم تفتقرون للإنسانية"

ثم أكملت طريقي إلى غرفتي, فتحت نافذتي ورحت أُحدق بألوان السماء عند الشروق, لم أستطع التدقيق جيداً؛ فنظري بهت بسببه, والصداع لا يفارق رأسي. عُدت إلى سريري ونمت والدموع معلقة بمُقلتيّ.

استيقظت على صوت خبيط الباب؛ فانتفضت بفزع, كانت سلمى:

"هيا انهضي تأخرنا "

-"بتونيا: ما بكِ يا مجنونة؟ على ماذا تأخرنا؟"

-"سلمى: هل تضرر عقلك يا ابنتي؟ أم هذا تأثير مرضكِ الأخير؟"

صدقاً كأن ذاكرتي قد مُسحت, نظرتُ أليها ببلاهة, ثم دخل وسيم إلى الغرفة:

" صباح الخير"

-"بتونيا: هي, ماذا تفعل هنا؟ أجُننت؟ ما قلة التربية هذه؟"

لم يُعر كلامي أدنى انتباه جلس على طاولتي, وفوق الكتب المتناثرة عليها, وراح يُحرك قدماه للأمام وللخلف, ثم قال:

"أصبحتِ خطيبتي الآن, لماذا تصرخين علي يا حمقاء؟ من الواجب عليكِ احترام زوجك"

تصلب نظري نحوه لبرهةٍ, ثم تناولت الكتاب الذي أضعه بقربي, ورميته عليه, وقفت وتوجهت نحوه, أمسكت بيده وأخرجته إلى خارج الغرفة, كان يضحك وكأنني أُخبره بطرفة, وقبل أن أُغلق الباب قال ساخراً:

"هل تستيقظين هكذا يومياً؟ ونحن نقول عن رزان صاحبة الشعر المنكوش"

علا صوت ضحكته, نظرت نحوه بحقد وأغلقت الباب بحنق, انطلقت مسرعةً نحو المرآة, كان شعري يتناثر كشعر الساحرات, ووجهي أصفر باهت, أما بيجامتي: فيال العار, البيجامة التي أرتاح بها والتي ألبسها دوماً بالرغم من وجود كومةٍ من ملابس النوم في الخزانة, إلا أنها عادة الفتيات, أو الناس أجمعين يشترون الكثير والقليل, ولا يرتدون في المنزل إلا المريح إلى أن يهترئ, أصلاً لا أحسب نفسي من الفتيات, فأنا لا أهتم لمساحيق التجميل, ولا للملابس التي يرتديها الجميع وكأنهم توائم, حتى أني لا أنظر إلى جمال ألبستهم, بل إلى جمال دواخلهم, فماذا سأستفيد من ألبستهم الجميلة؟ وداخلهم يضج بالسواد.

-"سلمى: إلى أين ذهبتِ يا باتي؟ بماذا تفكرين؟"

انتبهت لها ثم فتحت خزانتي لأختار شيئاً أرتديه, نظرت نحو سلمى, كانت تُحدق بي وتكتم ضحكاتها, وما أن قلت لها:

"خير, أضحكيني معكِ؟"

حتى انفجرت قهقهاتها تُصدع جدران غرفتي, وأخذتُ أضحك معها على هيأتي.

-"بتونيا: لا تقولي لم أخبركِ, سأقتل أخاكِ هذا, سليط اللسان, كيف يدخل إلى غرفتي بهذا الشكل؟"

-"سلمى: والدك من أدخله, ثم ما بها؟ فهو خطيبك الآن, لِمَ لتصعبي الأمر إلى هذه الدرجة؟"

-"بتونيا: سلمى أرجوكِ لا تبدئي, على الورق فقط, تعلمين أنني لن أتزوجه"

-"سلمى: كما تريدين, سأخرج الآن, بدلي ملابسكِ براحتك"

شعرت أن كلامي لم يُعجبها, نعم شخصية وسيم ظريفة, ويعجبني كشاب: جميل, ومهذب مع الكل إلا معي, وسند بكل ما تعنيه الكلمة من معنى؛ لكني لا أحبه, ولن أتزوج به, وليفعلوا ما يشاءون, هه.. شرشبيل طويل اللسان.

*****

انتظرناها مدةً زمنية ليست بقصيرة, ماذا تفعل هذه الفتاة؟ هل تتعمد إغاظتي؟.

-"حياة: هل كل شيء جاهز يا بني؟"

-"وسيم: لا تقلقي, لم يتبقى سوى حضور العروس"

-"حياة: سلمى صغيرتي إذهبي واستعجليها"

-"حياة: وسيم أريد أن أخبرك بشيء, أنا أعلم عن الحادثة, أخبرتني بتونيا حديثاً, أنا أعتذر منك كثيراً, أرجوك لا تحقد عليها؛ فهي تمتلك قلباً أبيض, لكنها مجنونة قليلاً ومتسرعة"

-"وسيم: لا عليك يا خالة, لقد نسيت الحادثة منذ زمن "

-"حياة: أعلم أن زياد أخبرك بأمر بتونيا, لا أريدك أن تظن أنني قصرت معها بشيء, ف والله لو أنجبت عشرة أطفال لن أُحبهم كما أحببتها, وزياد أيضاً يحبها بشكل مرضي, أعلم أنه أذاها جسدياً ونفسياً, لكن من خوفه أن ترتكب خطأ والدتها "

-"وسيم: هذا تخلف, تعلمين أن زوجك يُهين الفتاة ويُلحق الضرر بها, وتستمرين بالسكوت أمامه, هل سمعتِ قط أن المحب يمكن أن يُضر حبيبه حتى لو كان مخطئ؟ زوجك مريض وأنتِ تقفين بصفه دوماً, أليس هذا ظلماً لبتونيا؟ لِمَ لا تخبريها أنها ليست ابنتكما؛ لتتخلص من ظلمه وتسلطه؟"

-"حياة: أرجوك يا وسيم لا تخبرها بذلك, ابنتي مرهفة الحس, ستقضي عليها لو علمت, ثم ماذا سنخبرها؟ هل أنَّ والدتها باعتها لنا مقابل مبلغ مالي قليل؟ لا نعلم سوى اسمها ومدينتها, لو كانت تريد ابنتها لعادت منذ زمن لتأخذها, أرجوك لا تحرمني من طفلتي, كنت أقف بصف زياد دوماً كي لا يُخبرها الحقيقة, لا أستطيع أن أخسرها, لا أنا ولا زياد "

-"وسيم: لا تخافي, لن أتسبب بأذيتها, لكن اعلمي أنّي لن أسكت له إذا أذاها مرةً أخرى, ولن أنظر لدموعك ولا لرجائك هذا "

-"حياة: لا تقلق, كان همه الوحيد أن يستر عليها بزوجٍ يُسعدها لا أكثر"

-"وسيم: أتمنى ذلك"

خيّم الصمت على المكان لدقائق, ثم أتت الفتاتان وضحك سني

-"بتونيا: أمي.. ما بك؟ لِمَ كل هذه الدموع؟"

-"حياة: أعتذر منكِ يا صغيرتي, لم أستطع أن أساندكِ, اعذري قلة حيلتي"

-"بتونيا: لا أرجوكِ يا أمي, لا تحزني, لا أحتمل رؤية دموعك "

وأخذت تحتضن والدتها والدموع تفيض وتبلل ملابسهما, حتى تدخلت أنا

"خالة حياة, ماذا ستُحضرين لنا على العشاء؟"

-"بتونيا: لتأكل الزقوم إن شاء الله, لن نُحضِّر العشاء هذه الليلة"

-"حياة: لا عليك منها يا وسيم, أطلب ما تريد. "

انتفضت من مكانها دون أن تنبس بحرف, وتوجهت نحو باب المنزل تهم بالخروج, فاستأذنا الخالة حياة, وتبعناها أنا وسلمى.

كانت تنتظرنا بقرب المركبة. أوصلتهما إلى مركز التجميل, ثم انطلقت نحو المتجر الذي أهملته كثيراً, ذهبت لتدقيق الحسابات كما أخبرت عمي سابقاً, كانت الساعة تُشير إلى الثانية عشر ظهراً, هناك وقت طويل؛ فحفل الخطوبة في التاسعة مساءً, أستطيع تدقيقها إلى ذاك الوقت.

عندما وصلت المتجر لم يكن عمي موجود؛ فبدأت سريعاً دون إضاعة الوقت, كانت الفروق واضحة, هناك زيادة ملحوظة على المبالغ التي كنا نتقاسمها شهرياً, هل كان عمي يسرق أموالنا دون أن نعلم؟ سأريه كيف يخدعنا؟ أخذت هاتفي المستتر تحت الأوراق وطلبت رقمه, عندما أجاب أخبرته: أن يأتي إلى المتجر سريعاً, لم أنتظره طويلاً, بعد عشرة دقائق كان يقف أمامي.

-" أبو زيد: ما بك؟ لِمَ لتطلبني على عجل؟ ثم أليست حفلة خطوبتك بعد ساعتين؟ ماذا تفعل هنا؟ وما تلك الأوراق المتناثرة؟"

-"وسيم: إجلس؛ لأحدثك عن هذه الأوراق المتناثرة, والحسابات الزائفة "

-"أبو زيد: زائفة؟ ماذا تقصد يا ولد؟ هل أنا أسرقكم؟"

-"وسيم: تفضل أنظر, ها هي الأرقام أمامي, إن لم تكن تسرقنا؛ فأين تذهب تلك الأموال؟"

-"أبو زيد: لا تقلل احترام, فالفائض كنت أُصلح به المتجر"

-"وسيم: وأين التصليحات التي تتحدث عنها؟ لِمَ لمْ تُسجل تلك الأجور هنا في هذه الدفاتر؟"

-"أبو زيد: صالح.. صالح "

-"صالح: تفضل ماذا تأمرني؟"

سأخرج الآن, بعد أن يذهب هذا الوغد, أغلق المتجر, واذهب إلى منزلك, ثم أغمض عينيه مطولاً وذهب.

نظرتُ باتجاه صالح نظرة تساؤل عما يحدث, فهز كتفيه للأعلى, وضم شفته العليا وأخرج السفلى قائلاً:

"لا أدري"

رن هاتفي المحمول.. كانت المتصلة سلمى تريدني أن أذهب لاصطحابهم إلى منزل باتي, أخبرتها أنني قادم حالاً, ودعت صالح وخرجت. لم أمشي أكثر من مترٍ واحد, ثم شعرت بشيءٍ صلب يرتطم بمؤخرة رأسي, اجتمع حولي عدة شبان وانهالوا علي ضرباً, حتى هويت أرضاً, وفقدت الوعي.

*****

لم أعد أحتمل, منذ ساعةٍ ونحن ننتظر تشريف السيد وسيم, أعلم أنه يفعل ذلك متعمداًً؛ لأنني تأخرت عليه صباحاً.

-"بتونيا: سلمى هيا عزيزتي, عاودي الاتصال به, يجب أن نرتدي ملابسنا قبل أن يأتي المدعوين "

-"سلمى: لا يجيب, ربما حدث له شيءٌ ما, ماذا سنفعل؟"

بدأت أشعر بالسوء:

"هاتفي والدتك ربما في المنزل"

أخذت سلمى تطلب والدتها, ثم أخبرتها أن وسيم لم يأتي بعد, وطلبت منها أن تأتي لتأخذنا إلى المنزل, بعد مدةٍ قصيرة, أتت الخالة رنا, ثم توجهنا لمنزلي الذي سنقيم به الحفل. كانت الحديقة مُزينة وزاهية الألوان والمقاعد, تنتشر فيها بشكلٍ لطيف, هنا سيجلس الرجال, أما في الداخل فللنساء طبعاً.

كانت أمي تقف أمام الباب وتطلق الزغاريد, الواحدة تلوى الأخرى, وأبي ينظر نحوي ويبتسم: أما عينيه فكانت تتلألأ وتمتلئ بالدموع, أحطت أمي بذراعيّ, ثم تهافتت علي العائلة الكريمة: جدتي, وعمتي, خالي, وزوجته, وبعض الأقارب البعيدون, أما أبي فلا يزال يقف بمكانه بجمود. خرجت من بينهم بصعوبة وتوجهت نحوه ثم قلت:

"أبارك لك بمناسبة خطوبتي, أدامك الله سنداً لي "

ثم قبّلت رأسه وذهبت لغرفتي, أشرتُ لسلمى لتلحق بي, ارتديت فستاني الليلكي اللون, كان ذو أكمامٍ طويلة, وله حزام صغير ناعم, كنت كأميرات ديزني, ارتديت حذاء ذو كعب عالٍ. رحت أُحدق بحذائي تذكرت وسيم وابتسمت.

-"سلمى: ما بك يا بلهاء؟ تنظرين إلى حذائك وتبتسمين"

-"بتونيا: تذكرت وسيم"

-"سلمى: غبية"

ضحكنا سوياً ثم خرجنا للاطمئنان على الوضع في الخارج, بدأت النساء بالحضور, وأصبح المنزل يكتظ بهن, توجهنا نحو أمي والخالة رنا فقد كان يبدو عليهن القلق.

-"سلمى: أمي! ماذا يحدث؟ ألم يأتي وسيم؟"

-"رنا: لم يأتي بعد, منذ ساعةٍ وزيد وبقية رفاقه يبحثون عنه"

-"بتونيا: هل ذهبوا إلى صالون الحلاقة؟"

-"رنا: لم يذهب إليه, وهذا ما يقلقني "

-"سلمى: ربما ذهب لمتجرنا؟"

-"رنا: لا أعتقد ذلك, لِمَ ليذهب للمتجر في مثل هذا اليوم؟ ثم عمك هنا وصالح أيضاً, هذا يعني أنه مغلق"

-"بتونيا: مع ذلك ليبحثوا هناك, ربما تراجع أو خاف "

-"رنا: من؟ وسيم يتراجع عنكِ؟ مستحيل, لكنني سأتصل بزيد, لم يبقى وقت"

بدأنا بالرقص, وكان الجميع مبتهج, إلا نحن, لا أخفيكم كان قلبي يرتعد من أن يحصل له مكروهٌ ما, بعد ساعةٍ من الحفل بدأ الحضور يتساءلون عن العريس, اتجهت نحو الخالة رنا؛ لأسأل عنه فرن هاتفها, كان المتصل زيد أخبرها: أنهم وجدوه, وها هم قادمون, ابتهجنا جميعاً ثم عدنا للرقص.

بعد أقل من عشر دقائق أتت سلمى؛ لتخبر النساء أن العريس سيدخل, أطلقت بصري نحو سلمى فرأيتها من بعيد قد تصلبت, وتنظر نحو المدخل بذهول, تُرى ما بها؟ ثم تحركت ولم أعد أراها, بدأت الزغاريد تنطلق, أتت والدتي لتقف بقربي وتهذب بعض الشعرات المتمردات, ثم ظهر أمامي. كانت الخالة رنا تلف يدها على خصره, وتسنده كي لا يسقط.

لم أعرفه من الألوان التي تصبغ وجهه, تغير من وسيم صاحب الوجه الجميل, إلى وسيم المشوه, اقترب مني وقبّل جبيني, ثم نظر إلى عينيّ, وقال:

-"والله لم أرى على وجه هذه الأرض من هي أجمل منكِ, لون هذا الفستان يُشبهكِ جداً, يُشبه شخصيتك, أنتِ تبرقين فعلاً "

كنت قد تجمدت بمكاني ولم أستطع فتح فمي؛ لأوبخه على تقبيل جبيني, نظرت نحوه مطولاً؛ عله يخبرني, لكنه تهاوى على المقعد وأمسك بيدي, أجلسني بقربه وأنا ما زلت أنظر نحوه كالبلهاء.

عادت الأغاني, وبدأ الجميع بالتصفيق والرقص, وكأن الأمر طبيعي.

-"بتونيا: ماذا يحدث يا وسيم؟ ما هذه الجروح التي تملئ وجهك؟ أين إختفيت؟ ومن الّذي شوهك هكذا؟"

أطلق ضحكةً صغيرة لم يُكملها من الألم, وضع يده على فكه وقال:

"(كُلُّ شقيٍ للشقي نسيب) أُصبت بالعدوى منكِ, ماذا لو رأيتِ بقية جسدي المُزرَق؟"

-"بتونيا: هل هذه إجابتك على سؤالي؟ أنا أسأل من الشرق, وأنت تُجيب من الغرب, أخبرني ما الأمر؟ وهل لأبي يد في حالتك هذه؟"

-"وسيم: من أين تأتين بهذا؟ أُخبرك لاحقاً, هيا انهضي سنرقص"

-"بتونيا: لن نرقص, إياك ثم إياك أن تح..."

ثم همَّ واقفاً بصعوبة, وأبقى كلماتي بحلقي, أمسك بيدي واتجهنا إلى منتصف الصالة, تجمعت النساء حولنا وأخذن يصفقن, ويُطلقن الزغاريد بكثرة, لا أخفيكم, هذه المرة الأولى التي أرقص بها, كنت أقف بثبات بمكاني, والبغيض يُمسك بيداي ويُحركهن يميناً ويساراً.

بالرغم من الصعوبة التي يواجهها وهو يرقص, كان وجهه مبتسم, شعرت وكأن الفرحة تغمره, بدأت أرتاب, ماذا لو كان يحبني فعلاً؟ ماذا سأفعل حينها؟ كيف سأكسر قلبه عندما أفسخ الخطوبة؟ شردت بأحلامي, لا أعتقد هذا؛ فوسيم مُتملق, ربما يفعل هذا لجلب انتباه الفتيات.

وبعد انتهاء الأغنية عدنا إلى مقاعدنا, وبدأت فقرة أخرى وهي فقرة تلبيس المصاغ, كنت أشعر بالضجر, وعاد ألم الرأس واضطراب الرؤية, كانت فقرةً مملة جداً وطويلة, بعد مرور ساعةٍ أخذت جموع النساء بالتفرق, ولم يبقى سوى أفراد العائلتين فقط.

*****

انتهت الحفلة وبدأ التحقيق: أمي وأختي, حتى زياد, كل واحدٍ منهم يطرح سؤال, أما عقلة الإصبع خاصتي فكانت تنظر نحوي, تنتظر أن أجيب.

"لا داعي لكل هذا القلق, لم أرى أحداً منهم, كنت أخرج من المتجر, وأتى أحدهم وضربني على مؤخرة رأسي, ثم تجمع حولي شابين أو ثلاثة, وانهالوا علي ضرباً, استيقظت في مركبة زيد, ثم توجهنا إلى المنزل, بدلت ملابسي وأتيتكم, هذا كل ما في الأمر"

-"رنا: لماذا تستصغر الأمر يا بني؟ دعنا نُخبر الشرطة؛ لنعلم ما غايتهم؟ بما أنها لم تكن سرقة"

-"وسيم: لا عليكِ يا أمي, سيقعون بيدي عاجلاً أم أجلاً, هيا لنعود للمنزل لن أستطيع الصمود كثيراً"

ودعنا عائلة باتي وانطلقنا إلى المنزل, أشعر بأن عمي هو المسبب وسأجعله يندم أشدَّ الندم, كيف يستطيع أن يُنغِص علي أحلى أيام حياتي؟ ما هذا القلب النتن الذي يحمله بين ضلوعه؟ من الآن وصاعداً

سأكون بجانبه طوال اليوم, لن أفسح له المجال ليستغبيني أكثر, أول عمل سأفعله غداً هو تركيب كاميرات في المتجر.

أتت والدتي لتتفقدني وأحضرت معها كوباً من عصير البرتقال, ناولتني إياه, ثم بدأت تنظر نحوي وتبتسم بأسى.

-"وسيم: ما بكِ يا سلطانتي؟ لِمَ كل هذه التعاسة؟"

-"رنا: لا أعلم على ماذا سأفرح يا ولدي, هل على حالك الّذي يُقطع قلبي؟ أم على خطوبتك من طفلة؟ هل تُدرك إلى ماذا تجرُّ نفسك؟"

-"وسيم: أرجوكِ أمي ليس وقته, لقد تكلمنا بهذا الموضوع سابقاً, وأنتِ تحبين عقلة الإصبع, ويُعجبك تفكيرها ووعيها, وحتى شكلها. هل ما يعيق الأمر فقط عمرها؟"

-"رنا: ووالدها؟ هذا أكثر ما يُخيفني, الرجل معتوه, مريض نفسي, لم أرى على شاكلته بحياتي"

-"وسيم: لا عليك يا حبيبتي, أريد أن أسألكِ يا أمي "

-"رنا: تفضل يا ولدي, ماذا يجول بخاطرك؟"

-"وسيم: ما رأيك أن نشتري حصة عمي؟ أو نبيعه نصيبنا من المتجر."

اضطربت أمي وبان القلق على وجهها:

-" هو من فعل هذا بك أليس كذلك؟ أجبني يا وسيم"

-"وسيم: لست متأكداً من ذلك, لكنني أشك به؟

-"رنا: سيكون أول عمل لك غداً أن تُبلغ الأمن عنه, لن أبقيك لقمةً سهلةً له"

-"وسيم: لا يا أمي, انسي هذه الفكرة, سيُخلص نفسه بالتأكيد, أريد طريقةً لنستعيد حق والدي."

-"رنا: إذن سنذهب غداً لنتفاوض معه, إذا كان ذاك المتجر سيسبب المشاكل لنا, فلا أريده, لنبعه حصتنا ونشتري لك صيدلية تُديرها أنت, ويُصبح مالنا لنا "

-"وسيم: لِمَ لا, أعجبتني الفكرة, نُديرها أنا وزيد سوياً, وبعد تخرُّجنا نزاول مهنة الصيدلة "

ذهبت أمي لتنام ورحت أنا أتقلب في فراشي, أُفكر بالكثير من الأشياء, وأولها الصيدلية: حُلم حياتي. هل سيقبل بشراء حصتنا من المتجر أم لا؟ متى سيأتي الغد وأرتاح؟

نسيت تماماً عقلة الإصبع, لقد تركتها متسائلةً والحيرةُ ترتسم على معالم وجهها الجميل, كانت كشُعلة من نور تُضيء البيت, وقلبي, و كل الحي, نجلاء العينين, صغيرة الشفتين كأنها حورية أضاءت طريق الجنة.

سَكَنتُ قليلاً وطيفها يلوح ببالي, ورحت أدندن:

(خايف أقول اللي في قلبي تتقل وتعند ويايا

ولو داريت عنك حُبي تفضحني عيني في هوايا

أنا زارني طيفك في منامي قبل ما حبك

طمعني بالوصل وسابني و أنا مشغول بك)

في صباح اليوم التالي.. استيقظت وكلي نشاط, وبعد أن تناولنا طعام الإفطار انطلقت ووالدتي إلى المتجر, كان عمي يقبع خلف مكتبه ويُلقي أوامره على صالح الّذي لولا رِزقُه لقتله منذ زمن, عندما أبصرنا وقف بذهول:

-" كيف تأتي بوالدتك إلى هنا؟ لم يتبقى سوى أن تعمل معنا بين الرجال"

-"رنا: لِمَ لا ؟ على الأقل لا أسرق مال غيري, ولا أُكيد المكائد لإبن أخي الذي أوصاني به شقيقي"

اختفى اللون من وجهه, وشرد قليلاً ثم قال:

-"ماذا تهذين يا امرأة؟ لا ألومك, لا يوجد من يُغلق فمك المشؤوم هذا"

فار الدم بعروقي, ما هذا الرجل الذي يفتقر للأدب؟ تقدمت ممسكاً بمقدمة معطفه وقلت:

-" ألم أنبهك أن لا تتعرض لوالدتي؟ ولا بأي شكلٍ من الأشكال؟ "

أمسكت أمي بيدي؛ لتُعيدني إلى الوراء, أما عمي فسحب معطفه بصعوبة من بين يديّ.

-"أبو زيد: سأخبر الشرطة, سأريك كيف تتطاول على أسيادك وأولياء نعمتك؟"

-"وسيم: أولياء ماذا؟ وأسياد من؟ إذا كنت تجرؤ: فأخبرهم لنرى من سيقبع بالسجن؟ وتُصبح قصته على كل لسان, هل تظنني مغفل ولا أدري أنك من أرسلت الرجال لضربي في الأمس؟"

تلعثمت الكلمات على لسانه وقال:

" ما دليلك على هذا؟ "

ثم صِحت بصوتٍ مرتفع:

"احمد...."

ظهر أحمد وتعرف عليه عمي, كان أحد شباب الأمس؛ لكنه في الصباح الباكر أتى مُعتذراً, وأخبرني بأن عمي قد هدده بقطع رزقه, هو ومن معه.

نظر عمي نحوي بقلةِ حيلة وهتف:

"ماذا تُريدان مني الآن؟"

-"وسيم: إما أن تبعنا حصتك بالمتجر, أو أن تشتري ما لنا"

-"أبو زيد: لكن لا أستطيع, لا أملك المال الكافي لأشتري نصيبكم, أما أن أبيع ما هو ملكي فمستحيل؛ منذ شبابي وأنا أعمل هنا, ولن أتركه لكم"

-"رنا: تدبر أمرك, اقترض من أصدقائك, افعل ما تشاء, لا نريد أن نُبقي تلك الشراكة معك"

-"أبو زيد: أمهلاني بعض الوقت؛ لأفكر وأجهز المبلغ لكم"

انطلقت من المتجر وأنا أشعر بالنصر, أما أمي فقد غلب عليها الحزن؛ فهذا المكان من رائحة والدي, تعبه وعرقه هنا, أحلامه كانت هنا, كان الأمر صعباً, لكن لن نحتمل أن يسرق حقنا أكثر.

-"وسيم: أمي ما رأيك في أن نزور كنتك الصغيرة المُعقدة نفسياً؟"

نظرت إلي ولا تزال بعض الدموع عالقة بمُقلتيها, ثم انفجرت ضاحكة:

"معتوه, لا أعلم كيف ستتزوج وتكون عائله؟"

*****

كان يومي طويل وثقيل, ما بال أيامي تبهت؟ كلما مر يوم زِدتُ شقاءً وتعاسة, متى سأنام قريرة العين؟ ووسيم ما الّذي جرى معه اليوم؟ ولِمَ لمْ يخبرنا بشيء؟ أعتقد أنني أعطيته من تعاستي؛ فالتعاسة عدوى أيضاً, أو كما قال: كل شقيٍ للشقي نسيب, أيعقل أن يكون وسيم نصيبي

ونسيبي إلى آخر عمري ؟ أسئلة كبيرة وكثيرة تدور في رأسي الذي أصبح رماداً, احترقت دارات دماغي منذ زمن, والفضل لوالدي العزيز.

تركت أسئلتي ودارات مخي جانباً, ورحت أسحب دبابيس الشعر, وبالرغم من شعري القصير, إلا أن صاحبة صالون التجميل لم تُبقي شعرةً دون أن تثبتها بدبوس, كل هذه الدبابيس بكفة ومثبت الشعر الّذي صلَّبَ كل أجزاء شعري بكفةٍ أخرى, لم أخبركم طبعاً عن مساحيق التجميل التي أخذت مني قرابة الساعة وأنا أزيلها, في النهاية سرقت حمَّاماً دافئاً, ثم خلدت إلى النوم دون هز.

في الصباح أيقظتني أمي لتناول طعام الإفطار, طبعاً لا يخلو يومي من المُنغصات, سيرافقنا على المائدة السيد العزيز صاحب الظل الهبيل, ووالدته.

أسرعت وبدلت بيجامتي ثم خرجت, ألقيت التحية عليهما ودخلت لأساعد والدتي بنقل الأطباق إلى الطاولة, كان والدي قد خرج إلى العمل باكراً .

-"رنا: كنت أود أن أتناول طعام الإفطار من تحت يداكِ يا باتي"

ما بها هذه ؟ هل بدأنا بمعاناة الكنة والحماة؟ هذا ما كان ينقصني, يا ليته ألتف الحبل السري حول عُنقي, ولم أخرج إلى هذه الدنيا العصيبة.

-"حياة: في المرة القادمة إن شاء الله"

تنهدت تنهيدة مكتومة, وابتسمت ابتسامة صفراء, ثم غرد البلبل:

" خطيبتي العزيزة هلَّا حضرتي لي بيض بالطماطم؟ اشتهيته الآن"

هل يستفزني هذا الأبله؟ هل أصبحت خادمته مجدداً؟ سأنتف شعر ذقنك يا معتوه.

كان الجميع ينظرون نحوي ينتظرون إجابة, ابتسمت ابتسامة صفراء أخرى وقلت:

" طبعاً سأحضره, أطلب وتمنى يا خطيبي العزيز, هل تُريد شيئاً أخر؟"

-"وسيم: لا, فقط أسرعي؛ لأنني جائع, من البارحة لم أتناول شيئاً"

نظرت نحوه نظرةً تفيض بالحقد, والتحدي. ثم انطلقت إلى المطبخ, سأريك الآن ماذا سأفعل بك؟

أتممتُ صُنع البيض بالطماطم لكنني وضعت به كمية كبيرة من الملح والفلفل, ليأكل الزقوم إن شاء الله.

-" تفضل بالعافية"

كان فعلاً كذئبٍ جائع, عند عودتي كانت الأطباق أمامه فارغة, ولولا الحياء لتناول الأطباق أيضاً, أخذ قطعة خُبزٍ كبيرة على أن تكون لقمة, ويصعب حتى أن تدخل فمه, ثم ملئها بخلطتي السحرية وأبتلعها.

تحول وجهه الأبيض إلى قرمزي اللون, وأخذ يسعل بشدة, راحت عينيه الخضراء تترقرق بالدمع.

-"رنا: بسم الله عليك يا ولدي, ما بك؟ تناول طعامك ببطء لن نشاركك به, لا تخف"

-"حياة: بتونيا.. أسرعي وأحضري الماء لوسيم "

ذهبتُ مهرولةً إلى المطبخ, وانفجرت بضحكات مكتومة, حتى أن قلبي فرح بشكلٍ لا يُصدق, ومن شدة فرحي تسارعت النبضات, أخذت كوب الماء وبصقت فيه؛ لأُكمل انتقامي.

مددت الكأس لوسيم, نظر نحوي وكأنه أدرك ما أفعله, تناوله مني ووضعه أمامه على الطاولة.

-"حياة: اشرب الماء يا بني؛ ليهدأ سعالك"

-"وسيم: لا أحب الماء كثيراً يا خالة, سأشرب الشاي عِوضاً عنه"

طبعاً والدتي فهمت القصة, وراحت توبخني ونحن ننقل الأواني إلى المطبخ:

"ألا تخجلين يا ابنتي؟ هذا البيض لا يؤكل ولا يُحتمل حتى, أهكذا ربيتك؟"

-"بتونيا: لقد استحقها يا أمي, البارحة كانت خطبتنا, واليوم يُلقي علي الأوامر"

-"حياة: وكأس الماء هل وضعتِ فيه شيئاً؟"

-"بتونيا :لا أستطيع إخبارك"

-"حياة: لا تقولي أنك بصقت في الكأس"

أومأت برأسي إيجاباً, وانفجرنا ضاحكات:

"هذه أخر مرة, لن تفعلي شيئاً كهذا مرةً أخرى, ثم ألم تريه كيف كان يأكل بشراهة؟ وكأنه لم يأكل من شهر, إياكِ أن ترتكبي حماقة كهذه! الشاب رضي بكل طلبات والدك, بل وتحمل غطرستك وحنقك, أهكذا تردي المعروف؟."

شعرت بالذنب, أجل ما يفعله لي لا يفعله أحد, وأنا أصبحت الشخصية الشريرة في حكايته, أستغفر الله, سأذهب وأضع له القليل من الكيك الّذي تبقى من حفلة الأمس, أخذت الطبق, ووضعته أمامه, لم يعرني أدنى انتباه, كان يمسك بهاتفه المحمول ويضع أرقام, ويمسح أخرى: أما والدتي والخالة رنا, فقد جلستا بالحديقة, وبدأنّ بتقييم مجريات حفل البارحة.

-"بتونيا: وسيم أنا أسفه, لم أقصد, سقط مني الملح والفلفل بالخطأ"

تناول شوكته وشرع بالأكل دون أن ينظر نحوي, وكأني غير مرئية.

-"بتونيا: هي.. شرشبيل, ما بك لا تجيب؟"

-"وسيم: أُفكر قليلاً؟ هل تسمحين لي؟"

-"هل لديك دماغ لتفكر؟"

-"لا طبعاً, فقد أعطيتكِ إياه؛ لأن دماغك تالف"

-"بتونيا: هل لاحظت أنني لم أبتسم حتى؟ ماذا يحصل؟ لِمَ لمْ تُعلق على الطعام؟"

-"وسيم: وهل تريدين أن أوبخك؟ انتهى الأمر وليس بشيءٍ يُذكر, لكن كوب الماء لم أشربه, فهمت نظراتك اللعينة, كانت هوايتي في الطفولة"

-"بتونيا: أعلم أنك كنت وما زلت تفيض بالخبث, أخبرني الآن ماذا تجمع وتطرح؟"

-"وسيم: سنشتري صيدلية "

-" وعملك بالمتجر؟"

-"وسيم: سأبيع حصة والدي لعمي "

-"بتونيا: وجامعتك؟"

-"وسيم: لا عليكِ, سأكمل تعليمي, لن أعمل بالصيدلية بدون شهادة طبعاً "

أردف:

"غداً سأشتري لكِ هاتف "

-"بتونيا: لا أريد منك شيئاً, يكفي ما أنفقته من أجلي, لن أقبل به"

-"وسيم: لم أسألك عن رأيك, أخبرك فقط"

-"بتونيا :ثم لِمَ لتأتي غداً؟ هل ستعيش في منزلنا؟ يكفي يا أخي, أريد أن أرتاح من وجهك الصبوح, وطلتك البهية"

-"وسيم: لم أرى عمي زياد العزيز, اشتقت له وأريد أن أُذهب مرارة شوقي"

-"بتونيا: (عمى الِدببة)"

ضحكنا ببلاهة, لا أخفيكم بدأت أشعر بقرب وسيم مني, وكأنه هدية الله لي, لا أعلم ماذا يخفي لي الزمن, لكن أشعر أنه سيكون بجانبي دوماً.

*****

ها قد مرَّ أسبوع على أخر لقاء لنا, كنت قد أصدرت قراراً بعد زيارتي الأخيرة لمنزل بتونيا: أن أغيب عنها أسبوع كي لا تملني, وبعد غيابٍ طال طرقت بابهم, هذه المرة رافقتني سلمى.

-" زياد: ما كل هذه الهدايا يا بني؟ أيعقل أن تصرف أموالك على باتي؟ لا تزال في بداية الطريق "

-"وسيم: لا مشكلة لدي, المهم أن لا أُنقص عليها شيئاً, ولو طلبت روحي لقدمتها لها"

-"زياد: جزاكَ الله خيراً, أتعلم الآن لِما إخترتك أنت لتُصبح زوجها؟ "

-"وسيم: لا تُعدنا إلى تلك المسألة لو سمحت؛ لأنني لا زلت أحمل بقلبي عليك "

-"زياد: كما تريد, لكن أريد أن أوصيك بابنتي, لا تتركها لأحد أرجوك, كن سندها, كن لها أباً, إياك أن تتخلى عنها حتى لو كانت تلك رغبتها!"

-"وسيم: ماذا يحدث لك؟ هل هُناك خطبٌ ما؟ أقلقتني"

-"زياد: لا عليك, فقط أستودع ابنتي لله وأبقيها أمانةً لديك "

-"وسيم: لا تقلق, بتونيا بأيادي أمينه"

أقلقني هذا الحديث, وشعرت بسوءٍ يقترب, لم أفهم ما غايته.

-" هيا تفضل يا بني "

تقدمت إلى غرفة الجلوس, قبّلت رأس الخالة حياة, ثم مددت يدي لأصافح عقلة الإصبع التي كانت مبللة بالماء من رأسها حتى أخمص قدميها, كانت يدها باردة بل مُتجمدة, سألتها:

"ما هذا؟ هل كنتِ بالخارج في هذا الجو الماطر؟"

أجابتني:

"وما رأيك؟ مغفل, تعلم الإجابة وتسأل, ثم لا علاقة لك بي, أفعل ما يحلو لي"

-"زياد: بتونيا تأدبي قليلاً يا ابنتي"

لا أعلم لِمَ هذه الفتاة محتدة وقاسية دوماً؟, كيف لي أن أعيدها إلى طبيعتها الخام؟ سألتها بدافع الخوف لا أكثر, أُعطي الحق لوالدتي عندما تُطلق عليها لقب المريضة نفسياً, أبلعتني الفرحة التي أتيت بها, وغصصت بشوقي لها, أهكذا تستقبلني من بعد غياب؟ وأنا الّذي حرمت نفسي من رؤيتها كي ترتاح من وجهي الصبوح, انتبهت لصوت زياد بعد شرودٍ خفيف.

-"اجلس يا بني"

أسرعت سلمى وانتشلت الأكياس من يداي, ثم رافقت عقلة الإصبع إلى غرفتها.

جلست قرابة الساعة مع والديها, كان الحوار بيننا لطيف جداً, بل النقاش مع والدها أثار دهشتي, يمتلك كمية معلومات لا أبالغ لو أخبرتكم أنها تتجاوز محركات بحث الانترنت, واكتشفت شخصاً آخر؛ وكأن خوفه المستميت على بتونيا قلب حاله وحوله إلى وحش.

أتت الفتاتين بعد مدة, أنزلتُ نظري إلى الأسفل, وعدت أُكمل الحديث من حيث توقفه, هذه المرة كنت ممتعضاً منها, نَظَرَت نحوي وقالت وهي تجلس على الأريكة:

-" لم يكن هناك داعٍ لكل تلك الهدايا, شكراً لك"

لم أنظر حتى نحوها, وأجبتها ببرود:

" العفو"

عُدت أُكمل حديثي الشيق مع زياد. نهضت هي وسلمى متوجهاتٍ إلى المطبخ, كانت قد بدلت ملابسها المبتلة, وارتدت فستاناً طويل الأُكمام, كموني اللون, كم تليق بها تلك الألوان الزاهية, عادت تحمل أكواب العصير, عندما مدت الصينية أمامي قلت:

"لا. شكراً, لا أريد "

-"حياة: لِمَ لا تريد يا وسيم؟ إنه من صنع خطيبتك العزيزة "

-"بتونيا: لا تخف, لا يوجد به شيء, سلمى كانت برفقتي"

-"وسيم: حقاً لا أريد, مَعِدَتي تؤلمني"

أردفت موجهاً كلامي لأختي:

"هيا يا سلمى اشربي العصير بسرعة, سنعود إلى المنزل "

-"زياد: لا يزال الوقت باكراً, إبقى قليلاً, ثم انك لم تُطل جلوسك"

-"وسيم: تركنا والدتي لوحدها يا عمي, هذا يكفي, في المرات القادمة إن شاء الله "

هممت واقفاً موليها ظهري, وخرجت دون أن ألقي التحية عليها, ذَنَّبت نفسي؛ لكن أي شخص في مكاني كان لِيُظهر ردة الفعل نفسها

-"سلمى: ما هذا الَّذي فعلته بالداخل؟"

-"وسيم: سلمى ..لو سمحتِ, لن أحتمل دفاعكِ عنها, أُنظري ماذا أفعل لأُبهجها؟ وماذا تفعل هي؟"

-" سلمى: أخي.. أرجوك لم تقصد ذلك, هي فقط لا تستطيع التعبير عن مشاعرها بوضوح, ولا زالت تخاف فكرة الارتباط بك, ولا تنسى أنها في سن المراهقة "

-" وماذا فعلت أنا؟ هل سؤالي عن حالها خطأ؟ أخاف عليها من المرض, من الحزن, من الهواء, ولا تسأليني متى وصلت لهذه الحال؟ لأنني لا أعلم؛ و كأن حبها لعنةٌ نزلت علي "

أخذت تضحك ببلاهة:

"اشتقت إلى وسيم المجنون, وتشابيهه العظيمة"

-"وسيم: هل تُريدين أن أعود إلى سابق عاهدي؟"

-"سلمى: لا, أرجوك"

أُكملت ضحكاتها التي في نهاية الأمر أشعرتني بالرضا ولو قليلاً"

*****

أعلم تلومونني على أُسلوبي الفظ مع وسيم, صدقوني لا أعلم من أين تخرج تلك الفظاظة بوجوده؟ لكنني شعرت بالسوء عندما عَامَلَني بجفاء أستحقه. كانت هداياه لطيفة جداً, أحضر لي هاتف نقال, وزجاجة عطر مميزة المظهر والرائحة, وسلسلة ذهبية يُكتب عليها اسمي, هذا غير

الملابس, وأدوات التجميل, وغيرها. هل أنا منزعجة من غيابه الطويل عني؟ لم أكن أعلم لِمَ أجبتهُ بقسوة؟ لكن ما أعلمه أنني خجلة لتصرفي هذا.

طرقات خفيفة على الباب.. كان والدي الطارق, دخل بعد أن أذِنتُ له, اقترب وجلس على حافة السرير الّذي كان متروساً بهدايا وسيم, أمسك يدي بين كفيه ثم قال:

"لا تحرقي الغطاء كله من أجل برعشة, أعلم أنكِ تقسين على الفتى بسببي, لكنك لا ترين الجزء المهم من القصة, وسيم يا ابنتي يُحبك, ولولا حُبه لكِ لما بقي لدقائق برفقتك"

صُعِقت! والدي يُحدثني عن الحب! هل يا تُرى أصابه الجنون؟ أكمل حديثه:

"أنا أسف يا ابنتي؛ لأني لم أقدم لكِ الحياة التي تتمنينها, لكنني والله جاهدت كثيراً, وتعبت كثيراً, لأوفر لك كل ما تطلبينه, مع ذلك اكتشفت مؤخراً أنكِ لم تكوني بحاجة المال, أو الهدايا, كنتِ بحاجة أب وأنا أعترف أنني حرمتك من هذا, لكنني أُحاول إصلاح ما أفسدته, أعدك هذه المرة الأخيرة, سيتحسن كل شيء, سأفعل ما تريدينه فقط"

-" بتونيا: إلا أن أفسخ خطوبتي؟"

-"أعلم بل تأكدت بأنك تحبين وسيم, أنظري إلى نفسك بالمرآة, في الأسبوعِ الأخير تغير حالكِ كثيراً بل أصبح الفرح يملئ قلبك, ومقلتاكِ"

-"بتونيا: مستحيل. هل تعلم عن دواخلي أكثر من نفسي؟, ثم ما تفسيرك لفظاظتي معه اليوم؟"

-"زياد: تأكدت من حبك له بسبب هذه الفظاظة, أتعلمين؟ عندما دخلت إلى غرفتك قبل قليل كان وجهك يكسوه الحزن, لماذا؟ لأنك كسرتِ بخاطره وهو الّذي أنفق مبلغاً من المال ليس بقليل من أجل إسعادك "

ارتبكت قليلاً, هل أُلقي القبض علي وأنا متلبسة؟ لكنني لا أشعر بذلك, ولست متأكدةً من صحةِ المشاعر التي تعتريني.

-"بتونيا: أنبني ضميري لا أكثر"

-"زياد: أنا متأكد من ذلك, أنا أتيت لأخبرك أنكِ تستطيعين فسخ الخطوبة من وسيم"

-"ماذا؟ هل أنت متأكد؟"

-" زياد: كما سمعتِ, لكن أطلب منك مهلة أسبوعين؛ لتتأكدي من مشاعرك التي تتجاهلينها بكبرياء "

همَّ خارجاً و تركني في دوامةٍ من المشاعر المتخابطة, أبي يُحدثني عن الحب! وبكل هدوء! وفوق ذلك يخبرني بإمكانية فسخ الخطوبة! ما الّذي

يحصل له؟ هل ينوي إصلاح الشرخ الَّذي بيننا؟ لا أعلم بما أفكر, وكيف سأُنهي هذه الخطوة؟ وهل حقاً وسيم يحبني؟ هذا الأمر سيصعب علي الطلاق, كيف سأكسر قلبه بعد كل ما فعله لينقذني, وقد أنقذني فعلاً.

بعثر أفكاري صوت أمي:

" ما بكِ لا تُجيبين؟ طرقت الباب كثيراً"

-"بتونيا: كنت شاردة قليلاً, أتعلمين بماذا أخبرني أبي؟"

-"حياة: أعلم وقد أخبرته بقصتك مع وسيم من البداية"

-"بتونيا: ماذا يا أمي؟ لِمَ لتخبريه؟ كيف سأنظر له الآن؟"

-"حياة: لا عليكِ, نظرتِ وانتهى الأمر"

نهضت عن سريري وعانقت والدتي:

"أمي. ما الّذي غير والدي هكذا؟ أخاف من عاقبة الأمر, لأول مرة يتحدث معي بهذا الشكل الرقيق, أتعلمين؟ كان يُحدثني عن الحب والمشاعر"

أنزَلَت يديّ عن كتفيها, ونظرت إلي ثم قالت:

"إذاً لا زلت لا تعلمين من والدكِ؟ هذا العاشق المُخَضرم"

-"بتونيا: أمي, ماذا أفعل؟ أخاف أن أكسر قلب وسيم؛ إذا فَرَضتُ أنه يحبني حقاً, وأخاف بعد طلاقي منه أن يعود أبي إلى عهده, لا أعلم ماذا سأقرر؟"

-"حياة: بالنسبة لوالدك لقد تغير مثلما تغيَّرتِ أنتِ, أشعر بأن زياد القديم يعود إلى الساحة, ربما ما فعله وسيم من أجلك أثار الخجل بداخله, أما القرار؛ فيعود لكِ, تمهلي وفكري ملياً, إياكِ والعجلة!"

-"بتونيا: سأسألك سؤالاً أخير, هل أنا تغيرت فعلاً؟"

ابتسمت أمي ابتسامةً أكلت قلبي كله, ياالسِحر ابتسامتها ثم قالت:

"لا أعلم, اسألي نفسك"

قَبَّلَتني على جبيني, ثم خرجت وتركتني هي الأخرى بحيرةٍ, لا يعلم بها إلا الله.

كيف لوالديّ أن يعلمان بحبي لوسيم دون أن أشعر به أنا؟ هل أنا أُحبه فعلاً؟ بالنظر إلى الفترة الأخيرة؛ فشعوري السيئ نحوه تضائل, وقل كثيراً, بل اختفى. هل أفكر به؟ نعم, أفكر به و يشغل حيز كبير في دماغي, لكني لم أشعر بأني أحبه, ربما هذا امتناني له على مساعدتي.

لِمَ لا؟ فهو إنسان صالح, نقي القلب, وساذج, يُضحكني غباءه كثيراً, مع أنه شعلةُ ذكاء, لكن لا أعلم كيف ينزل عليه الغباء فجأة عند لقائي؟. يا ترى هل يُحبني كما يقول والدي؟, أبي لم يتحدث عن شيء لا يعرفه

بحياته كلها. عُدت أسبح في متاهة أفكاري, فكرت قليلاً, ثم قررت: سأرسل رسالة اعتذار لوسيم.

أعتذر كثيراً منك, أنا عُقلةُ الإصبع الساحرة, هل ستعفو عني يا صاحب الظل الطويل؟"

*****

اتجهت إلى غرفتي على عجل؛ كي لا تراني والدتي على هذا الحال, ألقيت بجسدي المتهالك على السرير؛ أحاول النوم, لكن أفكاري كثيرة وأحلامي كبيرة, كنت أدفن رأسي تحت وسادتي؛ لأوقف تلك الأفكار, لكن من أوقفها لم تكن الوسادة: بل رسالة نصية من مُهجة الفؤاد الجارحة.

كانت تعتذر مني على خطأها, كيف سأرد عليها الآن؟ فأنا يا رفاق كما تعلمون لم أعد وسيم سليط اللسان, لا أعلم كيف أصبحتُ رقيق القلب, دافئ الكلمات؟

أجبتها:

"إعترفتِ أنك ساحرة إذن, لا عليكِ, سامحتك. تستطيعين النوم براحة تامة. تُصبحين على خير يا عقلة الإصبع"

وغرقت أنا بنومٍ عميق, استيقظت في الواحدة ظُهراً, ولأول مرة أغطُ بنومٍ هانئ دون أن يُزعجني أحد, غسلت وجهي ونظفت أسناني, واتجهت إلى الطابق السفلي, حيث يقع المطبخ. كان المنزل فارغ: أمي

وسلمى في المدرسة, صنعت شطيرة, ثم تناولت هاتفي وطلبت رقم باتي؛ للإطمئنان عليها, فهي لا زالت في إجازة من المدرسة؛ بسبب ارتجاج الدماغ الّذي أصابها مؤخراً.

رن الهاتف طويلاً, أيُعقل أن تنام للآن؟

-"بتونيا: ماذا تريد يا وسيم؟"

-"وسيم: أتموتين إذا تكلمتِ بلُطف؟ أُريد الإطمئنان عليكِ, هل مرضتِ؟"

-"بتونيا: لا, لم أمرض, وحتى لو مرضت, لن أُخبرك؛ لتشمت بي, أصلاً تكفيني الأمراض التي تُلازمني في المدة الأخيرة."

-"وسيم: ما هذا الصوت؟ هل أنتِ في الخارج؟"

-"بتونيا: أجل, خرجتُ مع والديّ إلى مدينة الألعاب"

-"وسيم: هل تُمازحينني؟ والدكِ, وأنتِ, والألعاب, لن أُصدق ذلك, حتى لو رأيتكما بأم عيني"

-"بتونيا: إذن تفضل لترى بعينيك, ننتظرك.. لا تتأخر"

أغلقت الهاتف بذهول, ما الّذي يحصل لزياد؟ ما هذا التغيير المفاجئ والكبير؟ هل يُعقل أن يفسخ الخطوبة أيضاً؟ لا, لن يفعلها, ليس إلى هذا الحد.. سأذهب لأرى.

بدَّلت ملابسي وخرجت من المنزل على عجل؛ كي لا أتأخر على الحبيبة. عندما وصلت كانت الخالة حياة تجلس على مقعدٍ لوحدها, اتجهت نحوها, رحبت بي ثم سألتها:

"أين باتي وعمي زياد إذن؟"

أشارت بيدها إلى إحدى الألعاب, كانا يجلسان بقرب بعضهما, وصوت صُراخهما وضحكاتهما يظهر من بين عشرات الأشخاص الّذين يلعبون ذات اللعبة.

نظرت نحو الخالة حياة, كانت تنظر نحوهما, وهي تضحك تارةً, وتبكي تارةً أُخرى.

-"وسيم: ما الذي يحصل يا خالتي؟ بماذا يُفكر العم زياد هذه المرة؟"

أمسَكَتْ بيدي وأجلستني على المقعد أمامها, ثم قالت:

"أن يُطلقها منك ويستعيد ابنته"

صعد الدم إلى رأسي, واصطكت أسناني, وأخذ قلبي ينبض بشدة, بان الخوف على وجهي الَّذي شحب بسرعة البرق, ثم نطق لساني مُثقلاً:

"نعم؟"

-"حياة: لا تخف يا بني, لِمَ تغير لون وجهك؟"

-"وسيم: هل تريدين مني أن أضحك على هذا الحال؟ سيأخذ بتونيا مني, ثم سيعود إلى شدته, لن أقبل بهذا, لا.. مستحيل, لن أسمح لكما"

-"حياة: اهدأ يا بني, لن يحصل هذا, زياد أَحبك كثيراً, ورأى شبابه فيك, لن يتخلى عنك"

-"وسيم: على ماذا ينوي إذاً؟ ماذا يُريد أن يفعل؟"

-"حياة:عاد زياد القديم, وأنت سرٌّ هذا التغيير المفَاجِئ, بفضلك يا ولدي تعود حياتنا إلى الاتزان, أعدت البهجة والحب إلى منزلنا, الأهم من ذلك عودة المياه إلى مجاريها بين زياد وباتي, في الأمس أخبرته عن قصتك مع صغيرتي, لو رأيته كيف بكى كالثكلى؛ لأنه جرَّ إبنته للقسوة, ربما كانت الآن ستكون في حالٍ آخر بعد الحادث, وابنتي في السجن, تخيل! فكَّرَ حتى بهذا الإحتمال, وأخبرني أنه لن يستطيع أن يفقدها بعد كل هذا التعب؛ لحمايتها والخوف المكتوم الذي كان يعيشه"

-"وسيم: مع هذا لن أسمح لكما بأخذها, وحتى لو أصبح أفضل أب في العالم, بتونيا ستصبح زوجتي, هل فهمتِ؟"

وقفت ألتف حول نفسي, وأُفكر بالإحتمالات الجديدة, ثم قلت:

-" هل أخبرها أنهُ بإمكانها الطلاق مني؟"

-"حياة: هلّا جلست؟ لقد أشعرتني بالدوار."

بعد أن جلست في مكاني عادت تُكمل حديثها:

"أجل, أخبرها"

-"وسيم: وماذا قالت؟"

-"حياة: لم تُجب, لا زالت تفكر, تخاف أن تكسر قلبك بعد كل المساعدات التي قدَّمتها من أجلها, لكن زياد أعطاها أسبوعين؛ لتأخذ قرارها على مهل"

-"وسيم: أسبوعين ها "

أغمضت عينّي بألم, ورحت أحاول ضبط دموعي من الإنفجار, كنت أعلم أن هذه الخطوبة ستنتهي, لكن لم أفكر أنها ستكون بهذه السرعة, ماذا سأفعل؟ كيف سأُطيقُ الحياة بدونها؟ وزياد ماذا لو عاد إلى ما كان عليه؟

نهضت بصعوبة عن مقعدي؛ لأُغادر المكان, عادت الخالة حياة وأمسكت ذراعي, ثم قالت:

"لا تخف يا وسيم, لن تتطلقا فابنتي لن تتخلى عنك بعد تضحياتك لأجلها, حتى أنني متأكدة من حُبها لك"

-"وسيم: أتمزحين يا خالة؟ ألم تكوني شاهدة على حادثة البارحة؟ هل رأيتِ مُحِباً يُعامل حبيبه بحقد؟ ثم أنتِ تعلمين أنها ستنتظر هذين الأسبوعين؛ لتُبلغني الموضوع بروية وتتركني, لِمَ لِتُراوغي في الكلام,

وتزرعي داخلي أملَ مستحيل, لا عليكِ, إنسي الأمر؛ لعله خيراً. سأذهب الآن, أراكم لاحقاً"

ثم ضرب في الوسط الصوت المفضل لدي, ألطف من ألطف موسيقى في العالم.

-"بتونيا: إلى أين؟ هل ستذهب قبل أن ترانا؟"

استدرت نحوها: كانت تفيض بالحياة, تقاسيم وجهها تشعُ فرحاً, خفت أن أُلوث هذه اللوحة الكاملة بحزني, وألم قلبي, فاجأتني بيدها التي تمتد لمصافحة يدي, ما إختلاطات المشاعر التي أعيشها الآن؟ أأفرح؟ أم أموت؟ لا أعلم, مددت يدي والتقطت يدها الصغيرة ذات الأنامل الرقيقة, ثم مد زياد يده مصافحاً وسحبني نحوه, ضّمني وهو يُفلِت ضحكة من أنفه, ثم هتف:

"لن أدعك تذهب, ستُمضي اليوم برفقتنا "

-"وسيم: لا يا عمي, لن أستطيع, طرأ لي أمراً عاجلاً, يجب أن أذهب الآن"

-"زياد: لن تذهب إلى مكان, ثم لا تقلق لن يحصل ما تُفكر به, أرح دماغك يا رجل"

-"بتونيا: ما الّذي لن يحدث يا أبي؟"

-"زياد: كلام كبار يا فتاة, لا تتدخلي, هيا اذهبي واشتري لنا شيئاً نتناوله, معِدَتي تئن من الصباح, هيا يا وسيم رافقها"

والله إني تائه, لا أعلم بما سأفكر؟ وبما أجيب؟

-"بتونيا: أأنت مُتأكد يا أبي؟ "

-"زياد: أُريد أن أجلس مع زوجتي بمفردنا, هل تسمحين لنا؟"

وبلحظةٍ مفاجئة قَبَضَت على معصمي, وقالت :

"هيا إذن, ستأكلون على ذوقي اليوم"

شدتني من يدي لأقترب إلى جانبها؛ وكأني طفل ضائع عاد إلى والدته بعد ساعةٍ من البحث عنه, لله مشاعري وما أنا عليه الآن, أكاد أموت من دهشتي, قلبي يرفرف يا رفاق, حتى أنني نسيت الخَطَر الَّذي يقترب مني, ورحنا نركض بالساحةِ: كمجانين دون أن نتفوه بحرف, تُمسك بيدي وقلبي في ذات الوقت.

*****

أشعر وكأنني أدخل فصلاً جديداً من حياتي, فصل سعيد, بل سعيد جداً, لا أعلم من أين أتتني الجُرأة؛ لألتقط يدَ وسيم وأمشي معه, ثم اندفعت البهجة من قلبي ورحت أعدو, وأشد وسيم؛ ليُصبح بذات المستوى الَّذي أنا عليه, ورحنا نُحلِق كعصافيرٍ رأوا باب قفصهم مفتوح,

بعد سجنٍ طويل, لا نعلم ما تُخفي لنا الحياة: خائفين, مُضطربين, وفرحين جداً.

وصلنا إلى مطعم صغير بقرب مدينة الألعاب, أفلتُّ يد وسيم, ثم قلت:

"أنت ستطلب, أنا لا أعرف ماذا سأفعل؟ هذه أول مرةٍ لي"

ضحك وسيم على توتري ثم رد:

"أنتِ الآن سيدةُ نفسك, وتستطيعين أن تفعليها, أنتِ أكثر إنسانة جبانة وضعيفة عرفتها بحياتي, وحان وقت الشجاعة, حان وقت التغيير والصلابة"

ماذا يفعل هذا؟ هل يتحداني؟

-"بتونيا: سترى الآن يا بغيض من الشجاع؟ إبقى هنا"

اتجهت نحو الرجل الّذي يستلم الطلبات, وقلت:

-" لو سمحت, أريد أن أطلب الطعام"

ضحك الرجل ورد:

"ماذا تريدين بالتحديد؟"

-"بتونيا: لا أعلم, ماذا تبيعون هنا"

عاود الضحك بنزاقة؛ فشعرت بغبائي, كل هذا ووسيم يراقب عن قرب, ويبتسم ساخراً.

"تفضلي.. هذه القائمة, إختاري كما تريدين "

-"بتونيا: بيتزا, أريد بيتزا"

"الحمد لله كنّت أظُن هذا لن ينتهي"

ثم نظرت نحو وسيم بتفاخر, رحت أسير نحوه بتملق, وقلت في لهجةٍ تشوبها سُخرية:

"هل تظن الشجاعة هي فقط أن تطلب الطعام يا رفيق؟"

-"وسيم: لا تراوغي, رأيت توترك وتلعثمك بالكلام "

-"بتونيا: صحيح, أُريد أن أُخبرك بشيء"

لا أدري ماذا حدث له؟ ارتعدت أطرافه, وجفل, ثم تهالك على المقعد الذي خلفه, وأخفض رأسه دون أن ينطق.

-"بتونيا: ماذا حصل لك؟ هل أُحضر لك كوباً من الماء؟"

أجابني بتلعثم:

"لا, لا أُريد, هلّا أجلتِ الشيء الذي تُريدين إخباري به؟"

-" بتونيا: كنت سأسألك ماذا تريد أن تشرب مع الطعام؟"

تنهد بارتباك, ورد:

"مشروب غازي"

أخافني الحال الذي وصل إليه بغضون ثانيتين, ما به اليوم؟ وضعه لا يعجبني, انطلقت لأخذ الطعام, وعدت إليه بعد أقل من خمسة دقائق, تناول الأكياس مني وعدنا نسير معاً, لكن هذه المرة كان الوضع متوتراً قليلاً, كان يمشي بترنح, ولو هبت نسمة هواء؛ لكسرته. بادرت بالحديث:

" لا أُصدق الحال الذي وصل لها أبي, أشعر بأنه يعود لي بعد ستة سنين عجاف, يُمطرني بالحب, والرعاية, أبي يتغير بشكل جميل جداً, وهذه المرة مُختلفة جداً ليست كسابقاتها, أترى كيف أرسلني لأشتري الطعام؟"

-"وسيم: نعم رأيتُ ذلك, أهنئكِ من قلبي, عاد لك والدكِ مجدداً "

ثم عدت أقبض على يده؛ التي تخلو من الأكياس, بكلتا يداي,

كانت جُرأتي غريبة, هل أنا أقع فريسة أوهام أبي, بأن وسيم يُحبني وأنا أُحبه؟ لا أعلم أي شيء.

"أشكرك من كل قلبي, لولاك لما تغيرت الأوضاع, لا أعرف كيف سأرد لك هذا المعروف"

كان ينظر نحوي ببلاهة تامة, ووجهه يتحول إلى اللون القرمزي, سحب يده المُتعرقة بلطف من بين يداي, لا أدري أهي يدهُ المُتعرقة؟ أم كفاي

القابضتان عليها؟ راح قلبي يسقط بين قدميّ من فرط توتري وخجلي, وخفت أن يسمع صوت تسارع نبضات قلبي المضطربة.

"لا عليك, لم أفعل شيئاً يُذكر, أنت تستحقين الأفضل دوماً "

ثم غضَّ بصره عني وعدنا نكمل السير معاً, عند وصولنا كان والداي يتحادثان بطريقة تُفرح القلب, وضعنا الطعام على الطاولة, ورحنا نتناول بنهم, وكأننا لم نأكل منذ ولادتنا, أمضينا يوماً جميلاً, ضحكنا, تسامرنا ولعبنا, وافترقنا في التاسعة مساءً.

مر أسبوعين لا يُعقلان, كان لطيف جداً, وهادئ, كنت كأنني أتعرف على والدي من جديد, لم أكن أعلم ما ينتظرني, كم كنت أشعر بسعادةٍ تفوق أحلامي, وفي هذه المدة؛ تأكدت من حبي لوسيم, كنت أهيم به عشقاً, وأخبرت والداي بأنني لن أفسخ هذه الخطوبة, كان الفرح يفِرُ من كل أجزاء جسدي, لكن طبعاً لم أُخبر وسيم بحقيقة مشاعري نحوه, أمجنونةٌ أنا؟ لِيُفصح لي هو أولاً.

-"زياد:باتي, تعالي شاهدي ماذا أحضرت لك؟"

رحت أركض مترنحةً نحوه بفضول:

"لاااا, أبي.. شكراً, أحبك جداً, جداً "

-"حياة: لِمَ كل هذه الجلبة؟ على ماذا تصرخان؟"

-"بتونيا: أنظري يا أمي, ماذا أحضر لي والديّ؟"

-"حياة: تقصدين ماذا أحضرنا لكِ؟"

عانقت والدتي, وارتميت بين ذراعيها؛ وكأن هذه المشاعر تعتريني للمرة الأولى, كانت الهدية عبارة عن ألبوم صور, يضُّم صوري مع والداي منذ أعوامي الأولى إلى الآن, وصور خطوبتي من وسيم, أما الهدية الأخرى التي طيرَّتني فرحاً: كانت عبارةً عن دفتر يوميات مُزين, غلافه صورة لي مع والداي ووسيم, كانا قد كتبا على أول مائة صفحة, كل صفحةٍ تحتوي أمراً ما, إما نصيحة, أو آية قرآنيه كمواساة ربانية, أما بقية الدفتر: فهو لي؛ لأكتب عليه اللحظات السعيدة, وطبعاً جعلاني أُقسم على أن أقرأ كل يوم صفحة واحدة فقط.

أما الهدية الأخيرة, فكانت عبارة عن قلادة فضية على شكل صَدَفة توجد داخلها آية الكرسي, أصبحت أمتلك مجموعةً من السلاسل القيّمة: الأولى كانت زهرة المجرة, الثانية التي أهداني إياها وسيم والتي يتدلى منها اسمي, وهذه الثالثة, وضعتها أمي بعنقي وقالت لي:

"لن تخلعيها إلا عند دخول الحمام"

-"بتونيا: أمركِ يا حنونة قلبي, أطلبي عمري لأهديه لك"

-"زياد: وأنا!, ألن تعطيني شيئاً ما؟"

أحطت خصره بذراعيّ, وقلت:

"خذ ما تشاء يا أبي "

-"زياد: متملقة, والدتك تعطيها عمرك, وأنا لأختار ما أشاء"

-"بتونيا: لا يا أبي, خذ عمري, وقلبي, وكل ما أملك"

-"زياد: أُمازحكِ يا صغيرتي, أريد أن أخذ والدتك, هل تسمحين لي؟"

-"بتونيا: إلى أين من دوني؟"

-"حياة: سيُعلمني قيادة السيارة"

-"بتونيا: بعد هذا العمر ستتعلمين, الستِ كبيرة قليلاً على التعلم؟"

-"زياد: وما شأنكِ أنتِ؟ وهل العلم يقتصر على عمرٍ معين"

-"بتونيا: إذنً علمني أنا"

-"زياد: لا زلتِ صغيرة على قيادة السيارة"

-"بتونيا: وهل العلم يقتصر على عمرٍ معين؟ ثم العلم في الصغر كالنقش بالحجر"

-"زياد: ألم أقل لك أنكِ متملقة؟"

تبادلنا الضحكات ثم ذهبنا للاستعداد؛ لزيارة بيت جدتي التي دعتنا إلى طعام العشاء, بالإضافة إلى أحمد وعائلة وسيم, لهذا تم تأجيل درس القيادة للغد

*****

في الفترة الماضية فضضنا الشراكة بيننا وبين عمي, واشترينا صيدلية دخلها جيد, ولها جماهيرية كبيرة, كان صاحبها يبيع ممتلكاته مغادراً البلد, فشعرت وكأنها هديةٌ من الله لي, وحظي الذي بدأ يضحك من جديد, أما أوضاعي مع عقلة الإصبع؛ فهي على ما يرام, حتى أنها لم تلمح لي عن فكرة الطلاق, بل على العكس تماماً, زادت قرباً مني, أصبحنا نجتمع يومياً, حتى أنني أصبحت المدرس الخاص لها ولسلمى.

أما اليوم: فقد دعتنا جدة بتونيا إلى طعام العشاء, الحياة بدأت تصبح جميلة لي, امتلكت صيدلية, ووظفت بها موّظفين كفؤ؛ لأنني سأهتم بدراستي أولاً, وجميلة الجميلات ستصبح زوجتي, والأهم من هذا كله أنني خرجت من تحت سيطرة عمي.

جرس منزلنا يُقرع, من يا ترى؟هل يُعقل أن تكون بتونيا؟

نَزَلت مسرعاً لأفتح الباب, كانت خالتي العزيزة, والشريرة الحمراء ابنتها.

-"رزان: ما بك تنظر وكأنك رأيت شبحاً؟"

-"وسيم: تفضلا إلى غرفة المعيشة"

أتت أمي تُرحب بهما, ما زالت الأوضاع بيننا مضطربة, تركتهن و توجهت إلى غرفتي مستأذناً, متحججاً بالعمل والحسابات, أما سلمى فكانت تجلس في غرفتها برفقة شهد.

بدأت أعبث بمكتبتي, فوقع أمامي كتاب صاحب الظل الطويل, التقطته, و نظّفته من الغبار العالق به, ثم رششته بعطري الّذي أستخدمه, قطفت زهرة صغيرة من الزهور التي أضعها في شُرفتي, وأدخلتها بين صفحات الكتاب.

سأعطيه اليوم لبتونيا, فيما أنا مُنشغل بكتابي دخلت رزان غرفتي, كانت مُمتقعة الوجه, تضع يدها على خصرها, وتهز إحدى ساقيها بغضب.

-"وسيم: ما بك يا بلهاء؟ هل أزعجتك بشيء؟

-"رزان: متى ستُطلق بتونيا؟ ثم ما العقاب الّذي عاقبتها به؟ أتستصغر عقلي؟"

-"وسيم: لا تخافي, سأنتقم منها أشد انتقام, لا تتعجلي, ثم الإنتقام يؤكل بارداً"

-"رزان: إلى متى سأنتظر؟ لقد طال الموضوع"

-"وسيم: لا تقلقي, سينتهي قريباً"

ثم خرجت من باب الغرفة وأنا أحمل الكتاب هارباً من رزان, ومرةً أخرى صادفت شهد تهرب. ماذا تفعل هذه الفتاة؟ هل تسترق السمع إلينا؟

نزلت للأسفل متجاوزاً هذا الحدث الذي اعتبرته غير مهم.

-"وسيم: أمي, سأسبقكما إلى منزل أم زياد"

-"رنا: لن نستطيع القدوم يا ولدي, أرسل سلامي للجميع"

-"وسيم: وسلمى؟ ألن تأتي؟"

-"رنا: لا تزال في الأعلى برفقة شهد, لا تستطيع أن تتركها وتخرج"

-"وسيم: كما تريدان, إلى اللقاء إذن"

أسرعت خطاي بعد ما رأيت سيارة عمي زياد؛ شوقاً لرؤية عماد قلبي, قصبة السُكر, صافحت الجميع ورحبت بهم, ثم اتجهنا إلى مدخل المنزل, تباطأت في السير قاصداً, فعادت بتونيا لترى ما بي؟.

" ما بك يا أحمق؟ لما تمشي كالسلحفاة؟"

-"وسيم: أنا أحمق يا غبية, أنظري ماذا أحضرت لك؟"

تناولت الكتاب مني وهي تبتسم, تَصفَّحته سريعاً, أمسكت الزهرة, نظرت نحوي بتعجب, وقالت:

" وما هذه ؟! أيليق بك أن تكون عاطفي, وتضع زهوراً في الكتب؟"

-"وسيم: وهل هذا يُعيبني؟ أيجب أن يفتقر الجميع للمشاعر إمتثالاً بكِ؟ ثم إنها ليست من أجلك, وضعتها منذ مدة"

ضحكت بصوتٍ مُرتفع, وردت:

" هذا واضح جداً, وكأنها قُطِفت قبل قليل, لا تزال متماسكة وبكل حيويتها"

لم أدري بما أُجيبها؟ يال غبائي, لِمَ لمْ أفكر قبل أن ألقي كلماتي؟ ما هذا المخ التالف؟

-"وسيم: بقرة متهورة "

-"بتونيا: نصف العقل مُداراة الناس, وكل العقل مداراة السفهاء"

-"وسيم: عُقلة الإصبع, هل ستعيدينا إلى البداية؟ ثمْ ألا تحفظين سوى هذه الأقوال العدائية؟"

-"بتونيا: لا طبعاً, جربني إذا أردت "

-"وسيم: ليس الآن, هيا إلى الداخل قبل أن يوبخنا والدك"

كان الطعام متنوع والأطباق كثيرة, لم أدري مما سأتناول, أما الحضور فكانوا ضاحكين مستبشرين, ولا يسمع أحدنا الآخر؛ من شدة الضجيج.

أنهينا طعامنا وخرجنا نجلس في الحديقة, بدأنا نُغني ونصفق؛ وكأننا أطفال, ثم اختلطت النكات بالألغاز, والحكايات الساخرة, انتقلنا بعدها إلى قسم الحكايات القديمة التي روتها الجدة أم زياد.

بقينا نتسامر إلى وقتٍ متأخر من الليل, أول المُغادرين كان خطيب منى المتعجرف, ثم بدأت أم زياد تتألم من الجلوس الطويل على الكرسي؛ فساعداها والديّ عقلة الإصبع في الدخول إلى المنزل, أما منى: فأخذت

تلملم الأكواب, وتدخلها إلى المنزل, نهضنا أنا وباتي نرتب المكان لنساعدها.

-"وسيم: هي, عقلة الإصبع, سأخبرك شيئاً مهم "

انتبهت لي بكل جوارحها.

"رزان..."

عندما سَمِعَت اسم رزان, تشنجت أطرافها ورفعت عينيها بغضب, ثم قالت:

"لا يُهمني سماع أي شيء عنها, ولو بمقدار ذرة"

أربكتني حِدتها, كنت سأخبرها: بأنني ألهي رزان قليلاً؛ كي لا تشي بها لأمي, وتقوم القيامة, والأمر الآخر شهد, وخوفي أن تنقل حديثنا إلى باتي, وتُسيء فهمي, وفي وسط حيرتي قالت:

"هيا اذهب إلى المنزل, أصبح الجو بارداً ستصاب بالبرد "

-"وسيم: لا تريدين أن تسمعي إذن"

-"بتونيا: لا, لن أفسد مزاجي الجيد بسماع القصص عنها"

-"كما تشائين, سأذهب, تُصبحين على خير, أراك غداً"

-"بتونيا: انتظر, سأخبرك أنا شيئاً "

-"وسيم: وهل أنا أريد أن أستمع؟"

-"بتونيا: لا تتساخف أرجوك, صباح اليوم أديت صلاة الفجر مرتين "

-"وسيم: لماذا؟ هل فقدتِ الذاكرة؟"

-"بتونيا: لا يا ذكي, أديت الثانية عنك, شعرت أنك نمت ولم تصليها, ودعوت الله أن يتقبلها منّا, أريد أن أسألك هل صليتها أم لا؟"

وشعور آخر أشعر به للمرة الأولى, مسَّت كلماتها شِغاف قلبي, ماذا تفعل بي هذه الفتاة مُرهفة الحس؟ تسمرت مكاني من الصدمة.

-"بتونيا: هي, ما بك؟ ألن تجيب؟"

-"وسيم: نمت في ساعةٍ متأخرة من الليل, ولم أستطع الاستيقاظ للصلاة"

ابتسمت بانشراح وردت:

" هيا إلى المنزل, وضع العديد من التنبيهات؛ كي لا تفوتك صلاة الفجر"

غادرت وأنا أعاهد الله بيني و بين نفسي أن لا تفوتني صلاةٌ قط , وصلت منزلي توضأت وأقمت الليل, كانت هذه البداية الثابتة بحياتي, ومدخل فرحٍ جديد.

*****

استيقظنا باكراً بالرغم من تأخرنا في النوم ليلة الأمس, كان والداي يُحضِّران طعام الإفطار, وأنا أعد عصير البرتقال على عجل؛ فاليوم سأعود

إلى المدرسة, ويجب أن أبتعد عن الكسل؛ لأنهي هذا الفصل الدراسي, وابدأ بمعاناة الثانوية العامة.

-"حياة: أين ستذهبين بعد عودتك من المدرسة يا باتي؟"

-"بتونيا: إلى المنزل طبعاً, إلى أين سأذهب؟"

-"زياد: لا يا صغيرتي, اليوم ستبقي في منزل جدتك إلى المساء"

-"بتونيا: لماذا؟ أنا لا أريد"

-"زياد: سأدرب والدتك على قيادة السيارة كما تعلمين, وربما نتأخر في العودة إلى المنزل"

-"بتونيا: إذاً سأرافقكما, وفي الغد أعود إلى المدرسة"

-" حياة: ترين هذا بأحلامك, من اليوم و صاعداً لن تذهبي معنا إلى مكان, ستنتبهين لدروسك, أتفهمين؟"

-"بتونيا: حاضر يا أمي, كما تشائين "

رصَّفت الأطباق على المائدة, ثم جلست بقرب والدتي, وضربتُها بلطف على كتفها, ثم هتفت:

-" ماذا ستُعدين لنا على طعام الغداء؟"

-"زياد: أُكملي إفطارك أولاً, ثم فكري بالغداء. لن تصنع شيئاً سنُحضر الطعام معنا من الخارج"

-"بتونيا: لا يا أمي أرجوكِ, أشتهي (المنسف) كثيراً, هل تُعدينه من أجلي؟"

-"حياة: كما تُريدين يا أميرة, سأطهوه الآن وأحفظه في الثلاجة للمساء"

-"بتونيا: اصنعي الكثير منه, أريد أن آكل منه طوال هذا الأسبوع"

-"زياد: لا تخافي, لن نشاركك فيه حتى, لكن ستأكلينه كله حتى لو انفجرت باكية"

ضحكنا كثيراً, ثم همت واقفة, قبلتها وعانقتها ثم خرجت على عجل؛ لأنني تلكأت كثيراً في المنزل, رحب الجميع بي؛ وكأنني غبت عنهن لسنة, بعد انتهاء الدروس ودعنا شهد التي تُخفي عني شيئاً ما, فرنة صوتها وتلعثمها بالكلام أمامي يدلان على ذلك.

تركتها للغد, ثم أكملت السير برفقة سلمى, كنا نمشي بترنح وكأننا نحمل حجاراً على ظهورنا ليس كتبً, فجأة ملت على سلمى, وقبضت على معصمها؛ خوفاً من أن أسقط.

-"سلمى: ما بك يا بلهاء؟ كنتِ ستوقعينني"

-"بتونيا: لا أعلم, قُبض قلبي لوهلة, وأظلمت عيناي"

-"سلمى: لنجلس على الرصيف, ارتاحي قليلاً, فلقد أجهدت نفسكِ كثيراً اليوم"

-"بتونيا: لا أريد, أنا بخير, لنسرع.. أُفضل الوقوع بحضن جدتي على أن أمسح بملابسي أتربة الطريق"

-"سلمى: لا والله, لن أسمح لك بذلك, ستبقي عندي إلى أن يأتي والداك"

-"بتونيا: لا أرجوك, لا أريد أن يوبخاني, دعيني أبقى في بر الأمان"

-"سلمى: لن أنصت لكِ؟ ستأتي معي, وسأطلب من أمي أن تبلغهما, وتطلب الإذن لك."

-"بتونيا: حسناً يا صديقتي, لنذهب"

عندما وصلنا المنزل كانت الخالة رنا تعد الطعام, فانضممت لها, واستلمت مهمة تنظيف الأواني, أما سلمى: فقد توجهت إلى غرفتها؛ لتبدل ملابسها.

-"رنا: كيف أصبحتِ يا باتي؟"

-"بتونيا: الحمد لله, على أفضل حال, لا يخلو الأمر من الصداع, والدوار والقليل من الزهايمر"

ضحكت, ومسحت على رأسي بيدها, ثم قالت:

-"لا تخافي, ستزول كافة آلامك, الزمن كفيل بهذا"

-"بتونيا: خالتي, هلّا طلبتي لي الإذن من والداي ؟ فأنا لم أخبرهما بقدومي إليكم, لم أشأ أن أكسر بخاطر سلمى"

-"رنا: لا عليكِ, سأخبرهما الآن, اذهبي واخلعي عنك الزي المدرسي "

ثم تناولت هاتفها تطلب والدتي فلم تستطع الوصول لها, وكذلك والدي ربما لا يوجد شبكة حيث يجلسون, نهضت وبدلت ملابسي, وأخذت ملابس نظيفة من خزانة سلمى, ثم توضأت لأصلي الظهر.

بعد قرابة الساعة أتى شرشبيل, كنا نجلس في غرفة المعيشة, والخالة رنا بعد أن قطعت الأمل بإجابة والداي, أرسلت رسالة نصية لعمتي منى؛ لإخبارها بوجودي عندها.

-"وسيم: السلام عليكم, أوه.. عقلة الإصبع في منزلنا, يا مرحباً يا مرحباً"

ابتسمت بحب ثم رددت السلام عليه بصوتٍ منخفض, اقترب منا وجلس أمامي, ثم قال يخاطبني:

-"لم أرى مركبة والدكِ في الخارج, أجئتِ لوحدك ؟"

-"بتونيا: نعم, أتيت برفقة سلمى, ووالداي في الخارج "

-"وسيم: أيعلمان بوجودك هنا ؟"

-"سلمى: لا يجيبان على الهاتف"

-"وسيم: يا حبيبي, الآن احترقنا, هيا اذهبي لمنزل جدتك قبل أن يصلا"

-"سلمى: أمجنونٌ أنت؟ كيف تطردها من المنزل؟"

-"وسيم: طرد ماذا؟ فقط الحذر واجب "

-"بتونيا: معه حق يا سلمى, سأرتدي ملابسي وأذهب إلى جدتي, إذا أردتِ تعالي معي"

-"رنا: لن تتحركي قبل تناول الطعام"

-"بتونيا: لا أستطيع يا خالة, فقد طلبت من أمي أن تُحضِّر الطعام من أجلي, وسيدفنني أبي إذا لم أتناوله كله"

ضحكت قائلة:

"لُقمةٌ واحدة لن تُشعرك بالشبع"

بقيت مصرةً على موقفي, ولم أتناول سوى لقمة؛ كي لا أرد جهود الخالة رنا في إقناعي, وهممت أرتدي ملابسي, وفي هذه الأثناء انتبهت لهاتفي, كان والداي قد اتصلا عدة مرات, نزلت الدرج مسرعةً.

-"سلمى: تمهلي ما بك؟ ستسقطين"

-"بتونيا: هناك العديد من الاتصالات الفائتة من والداي, يجب أن أخرج قبل وصولهما"

-"وسيم: هيا أسرعي إذاً"

وقبل أن أرتدي حذائي انهالت الطرقات الشديدة على باب المنزل, ارتعدت أطرافي, وفقدت اتزاني, ثم استندت إلى الحائط وركض وسيم ليفتح الباب: كان الطارق أحمد.

-"وسيم: ما بك؟ ما هذا الذعر؟"

-"احمد: أين بتونيا؟"

-"وسيم: ماذا تريد منها؟ ماذا حصل؟"

-"احمد: زياد وحياة فارقا الحياة في حادثٍ أليم قبل ساعة"

-"بتونيا: لااااا ,لاااا, والداي! مستحيل ,لا أصدق "

وفقدت الوعي.

*****

لا أعلم ماذا أُخبركم, فقد وقع الخبر علينا كالصاعقة, حين أخبرنا أحمد بالخبر؛ خرَّت باتي على الأرض غائبةً عن الوعي, ازدردت ريقي بفزع, هرعت إليها والتقطتها رافعاً رأسها فوق رُكبتي, ثم هتفت باسمها مراراً وتكراراً, انفلتت مني الدموع تقطر على وجهها, أتت والدتي بالماء وبدأت تضعه على يدها, وتمسح وجه صغيرتي, نظرت نحو سلمى التي تصلبت على الكرسي تذرف الدموع دون أن تُصدر صوتاً, ثم قلت:

"سلمى, هلّا أتيتِ إلى جانب بتونيا؟ سأذهب إلى منزل أم زياد"

ثم رفعت بتونيا عن الأرض, وصعدت بها إلى غرفتي, أنزلتها برفق وأخذت أعدو؛ لأرى ما الأمر, عندما وصلت منزل أم زياد: كان البيت ممتلئ بالنساء اللواتي يحاولن تهدئة الوضع.

منى كان حالها يُدمي القلب: كانت تنوح, وتصرخ بالرغم من المحاولات الجبارة في تهدئتها, أما الجدة بتونيا, فكانت تذرف الدموع دمعةً تجر الأخرى, وتتمتم:

"لا حول ولا قوة إلا بالله, لقد ذهب أولادي "

اتجهت نحوها وأمسكت يديها المرتجفتين؛ أهدئ من روعها:

"رحمهم الله يا جدة, أرجوكِ اصبري, وادعي أن يثبتهما الله عند السؤال"

-"أم زياد: لقد سبقوني يا وسيم, لم أعتقد بحياتي أنني سأعيش هذا الألم"

قبّلت رأسها, وقلت مواسياً:

"لله ما أخذ وله ما أعطى, كل شيءٍ عنده بأجلٍ مسمى, أرجوكِ تماسكي "

-"أم زياد: آهٍ يا أولادي. لا حول ولا قوة إلا بالله"

-"وسيم: سأذهب لأطمئن على باتي وأعود"

-"أم زياد: بتونيا صغيرتي الثكلى, هل هي بخير؟ "

-"وسيم: فاقدة للوعي, سأذهب لأُحضرها"

-"أم زياد: آه يا صغيرتي, أصبحتِ بلا أم ولا أب دون سابق إنذار"

لا أخفي عليكم كان الحاصل أكبر مني, قلبي لم يحتمل هذا الخبر الأليم؛ فهما أصبحا من أفراد عائلتي, لوهلةٍ شعرت بأنني حصلتُ على أبٍ مجدداً, حتى أن بتونيا نفسها لم تكتفي منه, ها هي تفقد والديها مجدداً, آه يا عقلة الإصبع, لا أعلم كيف سأواسيكِ؟ وأنا أحتاج لمن يواسيني.

كان صوت نحيبها يُصدع الجدران, اقشعر جسدي عندما سمعته, ولجت من الباب هرعاً, كانت ترتمي بأحضان والدتي تبكي بحرقة, وأمي, وسلمى يبكيان حالها, ركضتُ نحوها وعندما رأتني دفنت رأسها في صدري, وراح يرتفع نشيجها, كانت في حالةٍ يرثى لها, كنت أُحيطها بذراعي وأبكي دون أن أنبس بحرف, تركت لها حُرية التعبير عن ألمها.

" وسيم, هل حقاً مات والداي؟ ألن أراهما مرةً أُخرى؟ كيف سأُكمل حياتي الآن؟ أريد أمي وأبي, أرجوك خذني إليهما, ربما يستيقظان عند سماع صوتي, أرجوك."

التقطت وجهها بين كفاي ماسحاً دموعها بأصابعي, وأجبت:

"تمالكي نفسك يا عزيزتي أرجوكِ, لنذهب أولاً إلى منزل جدتك, ثم نقرر ماذا نفعل"

-"بتونيا: دعني, لا أُريد أن أرى أحد, سأذهب بمفردي"

رمت بيديّ عن وجهها, ثم انتفضت كقطٍ يدافع عن صغاره, سارت على عجل وهي تُسوي غطاء رأسها, ومقلتاها تفيض بالدمع.

-"رنا : أرجوك يا بني الحق بها, لا تتركها لوحدها, ونحن سنذهب لمنزل أم زياد الآن "

ركضت خلفها ثم أمسكت بمعصمها صارخاً:

" كما تريدين, دعيني أتصل بأحمد لأسأله عن المستشفى الذي يقبعان فيه"

قُدت السيارة بسرعةٍ قاصداً المشفى الذي أخبرني أحمد عنه, وطلبت منه إحضار منى, وأم زياد؛ لأنني لا أستطيع السيطرة على باتي وهي على هذه الحال.

عندما وصلنا المستشفى أسرعت باتي إلى إحدى الموظفات, تسألها عن والديها: فاصطحبتنا إلى ثلاجة الموتى, عند دخولنا إلى هذا القسم تذكرت والدي, وكيف رأيته بمثل هذه الواقعة سابقاً, أسندت ظهري إلى الباب و قلبي يتمزق, لا أعلم على من أبكي, أشعر أن الإنسان يحتاج إلى والديه ليساندوه في مثل هذه المواقف الصعبة, ويواسوه على فراقه لهم, ثم تغلبت على خوفي, ورافقت بتونيا إلى الداخل.

*****

قلبي يؤلمني يا رفاق؛ فاليوم فقدت والداي الاثنين دفعةً واحدة, أيُعقل أن يعيش المرء شعوراً كهذا؟ أيا ليتني رافقتكما, تركتماني وحيدة, أمي حبيبتي من سيوقظني صباحاً؟ من سيُحضِّر لي الشاي وأنا أدرس؟ من سيمسح على رأسي حين أحزن ويُذكرني بمواعيد الصلاة؟

أبي, كيف تذهب قبل أن أشبع منك؟ كيف تترُكني بلا سند؟ أرجوك, حتى لو قتلتني لن أبالي, يكفي أن تعودا لي.

دخلت إلى ثلاجة الموتى أنتظر الموظفة أن تريني إياهم, لا أذاقكم الله شعوري, احترت إلى من أنظر؟ وعلى من أبكي؟ لم تطاوعني يداي أن أرفع الغطاء عن وجوههم, لا أريد أن أراهم على غير هيأتهم صباحاً.

اقترب مني وسيم واضعاً ذراعه على كتفي مواسياً, حاله لم يكن أقل من حالي: عيناه متجمرتين, ووجهه شاحب, وعلى خده الأيمن تقبع دمعةٌ مُعلقةٌ, بعد خمس دقائق أتت جدتي وعمتي, ركضت نحوهما, واندثرت في حُضن جدتي باكية, مستنجدة بها؛ علها تعيدهما لي.

"جدتي يقولون أن والداي قد فارقا الحياة, لا أريد أن أصدقهم, أرجوكِ قولي شيئاً, أسكتيهم"

-"أم زياد: وحِدي الله يا صغيرتي, رحمهم الله"

وآهٍ.. ماذا أفعل؟ لقد تركا بداخلي نَدبةً لا تُمحى, تشجعت عمتي وكشفت عن وجهيهما, واختلطت أصوات البكاء. عندما لمحتهما طارت

كل آمالي, سرت في البداية نحو أمي, قبلت وجهها المُزرق, وانكبت كل دموع الأرض فوقها:

"لا تتركيني يا مهجة الفؤاد, كيف سأقف على قدماي؟ كيف سأعيش ما تبقى من عمري بدونكما؟ من سيُربي أولادي ويمسح على رؤوسهم؟ من سيُرقيهم؟ "

عندما رآني وسيم على هذه الحال أبعدني عن والدتي, ومسح الدموع المتناثرة على وجنتاي, ثم قال وهو يبكي راجياً:

"يكفي هذا, يجب أن نخرج, لن يسمحوا لنا بالبقاء أكثر, هيا عزيزتي"

أقصيته عني بيديّ وركضت نحو والدي, أبعدت عمتي والتقطت وجهه بكلتا يداي, وعانقته وأنا أنوح:

"أبي, ألن تذهب معي إلى المنزل؟ وعدتني بأشياء كثيرة, لم أشبع من حنانك بعد, أبي.. أتسمعني؟ أرجوك انهض, هل تشعر بالبرد؟ المكان هنا بارد جداً, أبي لِمَ لمْ تدعني أذهب معكما؟ لمن تركتني؟ أرجوك استيقظ"

أُثيرت أعصابي كثيراً خاصةً عندما فَقَدت جدتي الوعي, أصبحت أصرخ وأضرب عمتي تارةً, ووسيم تارةً أخرى, أخذوني إلى إحدى غُرف المشفى التي تشاركت أنا وجدتي بها, ثم رحت أغط في النوم بعد الحُقنة التي حُقنت بها.

*****

في المساء وصل مراد خال بتونيا و زوجته, وَدَع شقيقته للمرةِ الأخيرة, وبعد النقاش قرر دفنها ظهر الغد, أما هذه الليلة فسأبقى برفقة زهور المجرة الكبيرة والصغيرة, ومنى ستبقى في منزلنا, أما خال بتونيا فقد أرسلناه لمنزل أم زياد.

كان اليوم عصيباً, مُرهِقاً, لا أعلم كيف سأصفه؟ وكيف سأتصرف؟ نضرت نحو صغيرتي التي تنام كطفلٍ أرهقه اللعب: جفونها منتفخة, وأنفها أصبح قرمزياً من شدة بُكاءها, وفمها يتدلى للأسفل بأسى, بقيت أُحدق بها حتى غلبني النعاس على مقعدي, ولم أعد أشعر بما حولي, لا أعلم كم من الوقت غفوت؟

استيقظت على صوت إحدى الممرضات الهلعات:

" لو سمحت يا أخي, انهض أرجوك"

رفعت رأسي فوراً. وتنبهت إلى وجودها:

"خير إن شاء الله, ماذا يحدث؟"

"أتيت لأطمئن على المريضتان, فلم أجد الصبية التي تنام هنا"

وأشارت بيدها إلى السرير الذي كانت تستقر عليه باتي, انتفضت واقفاً:

" هل بحثت في دورة المياه؟"

" لم أجدها, ولا حتى في القسم كله"

أيقنت حينها أنها قد ذهبت إلى والديها, وأسرعت خطاي, صرت أركض باحثاً عن القسم الذي كنا فيه قبل سويعات, وضللت طريقي عدة مرات, كنت مرتبكاً وخائفاً, كيف تفعل هذا؟ من أين أتت بهذه الجرأة؟ لتذهب إلى ثلاجة الموتى؟

عندما وصلت القسم منعني المسؤول من الدخول؛ فالوقت متأخر, فأخبرته: أنني أبحث عن خطيبتي, لم يصدقني وقال:

"لم يدخل أحد إلى هنا, كيف ستنسل من أمامي دون أن أراها؟"

عندما رجوته كثيراً, رق لحالي:

"تفضل لنرى "

وجدناها تجلس على الأرض بين الجرارين الذي يتمدد فيهما والديها, وقد غلبها النوم من فرط تعبها, أمسكت إحدى يديها الباردتين, ثم هززتها بلطف حتى جَفِلت, ويُهيأ لي أنني سمعت صوت ضربات قلبها الخائفة:

"كيف تجرؤين على فعل هذا يا باتي؟ هيا أرجوك لنعد إلى الغرفة"

-"بتونيا: لن أذهب إلى مكان, سأبقى معهما هنا."

-"وسيم: أرجوكِ لقد انفطر قلبي لحالك, لنذهب الآن ونعود غداً عندما يحل الصباح."

-"بتونيا: في الصباح سأفقدهما إلى الأبد, كيف سأعانقهما وهما تحت التراب؟ دعني وشأني, لن آتي معك"

-"وسيم: كيف ستمضين الليل هنا؟ ستصابين بالجنون, لا تفعلي هذا من فضلك, هيا لا تكسري بخاطري, ثم أعدك عند طلوع الفجر سنأتي إليهما"

أومأت برأسها مُذعنةً لرجائي, مُكرهةً. أمسكت بيدها وحثثتها على السير معي, كانت تسير بخطوات متثاقلة, وتنظر إلى الخلف تبكي بألم, من كان يصدق أن هذا سيحصل؟

استلقت على السرير, كانت الجدة أم زياد تئن وتهذي وهي نائمة, استدارت بتونيا وأولتني ظهرها, عدت أُراقب انخفاض جسدها المرتجف وارتفاعه, كم هي منهكة؟ حتى ظننت أنها نامت من الدقيقة الأولى, ثم سمعت بُكاءها الذي تكتمه بصدرها, و شهقاتها المكبوتة, تناولت هاتفي ووضعت سورة البقرة, لم تكن المدة طويلة, فقد سكنت ونامت بغضون دقائق.

أما أنا فلم يغمض لي جفن, رحت أذرع الغرفة يميناً يساراً؛ كبندول الساعة, أبحث عن حلول, وأفكر بيوم الغد, ثم ذهبت وتوضأت؛ لأقيم الليل, كان جُلُّ دعائي: أن يُسكِّن الله قلوب أهليهما, وخاصةً ضِماد قلبي المُهترئ, مهجة الفؤاد المنطفئة, بقيت هكذا إلى أذان الفجر, ثم أيقظتها هي والجدة أم زياد؛ لتأدية الصلاة.

صلينا جماعة ثم اصطحبت بتونيا كما وعدتها إلى والديها, والجدة أم زياد عاودت سريرها, وتناولت كتاب الله الذي استعرته أنا من إحدى الموظفات, وبدأت تتلو بصوتٍ رقيق تشوبه مرارة.

عند وصولنا إلى الثلاجة, لم نرى أحداً, فدخلنا مُسرِعَين خوفاً من أن يُمسِك أحدهم بنا, سَحَبَتْ الجرار الأول الذي ينام والدها فيه, فنظرت نحوي واهتز صوتها قائلة:

-"هيا أسرع إسحب خاصة أمي ستختنق "

هل تنوين عصر فؤادي يا باتي؟ امتثلت لأمرها وسحبته, اِقتَرَبَت وكشفت الغطاء عن وجهها, ثم وضعت باطن كفها الأيمن على رأس والدها, وباطن كفها الأيسر على رأس والدتها, وبدأت تتمتم آيات الله, ثم قالت:

"اللهم رب الناس, أذهب البأس, اشف وأنت الشافي, لا شفاء إلا شفاؤك, شفاءً لا يغادر سقما"

أمسكت ذراعها بلطف وقلت:

"هل نمشي بحديقة المشفى قليلاً؟"

ردت والدموع تُعاود تجمعها في مقلتيها المتجمرتان:

"لا أريد أن أتركهما, هذا اليوم الأخير لي برفقتهما, أريد أن أُشبع ناظريّ منهما"

-"وسيم: هيا بتونيا, سنعود لا تقلقي"

رافقتني إلى الحديقة, كان الجو بارداً, والأرض مبلولة, ورائحة التراب الممتزجة بالماء شهية جداً. راحت تستنشق هواء الفجر النقي, تتنفس بعمقٍ شديد, ثم تصدر زفيراً من فمها, ويتناثر الكثير من البخار ويولي هارباً.

نظرت إلى وجهها الباهت, ومسحت بيدي على رأسها الذي يلتف حوله غطاء الرأس بإحكام, ثم مسحت العبرات التي لا زالت تنهمر بطريقةٍ قاسيةٍ جداً, ألم ينفذ خزان عيناكِ يا جميلتي؟ أيُعقل أن يصبح الإنسان بديعاً إلى هذا الحد عند البكاء؟ استجمعت قواي وقلت:

"أتعلمين يا باتي أن الله عز وجل يريد أن يرفع درجاتك؟ هذا المصاب الذي أصابنا إبتلاء منه, ابتلاك بأحب ما تملكين, والله إذا أحب عبداً ابتلاه, فكيف بمثل هذا الابتلاء؟ سنموت جميعاً يا باتي, وإن شاء الله سنجتمع بهما في جنانه"

-"بتونيا: يبدو أن هذا الابتلاء سيفقدني السعادة؟ كيف سأكمل بدونهما طريقي؟, أتعلم؟ أشعر أنني أبكي على نفسي لا عليهما, فهما سيذهبان لجوار الرحيم, لن يكون أحن مني عليهما, لكنني أشتاق إليهما من الآن,

ماذا سأفعل بعد أسبوع, بعد سنة, بعد عشر سنوات؟ إلى من سألتجئ عند تعبي؟ من سيعتني بي في مرضي؟"

-"وسيم: لا تخافي, سأبقى بجانبك, لن أتركك حتى لو أردت ذلك, وحتى لو فرّقتنا الحياة, سأبقى معك بروحي "

قالت وهي تكفكف دموعها:

-" ما هذا الكلام؟ لن أتحمل فقدانك أيضاً, أرجوكم يكفيني فراق والداي الذي سيؤلمني إلى أخر عمري"

-" وسيم: لا تخافي, ها أنا بجانبك, وسنموت سوياً أيضاً مثل والديكِ "

-"بتونيا: وسيم, أخاف أن يأخذني خالي معه, لا أريد أن أترك بيتي, ووالداي"

-"وسيم: لا عليك, ستبقين عند جدتك, سمعت حديثه مع زوجته التي لم تسمح له باصطحابك إلى بيتهما"

-"بتونيا: الحمد لله"

كان البرد قد نال منا ما نال, فقد تجمدت أطرافنا, وتصلبت الدماء في شرايننا. الساعة الآن تشير إلى السابعة, كيف لم نشعر بالوقت و نحن نمشي بهذا الطقس المتجمد؟

عدنا أدراجنا فصادفنا موظف آخر غير الذي كان يمنعنا من الدخول, سمح لنا على أن لا نطيل, هذه المرة لم تقترب منهما, وكأنها أيقنت الآن

أنهما قد فارقا الحياة, اكتفت بالجلوس على الأرض وذرف الدموع, فجلست بقربها أحيطها بذراعيّ, هذه المرة تلوت أنا عليها ما تيسر من الذكر الحكيم .

اصطحبتها عائدين إلى غرفة الجدة, فوجدنا منى وأحمد يُجالسانها, والأم تحتضن ابنتها وتندبان زياد, انضمت باتي إليهما وشاركت منى حُضن جدتها, رحنا نحن لنُكمل بعض الأوراق التي تخصُّ المستشفى.

بعد ساعة عدنا إلى المنزل مستعدين لفتح بيت العزاء, تركت بتونيا في أمانة والدتي ورحنا لننهي أخر الخطوات قبيل دفنهما, قبل صلاة الظهر أحضرنا الجُثتين؛ ليودعهما أهل المنزل الوداع الأخير, حيث انفجر المنزل من صوت النساء الباكيات.

*****

الصدمة كبيرة, لم أستطع أن أخرج منها, بالرغم من كل المواسين, وداع جدتي لوالديّ أدمى قلبي, كانت تبكي والدتي وكأنها أمها, وأنا أُراقب عن قرب دون أن أتحرك, نادتني جدتي قائلةً بصوتٍ جياش:

-" هيا يا ابنتي, ودعي والديكِ, سيأخذونهما الآن, هيا يا صغيرتي"

تقدمت نحوهما أجر قدماي من فرط تعبي, وضيق قلبي, جلست بينهما وأحطت كلاهما بيديّ, و أخفضت رأسي إلى الأرض, صرت أصرخ وأنوح:

"لا يا أمي, لا تذهبي يا حبيبة عمري, يا حنونتي, أبي ما زلت صغيراً على الموت, لا تتركني لو سمحت"

زدت في صراخي حتى فقدت الوعي, عندما أفقت وجدت نفسي على سرير عمتي, أزحت الغطاء عني وقفزت, كان صوت تلاوة القرآن يملئ المنزل, نظرت إلى ساعتي كانت تشير إلى الثالثة عصراً, توسدت الأرض أنحب من جديد, ذهبا بدوني هذه المرة, ذهبا حقاً.

أتت سلمى تركض, عانقتني وصرنا نبكي سوياً, ثم نهضت وارتديت عباءتي وحجابي, ونزلت إلى الأسفل, هممت بالخروج من الباب لولا صراخ عمتي:

"إلى إين ؟ "

-" سأذهب إلى والداي"

-"منى: بتونيا ارجعي إلى الداخل, لا تفضحينا إمام هذه الجموع من الناس"

تجاهلت كلامها وهممت خارجة, سرت على عجل, ترافقني سلمى, لا إعلم كيف لمحنا وسيم ؟ أتى مسرعاً الخطى نحونا.

-"وسيم: ماذا تفعلن هنا ؟ بتونيا, إلى أين ؟"

-"بتونيا: لا تتدخل, لا أريد لأحد التدخل بي "

أكملت السير موليةً ظهري له.

-"وسيم: على الأقل انتظري؛ لأحضر سيارتي, لن أدعكما تذهبان لوحدكما"

عندما وصلنا المقبرة أرهبني المنظر, هذه المرة الأولى التي أدخلها, أخذت أُجيل نظري في المكان بحثاً عنهما, فوقفت حائرةً أنظر نحو وسيم الذي فهم مقصدي وسار أمامنا, ثم توقف مشيراً بيده إلى مكانهما, نظرت نحوهما مطولاً, كان الألم يعتصر روحي التي يقبع جزأين منها في التراب الآن, انحنيت جالسةً على ركبتاي بينهما مرةً أخرى, أنظر يميناً ويساراً, ثم إلى الأعلى لألتقط أنفاسي المتعبة, كانت يداي تنغمران في ذرات التراب, ثم قبضت على حفنتين من تراب قبريهما بشدة, ومرغت وجهي بهما, أسرعت سلمى نحوي تنفض وجهي, وتحاول رفعي عن الأرض, وأنا أتمسك بشدة في أرضي وكأني شجرةُ زيتون عتيقة يصعب قلعها, روحي قد شاخت دون أن أشعر, ومن غير إرادةً مني.

أقبل وسيم نحوي, رفعني من أرضي وكأنني نبتة صغيرة بدون جذور, جذوري بقيت في أرض المقبرة, وأنا الآن سأعيش بدون جذور, هل يعقل هذا؟ كم سأحتمل دون جذوري؟ نظرت نحو والداي مرةً أخيرة قبل أن يجراني وسيم وسلمى إلى الخارج, وهتفت:

"سأعود لا تقلقا, اعتنيا بنفسيكما, سأصبح كما تُريدان, وسأبقى أزوركما, لا أدري بأي وجهٍ سأقول لكما: لا تنسياني من الدعاء؛ لأنني أعلم أنكما ستبقيان بجانبي, وستدعون لي حتى بعد موتكما, أرجوكما أكثرا من

زيارتي في الأحلام, لا تُطيلا فراقي, فأنا لن أحتمل وحدتي بدونكما, أحبكما كثيراً, أحبكما كثيراً..."

سمعت صوت شهقات سلمى المكتومة, حتى وسيم اغرورقت عيناه بالدموع, عندما صعدنا إلى العربة, استأذن قليلاً, ثم دخل المقبرة مرةً أخرى, أعلم أن له عزيزاً هنا, ربما بكائي وحرقتي على والداي ذكراه بشخصٍ تركه هنا منذ زمن.

-"سلمى: سنبقى بجانبك تعلمين هذا, أنا صديقتك, وأختك وعضيدتك بإذن الله"

-"بتونيا: أعلم يا صديقتي, أعلم"

رميت برأسي على كتفها, ثم عدنا إلى المنزل الّذي يفيض بالحزن, لم أحتمل هذا الكم الهائل من السواد, ورحت أختبئ بالغرفة التي ستصبح غرفتي الجديدة.

بعد صلاة المغرب, أقبلت الخالة رنا تحمل صينية الطعام, لكنني لم أقبل, لا أشتهي شيئاً, أريد أن أموت, وألحق بهما, لا أريد حياةً خالية من حياة الحنونة, وزياد الحبيب, عندما باءت محاولات الجميع بالفشل, أرسلوا وسيم؛ لإقناعي, لكنني مصممة, لا أريد.

-"وسيم: لما تفعلين هذا يا باتي؟ هذا قدر الله, ألا تؤمنين بالقدر؟"

-"بتونيا: الحمد لله دائماً وأبداً, لكنني لا أشتهي الطعام, أرجوك افهمني"

-"وسيم: من الأمس لم تأكلي شيء, هذا لا يجوز"

-"بتونيا: دعوني وشأني من فضلكم, أريد أن أنام"

خرج الجميع وعدت أسبح بدموع الليلة الأولى لوالديّ في القبر, يا رب ثبتهما عند السؤال, يا رب أدخلهما جنتك.

*****

انفضَّ الناس إلى بيوتهم, إلا بعض الأقارب, صعدت إلى بتونيا؛ لأتفقد حالها, طرقت الباب ثلاث مرات فلم تجب, ثم فتحت الباب, كانت تئن وترتجف, وتلف نفسها بغطاءٍ ثقيل.

-"بتونيا هل أنتِ بخير؟"

لم تجبني وبقيت تئن وتهذي, وضعت باطن يدي على جبينها أتحسس حرارتها؛ فهُيأ لي أنني لُسِعت, إنها تحترق, حاولت رفع الغطاء عنها فلم تدعني, رحت أصيح لأمي ومنى, فهرع الجميع فزعين, ثم حاولت النسوة إقناعها بالذهاب إلى المشفى, فلم تشأ, ذهبت إلى الصيدلية مسرعاً, وتناولت خافض حرارة ومسكناً, ثم عدت.

-"أم زياد: يجب أن تأكلي و لو قليلاً قبل أن تشربي الدواء"

-" بتونيا: لا أريد دواء, أريد والداي "

وعادت تهذي مجدداً. بأمها وأبيها.

-"رنا: انهضي عزيزتي, لقد حضرت لك الحساء, سيجعلك تتحسنين, سيفيدك كثيراً, هيا يا صغيرتي"

بقيت تئن:

"لا أريد, أريد أبي وأمي, أريد أن أموت"

-"وسيم: اتركوها وشأنها, لا تصروا عليها"

ثم خرج الجميع وبقيت أنا والجدة بتونيا, أشربناها الدواء, ثم وضعنا لها كمّادات من الماء البارد, طلبتُ من الجدة النوم على السرير المجاور لسرير بتونيا بعد أن رأيت التعب يكتسي ملامحها الذابلة, فلم تُجادلني, وانصاعت مسرعةً, وبقيت أنا أقبع على الكرسي, وأُبدل الكمادات بأخرى مبللة سرعان ما يتبخر مائها البارد, بعد أن يلمس جبين باتي, ها هي الليلة الثانية التي تمر دون أن أنام, بقيت أُقاوم حتى نال مني التعب بعد صلاة الفجر, فقد أيقظت الجدة للصلاة, ونمت أنا مكانها؛ لتستلم الدور بالمناوبة, ورحت أغط بنومٍ عميق, استيقظت في التاسعة صباحاً على صوتي سلمى وشهد اللتان تقبعان على السرير بقرب باتي, تنحنحت جالساً.

-"سلمى: صباح الخير يا أخي"

-" صباح الخير, كيف أصبحت بتونيا؟"

-"شهد: الحمد لله, انخفضت حرارتها "

الحمد لله, خرجت وتركتهن إلى جانبها, كانت لا تزال نائمة, ذهبت إلى منزلنا؛ لأستحم وأبدل ثيابي, ثم تناولت طعام الإفطار مع والدتي, ترافقنا بعدها إلى منزل جيراننا, بدأ الناس يتجمعون مجدداً, وعند موعد الغداء انسللت من بينهم؛ لأطمئن على قصبة السكر المرة.

طرقت الباب ففتحت لي سلمى. كانت بتونيا قد استيقظت من نومها, واستحمت, بعد أن انخفضت حرارتها, إلا أنها لا زالت تعارض تناول الطعام, أمرت سلمى بالخروج دون أن أنطق بحرف, فقط بإشارة من عيناي.

-"وسيم: ما رأيكِ؟"

-"بتونيا: بماذا؟"

-"هل نذهب إلى منزلك لتتناولي من الطعام الّذي حضرته الخالة حياة لك؟

قفزت بسرعة عن سريرها, وارتدت معطفها, ووضعت حجابها دون أن تجيب.

-"بتونيا: أنا جاهزة, هيا بنا"

-"وسيم: لكن قبل أن نذهب, لن نطيل, ستأكلين الطعام ثم سنعود"

-"بتونيا: كما تريد, لكن أريد أن أُحضر ملابسي, وكتبي "

انطلقنا إلى منزلها دون أن نخبر أحد.

*****

كانت القشعريرة تسري بجسدي, الجو بارد وماطر, وقلبي يرتجف كيديّ كيف سأدخل لمنزلي الآن دون أن أرى أمي مرحبةً بي؟ ووالدي متمدد على الأريكة يشاهد التلفاز, ماذا سأفعل الآن؟

وقفت أمام باب المنزل متصلبة, أسند يدي على يد وسيم.

"وسيم: ستكونين قوية كما اتفقنا, هيا سأفتح الباب الآن"

دخلت منزلي الحزين, كانت الأنوار مطفئة, أشعل وسيم الضوء, فركضت إلى غرفة المعيشة باحثةً عن أبي فلم أجده, ثم اتجهت إلى المطبخ ولم أجد أمي, فسقطت أرضاً ورحت أصرخ:

"أبي... أمي, هيا أخرجا, لا تطيلا اللعب معي, أمي أنا جائعة وأعلم أنكما تشعران بالجوع مثلي, تعاليا أرجوكما, أبي, لن أستطيع تناول هذا الطعام لوحدي, هيا شاركني به, أتوسل إليك, ها أنا أنفجر باكية, لكنني سأتناول الطعام, سآكله كله؛ فهو آخر ما صنعته أمي لي"

وكأنني كنت أشعر بذهابها؛ لهذا طلبت أن تطبخ لي الكثير من طبقي المفضل.

جلس وسيم على المقعد ينظر نحوي بحسرة, تركني أصرخ كما أشاء, وأبكي كما يحلو لي دون أن ينطق بكلمة, فقط عيناه الخضراء التي كانت تستجيب لصراخي؛ فكلما صرخت انهمرت.

بقيت هكذا نصف ساعة, ثم تعبت وجفت الدموع في مقلتي, نهضت بقلة حيلة, ثم اتجهت إلى الثلاجة وفتحتها, كان هناك قِدران إحداهما يحوي: الأرز, والأخر يحوي اللبن, استدرت نحو وسيم وقلت بصوتٍ مبحوح يكاد يظهر:

" أتود أن تشاركني الطعام؟"

-"وسيم: طبعاً سأشاركك, حتى أنني سأشاركك به طوال هذا الأسبوع, ما رأيك؟ سنأتي يومياً لنأكل الطعام هنا, إلى أن ينفذ"

هززت رأسي موافقةً, ووضعت القليل من الطعام بأطباق وسخنتها, لا أخفيكم كل لقمةٍ تناولتها بغصة, وكأنني أُعاقب على أنانيتي حين قلت لوالديّ أني سأتناول الطعام بمفردي.

طعام والدتي, يا له من طعام يا رفاق, هل يُعقل أن لا يهيم المرء عشقاً بطعام والدته؟ حتى كأس الماء من يديها له مذاقٌ مختلف, هذه النكهة المميزة التي نشعر بها؛ ما هي إلا روحها التي رشتها على الطعام؛ كي تستقر في أفئدتنا, وتبقى راسخة, ولو جربنا أشهى الأطعمة التي طهاها أشهر الطباخين: سيأتي علينا يوم نشتهي شايها ونحن إلى خبزها.

تولى وسيم مهمة جلي الأطباق, ودخلت أنا غرفتي ألملم ملابسي وكتبي, تناولت ألبوم الصور الذي أحضراه لي مؤخراً, وسلاسلي جمعتها في

الحقيبة وأخيراً أخذت الدفتر الذي أهداه لي والداي, فتحت أول صفحةٍ منه, كان يكتب عليها أيةٌ قرآنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

صدق الله العظيم

كان يُكتب في نهاية الصفحة:

"اكتفي اليوم بهذه الصفحة"

الجملة التي كُتبت على كل صفحات الدفتر, وتذكرت حينها أنني أقسمت على أن أقرأ صفحة واحدة يومياً, أغلقت دفتري وتنبهت لوسيم الّذي يقف قرب الباب, يراقب ردة فعلي, ويشعر باختلاجات صدري.

-"بتونيا: أنهيت عملي, لنذهب الآن "

حمل وسيم الحقيبة, وبقيت أنا أحتضن دفتري, أطفأت الأنوار, ثم تذكرت أن أخذ شيئاً من ملابس والداي من سلة الغسيل, أأسرعت إلى غرفتهما وتناولت قطعتين من الملابس, ثم عدنا إلى منزل جدتي.

أقبلت سلمى تسأل:

" أين كنت يا ابنتي؟ قلقت كثيراً عليكِ؟"

-"بتونيا: ذهبت لأُحضر ملابسي"

-"سلمى: الجدة أم زياد في المطبخ, اذهبي وأخبريها بعودتك"

اتجهت إلى المطبخ واحتضنت جدتي من الخلف, كم كنت أحب احتضان أمي هكذا.

-"أم زياد: صغيرتي, أين كنتِ؟"

"بتونيا: ذهبت لمنزلي وأخذت أشيائي, ثم تناولت الطعام, وها أنا هنا"

-"أم زياد: أي طعام؟"

-"بتونيا: ألم أخبرك أن والدتي قد طهت الكثير من (المنسف) من أجلي؟ أتعلمين سأذهب يومياً برفقة وسيم؛ لأتناول الطعام هناك, حتى تنفذ الكمية"

أغمضت عيناها لتمنع دمعها من السقوط؛ ففاضتا دون إرادتها, عادت واحتضنتني وقبّلت جبيني, ثم قالت:

"أحبك كثيراً يا حفيدتي العنيدة"

مرت أربعة أشهر على وفاة والداي كان لا يزال الحزن مسترسلاً في منزل جدتي, وفي قلبي, أنهيت اختبارات الفصل الأول و علاماتي جيدة, ولولا مساعدة وسيم وسلمى لي لما أنهيتها. أتعلمون من كابوسي الجديد؟ لن تصدقوا, إنها عمتي منى, أشعر بأنها أصبحت تغار مني, بل تكرهني: عند حديثي تسكتني, تُخجلنُي أمام وسيم, وأمام من يزورني من صديقاتي, تختلق لي الأعمال حين تراني أرتمي بحجر جدتي, وعندما أبكي

تنعَتُني بالكاذبة, ودموعي تُشبِّهُها بدموع التماسيح, لا أعلم كيف انقلب حالها هكذا, تظنُّ أنني أخذتُ مكانها في قلب جدتي, وتراني كضرةٍ لها, لم أعد أحتمل حَنَقَها الدائِم نحوي, حتى أنها تختلق الحِجَج؛ كي لا يزورنا وسيم, أشعر أن الساند لها والمحرض هو خطيبها المتعجرف, ليتني أستطيع العيش بمنزلنا لوحدي, أيا ليتني كنت فوق السن القانوني.

مرَّت هذه الأشهر عصيبةً علي, كُنت أُمضي كُلَّ ليلةٍ بالبكاء والنحيب, أُبقي عُلبةً صغيرة بقرب سريري: تحوي خواتم والداي, وساعتيهما, سلسلة والدتي, ومحفظة والدي, هذه الأشياء التي استلمناها من المشفى قُبيل تخريج والديّ, كُلُّ ليلةٍ أشم أغراضهم, وأحتضن ملابسهم, كيف تتركاني لعمتي؟

هل يا تُرى يقبل وسيم أن يتزوجني ويأخذني للعيش في منزلهم؟ يا ليت, المهم أن أتخلص من تسلط عمتي, كم أزعجته مؤخراً بشكواي, وأرهقته ببكائي, أعتقد أن الرجال لا يحتملون حُزن المرأة الطويل, و يملونها, إلا وسيم يود لو نبقى جالسان ويستمع إلى شكواي ونحيبي إلى الأبد, هذا ما قاله لي في إحدى الأيام التي هربت بها من منزل جدتي إلى منزلنا, حينها دخلت إلى غرفة والداي وحضنت وسائدهما, وبكيت بصوتٍ مرتفع, ثم سرقني النوم على سريري الدافئ.

أفقت وقتها على صوت رنين الجرس, كان يقف وسيم أمام الباب لاهثاً خائفاً, ومظطرباً. عندما فتحت الباب عانقني عناقاً طويلاً, شعرت كأن

عظامي تتفتت بين ذراعيه, ثم أفلتني وأخذ يصرخ علي: كيف أترك المنزل دون إخبار أحد؟ كنت قد هربت من عمتي التي تصرخ دائماً, وتسبني على أتفه الأسباب, وتنزعج لبكائي, أخبرني وسيم يومها قبل أن يُعيدني إلى جدتي:

"أرجوكِ أهربي إلي في المرات القادمة, أنا أحتمل صراخك وحزنك, ونفسيتك المتعبة, أحتمل كل شيء إلا فقدانك, فقط أهربي إلي, وسأنصرك دوماً وأقف أمام كل من سيؤذيك, ثِقي بي."

ومن وقتها وأنا ألتزم حُجرتي, وأختبئ عن الكل؛ لأتجنب رؤية عمتي وأستغل فرصة خروجها للعمل كي أحظى بجدتي براحة بال, وأزور منزل سلمى؛ لأجتمع بصديقاتي دون توبيخ.

أما اليوم يا رفاق, فكان القشة التي قصمت ظهر البعير.

*****

بعد مرور عدة أشهر على الحادثة الكبيرة, أصْبحتُ كأب روحي لصغيرتي باتي, شعرت بالمسؤولية تجاهها, كنت أُداريها كمن يُداري طفلاً مدللاً, وعنيد, تشاركنا معاً الدموع, والليالي الكئيبة, والصعاب التي تعيشها مع عمتها, لا أخفيكم أخاف أن تؤذي نفسها, منذ وفاة والديها وهي تردد ذات الفكرة, لولا نصائحي ودعمي أنا وعائلتي لها, وحنان جدتها التي تُسرف فيه عليها بغياب منى اللئيمة؛ للحِقَت بوالديها من الأسبوع الأول.

لم أفكر يوماً أن ملاك كمنى يمكن أن يتحول لشيطان بغمضةِ عين، أفهم تحولها جيداً، وأعي ما تصبو إليه هي وخطيبها، الذي يرنو لاغتصاب أموالٍ ليست من حقه، فما هو وعمي إلا وجهان لعملةٍ واحدة.

أنام واضعاً يدي على قلبي؛ خوفاً على صغيرتي، أصبحت أُقيم على شرفة منزلي، وأعتكف على الكرسي أراقب منزل جدتها، كنا نسهر سوياً على الهاتف، وصوت الحاسوب يصدح بالأغنيات التي أُهديها لها، والتي تسمعها من خلال نافذة غرفتها، تقيم هي على النافذة وأنا على شُرفتي.

أواسيها وتؤلِمُني، أُضحِكُها وتُمزق قلبي، مازال قلبها يتوشح بالحزن، تأبى الضحك خوفاً من الإساءة لرحيل والديها، لا أعلم ماذا أفعل من أجلها؟ أصبحت أعلم أنها تحبني، بل تأكدت من ذلك، وهي تعلم ما أُكِنُّ لها من مشاعر، لكن لم يُفصح أحدنا للآخر، لا أعلم أسبابها، أما أسبابي فواضحة، أخشى أن لا تُصدقني، أن تفكر أن مشاعري ما هي إلا شفقة لحالها، أخشى أن تصدني، تعلمون أنها من النوع العدائي الذي يتكور حول نفسه صاداً أي هجوم، أو مساعدة، أو حتى حب.

كنت جالساً على شرفتي أشرب قهوتي، وأدرس بهمةٍ ونشاط؛ أنوي التخرج هذه السنة لأزاول مهنتي، أُمورنا تحسنت، ودخل الصيدلية جيد، من الآن وصاعداً لن أدع أحدهم يسحقُني، ويستغبيني، ولن أُصبح كعمي، أخاف كثيراً من أن أتحول إلى عمي، وأخاف أن تعمي عيناي

النقود كما فعلت به ويمنى. سرقني رنين هاتفي من أفكاري المخيفة, كانت بتونيا المتصلة, أجبت سريعاً:

"ألم أُخبرك أنكِ ستطلبين مساعدتي في دروسك؟ ألا أعلم أنا صعوبة كتب الثانوية العامة؟"

باغتني صوتها الباكي قبل أن أضحك بسخرية:

"وسيم أرجوك تعال إلينا "

-"وسيم: ماذا يحدث لكِ؟ هل عمتك مرةً أُخرى؟"

-"بتونيا: لا أعلم ما الأمر؟ المحامي هنا برفقة جدتي وعمتي, لكن الوضع مُريب, جدَّتي في داخل الغرفة تنحب, وصراخ عمتي يملئ الأرجاء, عندما طرقت الباب لأسأل عما يدور؟ قالت لي عمتي:

"سنتحاسب بعد قليل"

ثم أغلقت الباب, لا أعلم ماذا يجري؟ وعلى ماذا ستُحاسبني؟ أرجوك تعال"

-"وسيم: اهدئي يا باتي, لا تبكي, ها أنا قادم الآن, لا تخافي لن يستطيع أحد أن يؤذيكِ بوجودي"

أسرعت مهرولاً حتى كدت أسقط عن السلم, هل يُعقل أن ينكشف السر الآن؟ يا رب لا تختبرها بهذه المصيبة الآن, قلبها لن يحتمل.

كانت تنتظرني في الحديقة, عندما رأتني أسرعت إلي تحتَضِنُني وتبكي ماضيها بأكمله, لم أقوى على سؤالها عما حدث.

بعد لحظات خرجت الجدَّة بتونيا تُنادي باتي برجاء أن تدخل إلى المنزل, وكلما نادتها تشبثت بي أكثر, تخلصت من تردُدي سائلاً:

"ماذا يحدث هنا, هلّا أخبرتماني؟"

-"أم زياد: لندخل إلى المنزل أولاً وسأُخبرك "

أمسكت بيدها أحثها على السير معي, لكنها تعلقت بذراعي وأبت الحِراك, ثم قالت بصوتٍ تتقطع لهُ القلوب:

"والداي.."

واسترسلت ببكاءٍ مرير, فهمت حينها أن ما أخافه قد حدث, احتضنتها ومسحت على رأسها ثم هتفت:

" أنتِ قوية وشجاعة كما اتفقنا, لن يكسرك شيء, لندخل الآن ونرى ما الموضوع؟"

جررتُها إلى المنزل بصعوبة, وبمجرد ولوجنا من الباب أخذ صوت منى يصدح:

"لا أُريدها في منزلي, لتأخذ حقيبتها وتذهب لدار رعاية الأيتام, يكفي ما أهدرنا عليها من أموال"

وقفت مصعوقاً مما تقوله, دار أيتام ماذا ؟

-"أم زياد: منى أصمتي واذهبي لغرفتك, أُريد أن أتحدث مع باتي"

-"منى: باتي .. حتى هذا الاسم ليس من حقها"

لم أستطع تمالك أعصابي, ورحت أركض نحوها وأقبض على معصمها.

" لن أسمح لك بأن تُحادثيها بهذه الطريقة, احترمي عمرك"

سَحَبَت يدها من قبضتي بتوتر وردت:

"سأسكت من أجل والدتك, وإلا كنت سأرميك في السجن"

صعدت إلى الطابق العلوي, والشرر يتطاير منها, انتبهت لحال بتونيا التي اتكأت بظهرها على باب المنزل دون حِراك, ولا حتى دموع, عدت نحوها, أمسكت بيدها وقلت:

"لنذهب إلى بيتي يا باتي, هيا لنُحضِّر حقيبتك"

لم تجبني ولا حتى بإيماءٍ بالرأس, اقتربت الجدّة منها واحتضنتها, وأخذتا بالنحيب.

-"بتونيا: لماذا ؟ ماذا فعلت لكم جميعاً ؟ لِمَ ليُخفي والداي عني مثل هذه الحقيقة ؟"

-"أم زياد: أرجوكِ يا إبنتي اهدئي, حالي ليس بأقل من حالك, و والله لا أدري ماذا أقول؟ وكيف أواسيك وأنا بحاجةٍ لمواساة؟ كُلُّ ما أعلمه أنهما تركا رسالة لك مع المحامي."

-"بتونيا: رسالة؟! هل يُخبراني هذه الحقيقة المؤلمة برسالة؟ "

سارعت بسؤالها:

"أين هي الرسالة؟"

أخَرَجتها من جيب ثوبها ومدتها نحوي, تناولتها منها وأخذت بيد باتي التي ترتجف كطيرٍ جريح بُتِر جناحيه, وأجلستها على الأريكة وانثنيت جالساً على الأرض أمام ركبتيها, ثم قلت:

" أتسمحين لي بقراءتها؟"

هزت رأسها إيجاباً والدمع ينهمر ويغمر مسامات وجهها, فتحت الورقة المطوية, وبدأت:

(بسم الله الرحمن الرحيم

ابنتنا الحبيبة باتي.. ابنة قلوبنا, حبيبة الروح, حتى لو لم تكوني من صُلبنا, أنتِ ابنتنا الغالية, الضوء الذي أنار عتمة أيامنا, نعتذر منك يا صغيرتي, لم نستطع إخبارك بحقيقةٍ كهذه, كنتِ بمثابة هديةٍ ومكافأةٍ من الله على صبرنا. كبرنا معك, فرحت قلوبنا بك, لونت حياتنا يا باتي, لا نعلم عن عائلتك سوى اسم والدتك الَّذي تأكدنا من أنه غير موجود,

وأنه مُجرد اسمٍ اختلقته الفتاة التي باعتك لنا, وهذه أيضاً عادت إلى مدينتها, وانقطعت أخبارها عنا بعد أسبوعٍ من أخذنا لك, ما أريدك أن تعلميه أنه وبالرغم من شدتي و قسوتي عليك كنت أحبك كثيراً, وأخاف عليك كثيراً, كنت أهِبُك عمري لو أردتِ, لكن خوفي من أن تنجري لجينات والديكِ كان يسيطر علي, أنا أسف كنت أتصرف معك عكس ما أشعر, لكن والله يا ابنتي لو أنجبتُ قبيلةً من حياة, لما أحببتهم كما أحببتك.

طفلتي ومدللتي, دوري الآن لأكمل الرسالة, تعلمين أنني أحبك, أنا متأكدة من ذلك, وأعلم أنكِ لن تكرهينا أبداً, لم ندري ما الّذي خطر لنا لنكتب مثل هذه الرسالة؟ ربما نخاف أن لا تسمعينا وتصدي عنا عندما نخبرك وجهاً لوجه؛ فللورق دائماً طعمٌ مُختلف, تُثمين القراءة وتفهمين, ثم تفكرين بما تشائين؟ كنا نخاف إخبارك, نخاف أن لا تسمعي سوى ما ترغبين به, ولهذا لم نكن نجرؤ على ذلك, ففضلنا الكتابة لكِ, ابنتي غاليتي بيتنا الآن ملكك, وهناك مبلغ جيد أخفيناه مع جدتك, لا نعلم كيف سنؤَمِن لكِ الحياة الرغيدة؟ لكن هذا ما نملك, اعتني بوسيم جيداً, أعلم أنك تحبينه, وهو أيضاً يُحبك أكثر من أي شيء بحياته, كونا السند لبعضكما. أرجوك لا تكرهينا, ستستلمين هذه الرسالة بعد موتي, أو موت والدكِ, لا قدرة لنا أن نرى حزنك علينا في حياتنا.

نحبك كثيراً يا باتي)

توسدت كفيها وأغمضت عينيها, واسترسلت ببكاءٍ يُدمي القلوب, ما هذا الحظ السيئ؟ هل يُعقل أن يمتلك الإنسان حظاً سيء لهذه الدرجة؟ هل تستطيع هذه الطفلة حمل كل هذه الآلام؟ ماذا سأفعل من أجلها يا الله؟

أحاطتها الجدَّة بذراعيها, وأخذت تمسح على رأسها وتواسيها:

" لا تبكي يا طفلتي, هما والداكِ, امسحي ما عرفته من رأسك, فمهما كان, هما ذهبا لخالقهما, أرجوكِ سامحيهم, أرجوكِ"

تملَّصَت من حُضنِ جدتها وهي تُكفكف دموعها صارخةً:

" أسامحهما على ماذا؟ سرقا حياتي مني, لم يخبراني بحقيقتي, هل هذا يشفع لوالدي على سنوات قسوته معي؟ لِمَ لم يخبراني؟ كيف يكسران قلبي مرتين كبيرتين في مدة قصيرة؟ ماذا سأفعل الآن؟"

خَرَجَتْ منى من غرفتها تصرخ:

" أتعلمين ماذا ستفعلين؟ ستتركين كل شيء وتذهبين إلى دار الأيتام, لا تحلُمي أن تأخذي فلساً واحداً من أملاك أخي"

-"أم زياد: ماذا تقولين يا ابنتي؟ لن تخرج من المنزل إلا على جُثَتي "

-"منى: ستقبلين بذلك يا أمي, إذا لم تتنازلي لي الآن عن أموالك, ووصايتك لبتونيا, سأُقدم بلاغاً للشرطة, حينها سأسحب منها حتى اسم والدها, والعائلة التي تُنسب إليها زوراً, أتعلمين ماذا يحصل حينها؟ بعد

أن يُعرف أنها لقيطة, وتصبح مجهولة النسب, لن تجد وظيفةً بسهولة, ولن تعيش حياةً طبيعية, حتى والدة وسيم لن ترضاها لابنها, وأنتِ تدرين يا أمي كيف يُعامل مجهولي النسب في مدينتنا؟ وكيف حياتهم مهمشة؟ ولا ترضين هذا لحفيدتك المُزيفة"

أخذت باتي ترتجف, وتشهق وكعادتها فقدت الوعي.

نهضتُ من مكاني متوجهاً نحو منى التي بدأت بالضحك على حال باتي.

"ما بكِ أنت؟ كيف تصبحين بهذا السوء؟ ألا تخافين عذاب الله؟ كيف ستأكلين مال اليتيم؟ أأُعدم ضميرك؟"

أجابتني بسخرية:

" يتيمة والديها, أما هذا المال فلأخي, ومُلكي. لم آكل مال أحد"

ثم نظرت نحو الجدة, وقالت:

" ها ما رأيك؟ هل ترضين أن أُدمر مُستقبل حفيدتك الغالية؟"

-"أم زياد: لا أستطيع التصديق, أأنتِ ابنتي الحنونة؟"

-"منى: الحنون لا يبقى على حاله يا أمي, هل ستوّقعين هذه الورقة؟"

ثم تناولت قلماً ومدت الورقة للجدة أم زياد؛ فوقعتها دون تردد والدمع ينساب من مقلتيها, كأنها فقدت عائلتها أجمع.

-"أم زياد: لن أسامحك ما حييت, لعنك الله "

-"منى: لا أريد أن أراها في منزلي عندما أستيقظ "

و دخلت إلى غُرفتها ضاربةً الباب خلفها, وتركتنا نُصارع أفكارنا ومخاوفنا

*****

أفقت على خيبةٍ جديدة, خيبةٍ مُميتة, أخذت مني والداي, وجدتي, بيتي وحياتي, الشوارع, والأحلام, قتلت داخلي الفرحة, كيف سأحتمل؟ كيف سأحيى هذه الحياة بعد الآن؟ أتشعرون بحالي؟ هل حقاً سأذهب لدار رعاية الأيتام؟ لا أريد, لم أعتد بعد على منزل جدتي, أين أنت يا أبي؟ تعال أرجوك, إسحقني تحت قدميك, لكن أَعدني إلى غرفتي.

لملمت حقيبتي أنا ووسيم؛ ليصطحبني معه إلى منزله, كيف سيكون رد الخالة رنا؟ أخاف كثيراً, يا رب ساعدني.

انتبهت إلى جدتي التي تقف سادَةً باب الغرفة وتبكيني بحرقة, وكأنني فقدت الحياة, وهذا صحيح: فقدت حياتي, وزيادي, جدتي, منزلي وغرفتي, وأحلامي, فقدت الآمل.

رحت أمشي نحوها مكسورة الخاطر, أجرُّ قدماي بصعوبة, أرحت رأسي على صدرها, وقلت:

" أرجوكِ لا تحزني, لن أتركك والله, سأزورك بعد خروج عمتي من المنزل, لن أقاطعك"

-" أم زياد: كيف سأتركك للمجهول يا طفلتي؟ وصية أبنائي أنتِ, كيف سأخبرهم عن أمانتهم؟"

-"بتونيا: ليس خطأكِ, أنت تخليت عن كل شيء من أجل أن أحتفظ باسم والدي, وعائلتي على الأوراق, أنت قدَّمتِ لي الكثير يا جدتي, و والله أني أُحبك, ولا أعلم كيف سأرد لك هذا المعروف؟"

أخرجت من جيبها رُزمةً من الدنانير, وقالت:

"هذا ما تركه والداكِ لك يا ابنتي, خذي وخبئيها جيداً"

-"بتونيا: لا يا جدتي لن أقبل بها, أرجوك لا أُريد لعمتي أن تُحزنك, لن أخُذ قِرشاً واحداً"

-"أم زياد: يا ابنتي أرجوك, هذه أمانة والداك, الأمانة صعبة, لا أعلم متى سأفارق الحياة؟"

-"بتونيا: بعد عمرٍ طويل, لا تقولي هذا, يكفيني ما أشعر به, سآخذ قِسماً منه وأُخفي البقية معك, سأعود إليكِ كلما احتجت"

-"أم زياد: كما تشائين, لا تُطيلي غيابك عني, أرجوك"

أخذت تبكيني وأنا أبكي ما خسرته برفة عين, ودعتها وخرجت برفقة وسيم, الذي كان هادئاً جداً ومرعوب.

عندما دخلنا المنزل ركضت سلمى نحوي تسألني عما حصل؟ وأقبلت الخالة رنا مستغربة, أشار وسيم لسلمى لتأخذني إلى غرفتها, سرت وأنا

أتكئ عليها, إلى متى سأبقى هنا؟ هل ستقبل بي والدة وسيم بعد أن تعلم بحقيقتي؟ و قبل أن ألج من باب الغرفة, بدأت أسئلة سلمى, لم أستطع أن أُجيبها, ولم أدري بما سأخبرها؟

"سلمى أرجوك أُريد أن أنام الآن, عندما أستيقظ سأخبرك "

-"سلمى: ماذا فعلت لك منى؟ هذه المرة تبدين منكسرة, وكأننا عُدنا إلى يوم وفاة والديكِ"

آهٍ يا سلمى لو تعلمين بما أشعر, آخ يا صديقتي, والداي ليسا والداي.

-"بتونيا: عندما أستيقظ سأخبرك "

اندثرت بغطائها وكتمت نَفَسي حتى خَرَجَت من الغرفة, وأغلقت الباب, حينها رفعت الغطاء ودفنت رأسي تحت الوسادة, وأخذت أبكي دون أن أُصدر صوتاً.

*****

أخذت والدتي تستجوبني وأنا لا أزال واقفاً أمام باب المنزل, لم أعلم بماذا سأجيبها؟ أخاف أن تكون ردة فعلها قاسية, لم تُطل سلمى, ونزلت إلينا؛ لتعاود طرح أسئلة أمي, فلم يكن مني إلا أن أختلق قصةً جديدة:

"تعلمون كيف تعاملها منى بعد وفاة والديها؟ هذه المرة كان عقابها عنيف, وطردتها من المنزل"

-"رنا: كيف تفعل هذا؟ ماذا فعلت لها بتونيا؟"

-"وسيم: لا شيء يا أمي, كما قلت لك, تختلق المشاكل؛ لتوبخها, وتؤذيها"

-"سلمى: والجدة أم زياد؟ ألم تفعل شيء؟"

-"وسيم: المرأة مُسنة, لم تستطع السيطرة على غضب منى, ففضلتُ أن أُبقيها في منزلنا, إلى أن نجد حلاً"

-"رنا: إذن سأذهب للحديث معها, أيُعقل أن ترمي بفتاةٍ مراهقةٍ إلى الشارع دون سبب؟"

-"وسيم: لا يا أمي أرجوكِ, مازال الأمر جديداً, لنهدأ الآن, ثم نفكر ماذا سنفعل؟"

-"سلمى: صديقتي, صاحبة الحظِ السيئ"

-"رنا: لا عليك يا ابنتي, لن يتركها الله لأحد, ثم ها نحن نقف إلى جانبها, سيتحسن الوضع إن شاء الله"

-"وسيم: إن شاء الله "

تركتهن بعد ما هممن بتحضير الطعام, وصعدت إلى غُرفتي, في طريقي ألقيت نظرة على باتي, كانت تنام وهي تدفن رأسها تحت الوسادة, رفعتها عنها بهدوء كان وجهها يتصببُ عرقاً مُختلِطاً بدموع السنين, جففت وجهها بالمناديل, وغطيتها. كان نومها عميق لدرجة أن شخير التعب بدأ, شغَّلتُ التكييف وخرجت.

تمددت على سريري أُفكِر بحل, كيف سأشرح الموضع لأمي؟ وباتي, ماذا سأفعل بها؟ أنا مُتأكد من أنها لن تبقى في بيتنا كثيراً, لا أعلم ماذا سأفعل؟ لا أخفي عنكم أمر معرفتها لحقيقتها؛ أراحني من عناءِ حمل السر, لكن إبنتُ روحي لا تحتمل كل هذا العبء, تركت أفكاري جانباً, ورحتُ أغُط بالنوم, فعلى الأقل باتي في منزلي, داخل منطقتي, في شرايين قلبي.

أيقظتني سلمى لتناول طعام الغداء, سألتها مباشرةً عن باتي, أخبرتني: أنها استيقظت وتُحضِّر المائدة مع والدتي, فاسترخت ملامحي, ونهضت أغسل وجهي من آثار النوم.

كانت تُلاعب الطعام في صحنها, تارةً تأخذهُ يميناً, وتارةً تأخذهُ يساراً, عندما انتبهت لنظراتنا قالت:

"سلِمت يداكِ يا خالة, الطعام شهي "

وهمت واقفة.

-"وسيم: لكنك لم تأكلي, كيف خمَّنتِ أنه شهي؟"

-"رنا: هيا يا صغيرتي, جميعنا نُفكر بك, اجلسي وتناولي طعامك, أتُحبين أن يغضب منكِ والداكِ؟ "

رمت نفسها على الكرسي بقلة حيلة, وعيناها تترقرق بالدمع, ألم تتعب عيناكِ من سكب الدموع؟ أعتقد انك إستهلكتِ في هذه الفترة ما يستهلكه الإنسان طيلة عمره.

-"سلمى: لا تخافي, كلنا معك, ستعودين إلى منزلك بإذن الله"

نَظرت نحوي متسائلةً؛ ففهمت نظراتها, رفعت حاجباي لأخبرها بأنهما لا يعلمان بالأمر, فتنهدت ببطء وأغمضت عينيها مطولاً؛ لتشكرني. ثم بدأت تتناول ما في صحنها, أترون كيف أصبحنا نفهم بعضنا بإشارات العيون فقط ؟ ألم أقل لكم أنها من ضلعي؟.

مضى أُسبوع على تواجدها معنا, كانت أيامي سعيدة بها, بدأ وجهها يُشرق و بدأت تتقبل فكرة موت والديها وحقيقتها, كانت تزور جدتها يومياً بعد خروج منى إلى عملها, وعدت أنا أشرح الدروس لها و لسلمى, قَررت عدم الاستسلام, ستنفذ وصية والديها وتكمل دراستها.

خلال هذا الأسبوع حاولت أمي الحديث مع منى, إلا أنني كنت أمنعها وأختلق الحِجج, كانت أمي حنونة كثيراً على باتي, تحتضنها كلما احتضنت سلمى, وتقبلها كلما قبلتني, لا تُفرقها عنا, بل جعلتها مُدللتها وميزتها أكثر منا.

*****

استيقظت باكراً, رميت همومي خلف ظهري وبدأت ألتهم الكتب؛ سأحقق حلم والداي بإذن الله, سمعت أن خالة سلمى وابنتها رزان مدعوتان على طعام العشاء الليلة, كيف سأتملص من مشاركتهم الطعام هذا المساء لا أعلم ؟, تركت كُتبي ونهضت لأرتدي ملابسي, ثم استأذنت الخالة رنا لزيارة جدتي, خرجت قاصدةً البيت, طرقت الباب طرقات خفيفة؛ فأقبلت تفتحه مرحبةً ومشتاقة, ارتميت في حضنها وأطلت؛ علني أشبع من رائحتها, لم يطل عناقي لها: إذا أفسدت عمتي منى خلوتنا, وعلى غير عادةٍ منها عادت إلى المنزل باكراً. حين رأتني انتفضت تصرخ:

"ماذا تفعلين هنا؟ ألم أُنبهك بأن لا تدخلي هذا المنزل؟"

-"بتونيا: ما بك؟ متى أصبحتِ قاسية القلب؟ ألم أكبر على يداكِ؟ ألا يشفع لك القرب والأُلفة التي كانت بيننا قبل أشهر؟ كيف تغيرتِ هكذا؟"

-"منى: إلى الخارج بسرعة, لا أُريد أن أسمع نصائحك, ولا أُريد أن أراكِ هنا مرةً أُخرى؛ وإلّا ستندمين"

خرجتُ من المنزل بحالٍ يصعُب على الأموات, فكيف لم تتأثر لهُ عمتي؟ التي كنت أحسبها بمثابة أمٍ ثانية لي, هل حقيقتي تمحي العشرة التي كانت بيننا وتطمسها؟ ماذا سأفعل الآن؟ إلى أين سأذهب؟ إلى متى سأبقى بمنزل وسيم؟

عُدت إلى المنزل بحال مُغاير لِما كنت عليه, دخلت المطبخ لأساعد الخالة رنا بإعداد الغداء, لم تسألني عن حالتي؛ لأنها اعتادت على حزني, اكتفت بالمسح على رأسي. كنت هادئة كثيراً, تناولت طعامي بدون أن أُصدر صوتاً, أما سلمى ووسيم, فكانا يُشاكسان والدتهما, وينتقدان الطعام, أين أنت يا أمي؟ اشتقت إلى نَفَسك في طعامي, اشتقت لدُعائك, لِعِناقك, ما أصعب الاشتياق للأموات! انتبهت ليد وسيم التي هبَّطت فوق يدي, ثم نظرت نحوه نظرة عجزٍ وانكسار.

-"وسيم: ما بك يا باتي؟ ما هذا الوجه الشاحب؟"

-"بتونيا: صادفت عمتي اليوم, وبختني, ثم طردتني, أخاف على جدتي منها."

-"وسيم: لا تخافي. جدتك تستطيع الدفاع عن نفسها, هوني عليكِ, ستمضي هذه الأيام"

-"رنا: لا زلت لا أصدق قسوتها المفاجئة, ربما تأثير أحمد عليها, هذا الشخص لم يُعجبني أبداً"

-"وسيم: لنغير الموضوع أرجوكم"

-"سلمى: ستزورنا شهد بعد صلاة العصر, أُمي حبيبتي, هل حضَّرتِ لنا الحلوى؟"

-"رنا: كما تشائين يا صغيرتي, سأصنعها من أجلكم"

بعد أن أنهينا تنظيف الأواني صعدت إلى غرفة سلمى؛ لأغطس بكتبي, فلحق بي وسيم, كان يتكئ على إطار الباب وينظر نحوي, تجاهلت نظراته وأنا أُقلب صفحات كتابي, ثم قال:

"بماذا تفكرين؟ "

رفعت رأسي عن الكتاب, وأجبت:

"يجب أن أجد مكاناً لأُقيم به"

أقبل نحوي وجلس أمامي على السرير, سحب الكتاب من يديّ وهتف:

"ألم نتفق على أن تبقي هنا برفقتنا؟"

-"بتونيا: أشعر بالغربة, إلى متى ستحتملون وجودي؟ أُريد أن أذهب لدار رعاية الفتيات "

-"وسيم: مستحيل, لن أسمح لكِ, لن أتخلى عنكِ, أنتِ وصية والدك لي"

-"بتونيا: أخذت قراري يا وسيم, لن أستطيع البقاء هنا"

-"وسيم: لا أريد أن أسمع هذا الكلام منك, تؤذين قلبي دوماً بقراراتك, أرجوكِ لا تُفكري على هذا النحو, أنا الآن منزلكِ, والدكِ, وزوجك بإذن الله, لم يتبقى الكثير, عندما تبلُغين الثامنة عشر سنتزوج"

-"بتونيا: مستحيل, لا أستطيع قبول تضحياتك أكثر, أعلم أنك تفعل ما تفعله بدافع الشفقة, لكن هذا يكفي"

-"وسيم: ماذا تقولين؟ شفقة ماذا؟ أعمياءٌ أنتِ؟ ألا تَرين حُبي لكِ؟ بريق عيناي بحضورك, ألا تشعرين بنبضات قلبي السعيدة وأنا أُحادثكِ؟ أتعتبرين هذا شفقة؟"

والله أنني متأكدة من حبك لي, لكني لن أضعك بموقفٍ مُحرج أمام عائلتك, لن أشعر بالراحة وأنا أعلم أني أُميتك معي.

-"بتونيا: أرجوك يا وسيم دعني أذهب"

قبض على مِعصم يدي, والدمع يتجمع في مقلتيه, وقال:

"لن أسمح لك أن تأخِذي نفسك مني"

قطع حديثنا صوت طرق الباب, وصلت شهد, وانسحب من بيننا دون أن يرد على سلامها حتى, احتضنتني طويلاً وقالت:

"أعتذر عن ما يحدث لك يا باتي. "

-"بتونيا: لا تهتمي, اعتدت على حالتي هذه"

-"شهد: ما بال وسيم؟ عيناه ممتلئتين بالدمع"

-"بتونيا: لا شيء مهم, أخبرته أنني سأغادر المنزل"

-"شهد: إذن هو يُحبك فعلاً, لم يتزوجك لينتقم منك"

-"بتونيا: إنتقام ماذا يا ابنتي؟"

-"شهد: سمعت حديثه مع رزان, كانت تسأله عن لعبة الخطوبة, فأخبرها: أنه سينتقم منك, ثم سيطلقك"

-"بتونيا: ماذا؟ مستحيل, هو لا يحب رزان أبداً ليشاركها الحديث عني"

-"شهد : لِمَ لأُكذب عليكِ؟ سمعته مرتين لا مرةً واحدة, وإذا أردتِ أحضريه لأواجهه"

ما هذا؟ هل فعلاً قامر بحياته لينتقم مني؟ مستحيل, وحبه لي؟ كان أكبر الداعمين لي, والمواسين المطبطبين, لا أستطيع التصديق.

-"سلمى: ما أخبار صديقاتي؟"

-"شهد: اجلسي, نريد أن نراكِ "

-"سلمى: انتظري سأُحضر الحلوى أولاً"

ذهبت سلمى وعادت بغضون دقائق, وشهد لا زالت تقْسم على كلامها, لا أُخفيكم بدأ الشك يملئ قلبي, تغافلت عن الموضوع أمام شهد, ورحنا نتحدث عن الدراسة, وعن كل شيء. تبدل مزاجي, كانت صُحبتنا ظريفة, أمضيناها نضحك ونتنمر على أشكالنا. غادرت شهد قبل أذان العشاء, وخرجت سلمى لتودعها, وذهبت أنا لتأدية صلاة المغرب قبل أن تُدركني صلاة العشاء.

بقيت على سجادتي أدعو, وأنتظر الأذان, بعد أن أديت صلاتي نهضت ولملمت ملابسي, وكتبي, ووضعتها في حقيبتي, سأذهب غداً بالتأكيد, لن أخفي حقيقتي أكثر, أتى وسيم ليُناديني إلى طعام العشاء بعد أن أتت خالته.

-"بتونيا: لا أُريد تناول الطعام, سأنام باكراً"

-"وسيم: لماذا تكذبين؟ قولي أنك لا تُحبين رزان, ولن تحتملي الجلوس معها"

-"بتونيا: إذن لا أحبها, ولا أحبك, ولا أحب أحد"

-"وسيم: ما بك يا عقلة الإصبع؟ ماذا فعلت لك؟"

-"بتونيا: لا شيء, أريد البقاء بمفردي, هلّا خرجت؟"

-"وسيم: لا طبعاً, لن أخرج لأعلم ما بكِ"

-"بتونيا: إذن خطوبتك مني كانت لعبة؟, لم تكن شفقة حتى"

-"وسيم: ماذا تهذين؟ أتسمعين ما يخرج من فمك؟ ما بكِ؟ شفقة, ولعبة, وواجب؟ ماذا يدور في عقلك؛ لتختلقي كل هذه الأسباب؟"

-"بتونيا: لم أختلق شيئاً, شهد أخبرتني"

-"وسيم: إذاً سَمِعَت حديثي مع رزان"

-"بتونيا: لا تُنكر حتى!"

أخذ يضحك كالأبله, وقبل أن يُجيبني, أقبلت سلمى تلهث, تطلب وسيم في الحال لوالدته, التي اتضح أنها غاضبة,فصوت ندائها يملئ المنزل.

أسرع مهرولاً إلى الأسفل, ولحقت أنا بهما, ثم تجمدتُ على عتبة السُلم.

-"رنا: ألهذا الأمر طلبت الزواج منها؟ هل تعلم من البداية أنها لقيطة؟"

-"وسيم: من أخبرك بهذا؟"

-"رنا: لا تُجب على سؤالي بآخر, هل وافقت على طلب زياد؛ كي لا يُخبرها بهذه الحقيقة؟"

-"وسيم: نعم, كنت أعلم من البداية, هل كان من المفترض أن أترك والدها يزوجها من شخصٍ في عمره؟"

-"رزان: إذن, كنت تكذب علي, تزوجتها للانتقام ها"

-"رنا: إنتقام ماذا؟"

-"سلمى: إياكِ يا رزان! سأقتلك الآن"

-"رزان: هي المسبب بحادثة وسيم, وضعت الزيت أعلى السلالم قاصدةً إيذائه"

-"وسيم: اخرسي, وألا نتفت شعرك"

-"رنا: وسيم, الآن ستُغادر هذه الفتاة منزلي, الآن"

-"وسيم: أخفضي صوتكِ أرجوكِ, لنتحدث بمفردنا"

وآهٍ من صدمات لم أعد أحتملها, أيدري من البداية بحقيقتي وتركني لبطش أبي؟ وأنا أبحث عن سبب لأمنعهُ من سحقي, أَقَبِلَ الزواج مني بسبب حقيقتي؟ إلا وسيم يا الله, لا أحتمل أن يكون مثلهم, إلا وسيم.

أسرعت إلى غرفة سلمى, ولملمت بقية أغراضي, ارتديت معطفي وحجابي, وتسللت من المنزل دون أن يراني أحد, كان الجو بارداً, بل متجمد, إلى أين سأذهب في هذا الظلام؟ إلى من سألتجئ الآن؟ كان وسيم ملجأي الوحيد بعد رحيل والداي, وحرماني من جدتي, رحت أجوب الطُرقات دونما هدف.

هل أذهب إلى منزل والديّ؟ لكن كيف سأدخل؟ سأنام في الحديقة وهذا أيضاً لا ينفع؛ فهو أول مكان سيبحثون عني فيه, أأذهب إلى المقبرة؟ لا ,لا أستطيع, أخاف الذهاب إلى المقبرة ليلاً, ماذا سأفعل يا ربي؟ أنا حتى مركز الأيتام لا أعلم مكانه, ونقودي لا تكفيني؛ لأبيت في إحدى الفنادق,(كنت قد نسيت أمر المال الّذي أعطتني إياه جدتي). يا رب ليس لي سواك, جلست على الطريق أبكي, وأنحب كطفلٍ أضاع والدته, انتشلني من بنات أفكاري صوت رنين الهاتف, الذي نسيت إغلاقه, كان وسيم, ربما الآن لاحظوا غيابي, أكانت معركةً حامية الوطيس؛ لتستمر لساعتين؟.

-"بتونيا: نعم, ماذا تريد؟"

-"وسيم: بتونيا, أين أنتِ؟"

-"بتونيا: ماذا تريد؟"

كان صوته مُضطرب, وكلماته متقطعة:

" أسألكِ: أين أنتِ؟ الجو بارد والظلام قد حل, أرجوكِ أخبريني أين أنتِ؟ بحثت عنك في كل الأماكن ولم أجدك, كيف تخرجين من المنزل بدون أن تُخبري أحد؟"

-"بتونيا: لا عليك, لا أُفكر بالعودة, وأرجوك لا تتصل بي مجدداً, وأتمنى أن نتطلق بأسرع ما يمكن"

-"وسيم: بتونيا! أرجوكِ لا تتسرعي, سأشرح لكِ كل شيء, فقط أخبريني بمكانك, أعدك لن أُعيدك إلى المنزل"

-"بتونيا: لا أُريد منك شيء, أعرف كيف أتدبر أمري."

-"وسيم: أين ستذهبين في هذا الوقت؟ أرجوكِ لا تُلوعي قلبي, المطر على وشك الإنهمار."

-"بتونيا: أشعر بذلك, هل سيقتُلني المطر كما فعلتم جميعاً؟ لا أعتقد, وداعاً "

أغلقت الهاتف في وجهه, ورحت أبحث عن مكانٍ أختبئ تحته؛ علني أقي نفسي من البلل.

*****

ماذا سأفعل الآن؟ عدت إلى المنزل عاجزاً, أجر أذيال الخيبة, هاتفها مغلق والطقس متجمد في الخارج, والمطر لا يتوقف, انتصف الليل والظلام حالك. بحثت عنها كثيراً, وكأنها تبخرت, في أي شارعٍ أنتِ يا صغيرتي؟

أقبَلَت سلمى تركض نحوي قائلةً:

-" ألم تجدها؟"

حالها ليس بأقل من حالي: جفونها تكاد أن تتشقق من كثرة البكاء.

-"وسيم: لم أجدها"

عانقتني وانخرطنا ببكاءٍ أليم, لم أبكِ هكذا بحياتي كلها.

-"وسيم: كيف سأجدها الآن؟ كيف سأُعيدها إلى حياتي؟ تخلت عني وعن حبنا, كنت سأشرح لها أنني لم أقبل إلا؛ لأنني أُحبها, أهبها روحي لو شاءت, كيف تفرط بحبنا؟"

-"سلمى: اهدأ يا أخي, سنجدها وستعود إليك مجدداً, لا تخف, فهي أيضاً تُحبك, بل تُحبك كثيراً"

-"وسيم: قالت لي: لنتطلق "

أتت والدتي على أصوات البكاء والشهيق, وكأن رحمتها وحبها لباتي قد تبخرا.

-"رنا: هذا ما سيحصل, ستطلقها. ماذا سأقول لأقاربنا؟ زوجة ابني لقيطة"

-"سلمى: أمي, أرجوكِ لا تصبي الزيت على النار"

-"وسيم: لن أُطلقها, ماذا ستفعلين؟"

-"رنا: إذا لم تُطلقها؛ سأبلغ عنها الشرطة "

-"وسيم: وما تُهمتك؟"

-"رنا: ألا يكفي أنها حاولت قتلك؟"

-"سلمى: أمي, ما بك؟ هل جُننت؟ لن تفعلي هذا طبعاً"

-"رنا: جرباني إذا أردتما"

عصفت وعادت إلى غرفتها, أما أنا فمصعوقٌ من انقلاب حالها, بدأت أفقد إيماني بمن أُحب, ما هذا الظلم؟ هذه الأرض خُلقت لنا جميعاً, لِمَ لنطمس بعضنا البعض؟.

-"وسيم: سأخرج للبحث عنها مرةً أخرى"

-"سلمى: انتظرني سأرافقك"

-"وسيم: الجو لا يُحتمل بالخارج, إبقي هنا "

عدت أجوب الطرق, ركنت سيارتي أمام منزل والديها, أشعر أنها ستعود إلى هنا, انتظرت ساعةً دون جدوى, أين ذهبتِ يا باتي؟

الساعة الآن الثالثة بعد منتصف الليل, هاتفها مغلق, لا أستطيع الوصول لها بأي شكل, كيف تفعلين هذا بي ؟

لا أعرف كيف غلبني النوم, ولا أعلم كم المدة التي نمتها, لكنني استيقظت على صوت طرقاتٍ حنونة على نافذة السيارة, كانت هي: زهرتي الذابلة, الماء يقطر منها, وأطرافها ترتعد.

فتحت الباب ونزلت مسرعاً, أخذت الحقيبة منها, ثم اصطحبتها لتجلس على مقعد السيارة بجانبي, كانت ساكنة, أخذتُ معطفها المبلل ووضعته على المقعد الخلفي, ثم ألبستها معطفي, كانت ترتجف, خَلَعَت حذاءها وجواربها ثم دفنت رأسها في حِجرها, أدرت جهاز التدفئة, وشغلت تدفئة المقاعد, بقيت على حالها قرابة العشرة دقائق, ثم رَفَعَت رأسها, كنت أنظر نحوها بانكسار, لا أدري ماذا أقول؟ فضَّلت الصمت إلى أن تبدأ هي بالكلام, لكنها أسندت رأسها إلى الخلف, وأغمضت عينيها, وبدوري أنا أرجعت ظهر مقعدها للوراء؛ لتستطيع النوم براحة, ثم فعلتُ ذات الشيء لمقعدي, ورحنا نغط بالنوم.

*****

كانت ليلتي قاسية يا رفاق: الشوارع فارغة, المطر لم يتوقف, تشنجت أطرافي من البرد, وتبللت كثيراً, أصبح الماء يخر من كامل جسدي, نظرت إلى ساعتي, لا زال الوقت باكراً على طلوع الصباح, كان هذا يومي الأول في التشرد, الظلام مخيف, بل مخيف جداً.

أتعلمون؟ تعلمت درساً صعباً, مهما كان والداك قاسيان أفضل بكثير من الوحدة بالشوارعِ المُظلمة. أعتذر عن كل ما قلته عن أبي, أنا فعلاً أشعر بالخجل, يا ليته يعود ويسجنني في غرفتي, ليضربني كيفما شاء, ليحرمني من المدرسة ومن صديقاتي, أبيع عمري ليعود هو وأمي إلى حياتي.

جررتُ حقيبتي, وسِرت بعد أن توقف المطر, كانت قدماي تجرانني نحو منزلنا, تسحباني إلى ذكرياتي, بيتي الذي لم أُفكر يوماً أنني سأُصبح غريبة عنه, قبل أسبوعِ زرته دون أن تدري عمتي, حديقة أمي ذابلة, أزهارها ماتت, أشجارها تيبست, رحت أرويها وأعتذر لها عن كل شيء مات مع والداي.

تعبت من المشي, ومن البكاء, تعبت من حياتي, وصلت منزلي بشِق الأنفس, كانت سيارة وسيم أمام الباب, أسرعت خُطاي ثم نظرت من شباك السيارة, الظلام حالك, والماء يرسم خطوطاً على النافذة, رفعت يدي أطرق النافذة؛ لأتأكد من وجوده بالمركبة, و الحمد لله أنه بداخلها, أدخلني إلى السيارة, كانت حالتي يُرثى لها, أبحث عن القليل من الدفء, بعد أن ارتديت معطف وسيم وانكمشت على نفسي, بدأت أستعيد حرارة جسدي الطبيعية, رفعت رأسي متجاهلةً نظرات وسيم, ثم أسندته على ظهر الكرسي ونمت.

استيقظت على صوت رنين هاتف وسيم, مسحت عينيَّ بشدة أسترجع ليلة الأمس, جلست باعتدال, وهززت كتف وسيم, فأستيقظ فزِعاً:

"ماذا حدث؟ هل أنتِ بخير؟"

-"بتونيا: بخير, هاتفك يرن"

التقط هاتفه مُتثاقلاً:

"سلمى في البداية صباح الخير, نعم وجدتها"

ثم مد هاتفه لي, أخذته وقلت:

"لا تقلقي يا سلمى, أنا بخير"

-"سلمى: أرجوكِ عودي, لا تتصرفي بغضب يا صديقتي, تعالي أنا سأحميكِ ووسيم أيضاً"

-"بتونيا: هل كنتِ تعلمين بقصتي؟ ألهذا كنتِ تصرين على خطوبتنا؟"

-"سلمى: لا والله يا باتي, تعرفين أنني لا أستطيع أخفاء أي شيء عنكِ, و والله أنني أشعر بالأسى لحالك, أيُعقل أن تكوني سيئة الحظ لهذه الدرجة؟ أنا حقاً آسفة لما يحدث لك, لكن أرجوكِ عودي, سأنتظركِ"

-"بتونيا: لا يا سلمى, لقد أخذت قراري, سأذهب لمركز الأيتام, هذا المكان الوحيد الذي يجب أن أبقى به, ومن المفترض أن أكون هناك منذ سبعة عشر عاماً, لكن هذا قدري"

أخذ وسيم الهاتف مني, ثم قال لسلمى:

"نتحدث عندما أعود عزيزتي, يجب أن أُغلق"

ثم نظر نحوي؛ ليتأكد من قراري.

-"بتونيا: لا أستطيع أن أُجادلك يا وسيم, أرجوك, لنذهب إلى المركز "

-"وسيم: لا تفعلي هذا؛ لتعاقبيني, لم أستطع إخبارك, حاولت كثيراً لكنني استصعبت أنا أراكِ على هذا الحال, خاصةً بعد وفاة والديكِ, لم أشأ أن أُعذبكِ أكثر, لكن حدث ما حدث, أرجوكِ سامحيني لنعد إلى المنزل الآن"

تنهدت تنهيدة طويلة ثم أجبت:

"وسيم صدقاً أشكرك على معروفك معي, أنت وعائلتك, بفضلك استعدت زياد, أتعلم؟ حقاً أشكرك؛ فبسببك أحببت أبي, لم أكن لأسامح نفسي لو مات وأنا أبغضه, ثم إنني أُريد أن أُجرب حياةً جديدة, نعم أخاف, لأنني سمعت الكثير من القصص عن دور الأيتام, لكنني أُريد أن أُجرب, أُريد أن أُصبح صلبة, أن أقف على قدميَّ لوحدي"

-"وسيم: لن أتركَكِ, لن أفعل هذا, سأدعك تجربين, لكنني سأبقى إلى جانبك. أتدرين؟ لم أتشبث بأحد كما فعلت معكِ, أنتِ الشخص الوحيد الذي تمسكت به إلى حد التعب, ومع هذا أحب أن أتعب من أجلك"

فرحت, لكنني لم أُظهر لهُ ذلك.

-"بتونيا: نتكلم في هذا لاحقاً, هيا لنذهب"

-"وسيم: دعينا نتناول طعام الإفطار أولاً"

-"بتونيا: كما تريد, معدتي تئن من شدة الجوع"

-"وسيم: لو فتحتِ هاتفك البارحة كنا تناولنا الطعام معاً على الأقل"

ابتسمت ورتبت ملابسي, وحجابي, ثم تناولنا الطعام بنهمٍ كبير, منذ مدة لم أشعر بفضولي نحو الحياة, لم أشعر بالجوع, بالأمل, لكن سأتحدى الحياة وأعيش, سأعيش لنفسي.

وصلنا دار الأيتام أخيراً, أشعر أنها ستكون أيام جيدة, ثم الخيرة فيما إختاره الله, تذكرت دفتري, سأفتحه؛ لأرى وصية والداي لليوم:

(أيها الشاكي وما بك داء *كن جميلاً ترى الوجود جميلا)

ابتسمت برضا ثم رنوت نحو وسيم, كان مرتبكاً قليلاً, وأشعر أنه لم يُحبذ الفكرة, لكن يجب أن يعتاد, لا أستطيع أن أكون حملاً عليه, يكفيه والدته وأخته.

-"بتونيا: هيا إذن"

دخلنا إلى غرفة المديرة المسؤولة عن الدار, رحبت بنا, كانت بشوشة الوجه حسنة المظهر, سردتُ عليها حكايتي؛ فأشفقت على حالي, ووعدت أن تُساعدني, لا أُخفيكم الموضوع صعب قليلاً؛ فأنا بعد عدة أشهر سأدخل سن الثامنة عشر, وسأظطر للخروج إلى الشارع مرةً

أخرى هذه قوانينهم, أخبرتني المديرة أن قريبها يعمل في التنمية الاجتماعية, وستطلب مساعدته, باشرت هي باتصالاتها, أما أنا فاصطحبتني إحدى المشرفات إلى الغرفة التي سأبقى بها, الفتيات هنا لطيفات جداً, أخذت سريراً في إحدى الغرف, أصبحت أنا الفتاة الرابعة في هذه الغرفة, وضعت أغراضي ورتبت ملابسي, ثم عدت لأرى وسيم, كان لا يزال برفقة المسؤولة عن النزل.

بعد أن قبلوني في الدار, اضطررت لتوديع وسيم, كان عناقي له طويل, من الآن لن أستطيع رؤيته كما يحلو لي, فهنا النظام أهم من كل شيء, والقوانين صارمة كما أخبرتني الفتيات اللواتي يُشاركنني الغرفة, خرجت معه إلى الحديقة, أمسكت يديه, وقلت:

-"الآن تستطيع أن ترتاح وتركز على اختباراتك, سأكون بخير.. لا تقلق"

-"وسيم: عديني يا باتي, ستُخبرينني بكل ما يحصل هنا, لن تُخفي عني شيء "

-"بتونيا: لا تخف, ماذا سيصيبني أكثر مما مررت به؟ "

أردفت:

" أرجوك طمئن جدتي عني, وسلمى أيضاً, ولا تتجادل مع والدتك من أجلي, تعلم أن الوالدين من أكبر الدعامات لحياتنا"

-"وسيم: كما تشائين يا عقلة الإصبع"

-"بتونيا: وسيم شكراً "

-"وسيم: بتونيا أحبكِ كثيراً, اعتني بنفسك من أجلي"

ثم انسحب إلى مركبته بسرعة, عدت إلى الداخل, كان البيت الذي أسكنه يتكون من ثمانية فتيات, أما المشرفة عنا فكانت مزعجة قليلاً, لكن لا بأس, هناك الكثير من الفتيات هنا في هذه البيوت يُعانينَّ مما أعاني, هذا يُشعرني بالرضا قليلاً.

عدت إلى غرفتي, كانت الفتيات يتجمعن على السرير المقابل لسريري, نظرت إليهن متسائلةً:

"ماذا يحدث هنا؟"

ردت إحداهن:

"جئنا لنتعرف عليكِ, ونعلم ما الَّذي أودى بك إلى هنا؟"

-"كم عمرك؟"

-"هل والداكِ على قيد الحياة"؟

-"من هذا الشاب الذي كان يرافقك؟"

-" هل أنتِ مرتبطة حقاً؟"

-"هلَّا توقفتن عن طرح الأسئلة؟ ستهرب منا الآن"

كانت الأعمار متفاوتة, من الثانية عشر إلى الثمانية عشر.

-"بتونيا: لا عليكِ, سأُجيبكم اسمي بتونيا..."

قصصت عليهن حكايتي وتعاطفن معي كثيراً, ثم أصبح دورهن في الحديث, طالت جلستنا, لا أخفيكم كسرت قلبي قصصهن, حمدت الله على حالي كثيراً, قاطعتنا المشرفة لتدعونا إلى طعام الغداء, رافقتهن وتناولنا طعامنا, كانت المشرفة تنظر نحوي بغرابة, لا أعلم ما بها, على كُلِ حال, أُريد أن أنام, أخذت حمَّاماً سريعاً, ثم ذهبت إلى سريري, لقد تعبت كثيراً, لم أضع رأسي على الوسادة بعد, ورحت أغط بنومٍ عميق وهانئ.

*****

ودعتها وأسرعت إلى سيارتي؛ خوفاً من أن ترى دموعي التي تتجمع بمحاجري, عدت إلى البداية, بعد كل هذا القرب منها سأعود لألتقيها بإذن, أو واسطة. رجعت إلى منزلي, كانت أمي تجلس في غرفة الجلوس, لم أخبركم, لم تسأل عني منذ البارحة, تُفكر أنها تُعاقبني, تجاهلت وجودها وذهبت لغرفتي, رميت بجسدي على سريري, حضنت وسادتي, ونمت.

أيقظتني سلمى على موعد الغداء؛ فأخبرتها أني لن أتناول الطعام, لم تسألني عن شيء, أظنُّ أنها تواصلت مع باتي, وعلمت بما حدث.

-"وسيم: ما بكِ يا أختي؟"

-"سلمى: كيف تتركها يا وسيم؟ أنت تعلم أنها ضعيفة الشخصية, كيف ستعيش هناك؟ أتتجاهل كل ما تعرفه عن دور الأيتام؟ كيف فعلت هذا؟"

-"وسيم: قلبي لم يعد يحتمل يا سلمى, أعلم أنني ارتكبت خطأً كبيراً, لكني تركتها لتجرب, أنتِ لم تشاهدي فرحتها صباحاً, أراها تضحك للمرةِ الأولى منذ وفاة أبويها "

-"سلمى: أخاف كثيراً عليها, لا أعلم كيف تحمَّلت كل هذه المصائب, لو كنت بمكانها لقتلت نفسي"

-"وسيم: ما هذا الكلام يا سلمى؟ "

-"سلمى: لا عليكِ, إنسى, صحيح ماما تنتظرني على الغداء, سأنزل قبل أن تغضب, لا أُريدها أن تُفكر أن باتي قد سرقتنا منها"

-"وسيم: افعلي ما تشائين, بالنسبة لي لن أتنازل لها, لتصنع ما تشاء"

-"سلمى: أخي, لو سمحت ستزيد من غضبها على باتي, ثم معها حق هي لم تكن تعلم بشيء, هذا ما ضايقها, خاصة حادثة السلالم, أنسيت كيف غضبتُ أنا على باتي وأنا صديقتها؟"

-"وسيم: آهٍ منكِ يا سلمى, لا زلتِ صغيرة جداً على هذه الأحاديث"

-"سلمى: وبتونيا أيضاً صغيرة على أن تُترك لوحدها"

ثم خرجت وصفقت الباب خلفها, أخذتُ هاتفي وأرسلت لباتي:

"ماذا تفعلين؟ كيف وجدتِ الميتم؟ اشتقت لكِ كثيراً"

انتظرت ساعتين و لم تأتِي الإجابة, هل يُعقل أن تكون قد نامت؟ آه منكِ يا عُقلة الإصبع, أمسكت كُتبي وغطست بها, يجب أن أتخرج, امتحاناتي اقتربت. نسيت نفسي بين أوراقي وكتبي, ثم التقطت ورقة بيضاء وقلم أسود وبدأت الكتابة:

(أول رسالةٍ ورقية من صاحب الظل الطويل إلى عُقلة الأصبع

لا تستغربي, تنعكس الأدوار أحياناً, لم أجد طريقة لأوصل أفكاري ومشاعري لكِ سوى الورق, أنا يا صغيرتي أُحبك كثيراً, أشعر كأن عضواً من أعضائي قد بُتر, قلبي, أو رئتاي, شيء من هذا القبيل, أحسست بالنقص في غيابك, تعلمين أنني لم أُحبذ فكرة الميتم؛ لكنه قرارك, وأنا أحترمك وأحترم قراراتك, أخشى أن تتأذي, لن أحتمل أن أرى انكسارك أكثر, أُريدك أن تعلمي أنني سأبقى معك حتى لو رفضتِ.

متى ما احتجتني سأكون بقربك, أشعر بشيء يضغط على قلبي, ولا أُبالغ لو أخبرتك أنني لا أستطيع التنفس وأنتِ بعيدة, أنتِ رفيقة دربي, وهدية الله لي, تأكدي أنني سأحملك بقلبي إلى آخر عمري.

مع كامل حبي لك.. وسيم)

طويت رسالتي ووضعتها بظرف كتبت عليه لعقلة الإصبع.

عادت أختي تدعوني لأشاركهم طعام العشاء, وطبعاً لم أقبل خاصةً عندما علمت بوجود خالتي ورزان, الآن ستكثر زياراتهم لنا, أشعر بذلك, ستحاول خالتي استعادة الفرصة؛ لتتملكني وكأني كنزٌ ثمين.

-"سلمى: أخي, هيا لا تتركني وحدي معهم أرجوك, ثم أنت لم تتناول شيء منذ الصباح "

-"وسيم: مستحيل, لن أنزل, لكن يمكنني أن أتناول الطعام معك بغرفتي"

ابتسمت وقالت: "انتظرني إذن, لن أتأخر"

انطلقت والفرحة تملكها, أعلم أنها ستُغيظ رزان الآن, وهذا ما يُسعدني أيضاً.

رن هاتفي.. كانت قِبلةُ روحي المتصلة, أجبتها سريعاً من فرط شوقي:

"أين أنتِ يا ابنتي؟ بما كنتِ مشغولة؟"

-"بتونيا: كنت نائمة, ثم استيقظت وتناولت العشاء, وجلست مع أخواتي نتحدث قليلا "

-"وسيم: أوه, أخواتي من اليوم الأول, حدثيني كيف الأوضاع عندك؟"

-"بتونيا: نعم, أخواتي, أعجبني هذا الشعور, الفتيات لطيفات هنا, منذ وصولي وأنا أضحك, لكن المشرفة لم أستلطفها كثيراً"

-"وسيم: لماذا؟ هل أزعجتك بشيء؟"

-"بتونيا: لا, لم تزعجني, لكن نظراتها نحوي غريبة. لا عليك, صحيح غداً سأذهب لمدرستي سأنقل أوراقي إلى المدرسة القريبة من الميتم"

-"وسيم: لا تفعلي هذا يا باتي, ستُحطمين قلب سلمى "

-"بتونيا: لا أستطيع, أَخَبَرَتني المشرفة أن علي فعل ذلك, كيف سأذهب إليها وهي بعيدة؟"

-"وسيم: أنا أُرافقك كوني خطيبك"

-"بتونيا: أخبرتُها بهذا الحل و لم تقبل, وسيم, لا تخبر سلمى, سأُخبرها أنا غداً, ثمَّ لم يبقى شيء على انتهاء الفصل الدراسي, سنعود لنلتقي في الجامعة بإذن الله"

-"وسيم: الآن أخبريني, هل أنتِ بخير؟ "

-"بتونيا: بخير, سأغلق الآن, المشرفة تصرخ على فتيات الغرفة المجاورة, سأمثل النوم, هيا تصبح على خير"

-"وسيم: تصبح..."

وأغلقت الهاتف.. مشاعري مُختلطة, لا تسألوني بما أفكر؟ أُريد أن أتناول طعامي وأنام, جلست مُرهقاً منهكاً؛ كالمحموم, إلى أن أتت سلمى تحمل الصينية, وتبتسم ابتسامةً غيَّرت مِزاجي ولو قليلاً.

-"وسيم: ما بكِ يا بلهاء؟ أخبريني ماذا فعلتِ لرزان؟"

-"سلمى: بصقتُ بكأس العصير خاصتها"

ضحكت من أعماق قلبي:

-" ممن تعلمتِ هذه الأفكار القذرة؟"

-"سلمى: ممن؟, أنت تعرفها"

عاودنا الضحك ثم بدأنا بالطعام, كانت معدتي خاوية, ورائحة طعام أُمي الشهي تملئ أرجاء المنزل, بعد أن أنهينا طعامنا أعطيت سلمى الظرف, وأوصيتها أن تُعطيه لباتي, ثم أَخَذَت الصينية وغادرت.

لا أعلم ماذا أفعل؟ حياتي من الآن عادت رتيبة, أرسلت رسالة نصية لزيد رفيق همومي, وشريك هواجسي, طلبت منه الحضور ولم يتأخر, طالت سهرتنا, وتبادلنا أطراف الحديث, والهموم, كان المحور الرئيسي لحديثنا عُقلة الإصبع, لاحت في خاطري فكرة فقلت:

-" هل تُساعدني يا زيد؛ لنجد والدة بتونيا؟"

-"زيد: هل جننت؟ كيف سنجدها؟ كل ما تملكه عنها ورقة عليها اسم الأم, وبلدتها, وعلى الأغلب معلومة غير صحيحة"

-"وسيم: ولِمَ لتكون غير صحيحة ؟"

-"زيد: يا وسيم فكر بالمنطق لو أرادت أن تبحث إبنتها عنها لما باعتها؟ ثم أنت من أخبرني أن صديقتها بالسكن من أحضرتها, ربما باتي ليست لنفس الأم, أو أن تكون مسروقة مثلاً"

-"وسيم: لا مستحيل, لا أعتقد ذلك, ثم أنا أعلم اسم الفتاة التي أحضرتها, يعني إن لم نجد الأم, نبحث عن الصديقة, دعنا نُجرب حظنا, فكر.. ستتخلص بتونيا من وحدتها, وستجد والدتها, ووالدها"

-"زيد: وهل فكرت في أن تكون والدتها قد أسست عائلة ولا تريد باتي؟ أتُريد أن تكسر قلبها أكثر؟"

تنهدتُ تنهيدة يأس وحيرة, ماذا تُراني أفعل؟

-"وسيم: لن أتراجع, أُريد أن أُجرب حظي, لا تخف, لن أُخبرها إلا إذا تأكدت من وضع الأم"

بقي زيد عندي هذه الليلة, لم أستطع النوم, أما زيد فصوت شخيره يهُز غرفتي, خرجت إلى الشرفة وبحلقت قليلاً بالسماء, ثم نظرت إلى الأسفل: لحديقة أم زياد بالتحديد.. كانت منى تجلس برفقة أحمد, أعتقد أنهم يتفقون على حفلِ زفافهم, لأنني سمعت أنها ستتزوج هذا الأسبوع, كان الله بعون الجدة أم زياد.

عندما لَمَحَت نظراتي لهم أعرضت بوجهها عني, ثم أسرعت إلى الداخل؛ وكأنها تتحرك بأوامر, وكأن عقلها قد سُلب, وتمت السيطرة عليه, أشفق عليكِ يا منى من عذاب الضمير الذي سيصيبك بعد أنا يلدغك أحمد.

شَرعتُ إلى النوم, وسددت أُذناي؛ كي لا أسمع جعير زيد, استيقظت باكراً, أديت صلاتي, وأيقظت زيد لنذهب إلى الجامعة.

-"زيد: ألن نتناول طعام الإفطار؟ "

-"وسيم: هيا يا زيد, سأشتري لك شطيرة"

-"زيد: هل تظن أن شطيرتك ستشبعني؟"

-"وسيم: زيد سأبرحك ضرباً, لنخرج أولاً ثم تناول ما يحلو لك"

خرجتُ مسرعاً كي لا أصدف والدتي, سنرى من سيُعاقب الآخر.

*****

استيقظت بنشاط وحماس مستقبلةً يومي الثاني هنا, تناولنا إفطارنا, وبدلنا ملابسنا, ثم انطلقنا إلى الحافلة, نزلت الفتيات عند مدرستهن, أما أنا فوصفت طريق مدرستي للسائق. كانت سلمى وشهد بانتظاري, عندما رأيتُهن ركضت نحوهن, تعانقنا عِناقاً جماعياً, ثم بدأت الأسئلة والمُعاتبات.

-"شهد: سامحكِ الله يا باتي, لِمَ لمْ تُخبريني؟"

-"سلمى: حتى أنا لم أكن اعلم ,لا أستطيع تصديقك يا باتي, ما الّذي أخافكِ؟ لِمَ لمْ تُشاركيني سرك؟"

-"بتونيا: لا أُريد الحديث بهذا الموضع يكفيني ما عانيته, سأخبركن بشيء"

انتبهتا لي بترقب حتى قلت: "أتيت لأخذ أوراقي من هنا, سأنتقل إلى مدرسةٍ أُخرى"

ثم انفجرتا بالصراخ.

-"سلمى: مستحيل, لن أتركِكِ تذهبين لوحدك"

-"شهد: لماذا يا باتي؟ هل تظُنين أننا سَنَدعُكِ تفعلين هذا؟"

-"بتونيا: هذا طلب المشرفة ليس بقرارٍ مني, ثم لم يتبقى سوى القليل لإنتهاء السنة الدراسية, سنلتقي مجدداً "

-"سلمى: وأنا سأنتقل إلى مدرستك إذن"

-"شهد: لِمَ لأبقى هنا بمفردي؟ سأُرافقكما أنا أيضاً"

-"بتونيا: لا يا بنات, لن أقبل هذا, سنبقى على تواصل, لا تخفن لن أغيب كثيراً, بقي شهر واحد فقط "

أخرجت سلمى ظرفاً من جيب حقيبتها ومدته لي, ثم قالت:

-" خذي هذه الرسالة من وسيم. شهد هيا لنذهب إلى المديرة, سننتقل مع هذه المجنونة"

همّتا واقفتين وانطلقتا إلى الإدارة, أدعو من الله أن يرزقكم مثل صديقاتي.
انتبهت إلى ظرف وسيم, كان يُكتب عليه إلى عُقلة الإصبع بخطٍ جميل, لِمَ ليكتب لي برسالة ورقية وهو يستطيع إرسالها الكترونياً؟

فتحت رسالتي وقرأت ما خطت يديه, لا أخفيكم سلبت كلماته عقلي, إنه إنسان لطيف الروح حنون, كان سندي بكل أزماتي, أعلم أن الله لم يُخرجه بطريقي عبثاً, وأنا أيضاً سأحملك بقلبي إلى آخر عمري, دَسستُ الرسالة بحقيبتي, ثم لحقت بالفتيات؛ لآخذ أوراقي.

ذهبنا معاً إلى المدرسة الجديدة, وقدمنا ملفاتنا, بعد انتهائنا دعتنا شهد لشُرب العصير, ثم تجولنا بالشوارع حتى تهالكنا على الرصيف, بعد دقائق من جلوسنا أتى وسيم, أعلم أن المُخبرة السرية قد أرسلت له برسالةٍ نصية؛ تُخبره عن مكاننا.

-"بتونيا: سلمى, أعلم أن هذا من تدبيرك, سنتحاسب لاحقاً"

-"سلمى: من؟ أنا؟! إنها مجرد صدفةٍ لا أكثر"

اقترب وسيم منا, وقال متخابثاً:

" ماذا تفعلنَّ هنا يا فتيات؟ هل تشحذن؟ أُرشح لكن الجلوس أمام المساجد, ستجمعن الكثير, أعِدُكن"

-"سلمى: أخي هيا انضم لنا, سنكسب الكثير بسببك, هذا الشارع يحوي مدرستين للإناث"

-"بتونيا: سأكسر عُنقك لو فكرت بالجلوس"

-"وسيم: ليس لدي أدنى شك بهذا, هيا انهضنّ سأوصلكن "

أوصلنا شهد, ثم اتجهنا إلى الميتم.

-"سلمى: وسيم انتقلنا أنا وشهد إلى مدرسة بتونيا"

-"وسيم: وأمي؟ كيف تتصرفين دون أن تُخبرينا يا سلمى؟ ستُصيبينها بالجنون, ماذا سأخبرها الآن؟"

-"سلمى: لا تخف, هذه مشكلتي انا سأحلها"

-"بتونيا: حاولت أن أمنعها؛ لكنها أصرت, أنا أسفه"

-"وسيم: لم أقل هذا من أجلك يا باتي, لكنها بهذه الحركة ستثير جنون أمي"

-"سلمى: أخبرتكم أنها مُشكلتي, لا تقلقوا, سأتحمل كل شيء من أجلك يا صديقتي"

أشعر أنني أجرُ وسيم وسلمى للمشاكل, ماذا أفعل؟ أينما ذهبت يلحقون بي, وكأنني أنا والدتهما لا الخالة رنا.

نزلت من السيارة, وودعتهما, وقبل أن أتجاوز الحديقة إلى مدخل البناء, كانت تقف المشرفة ضامةً شفتيها, وحاجبيها قد انزلقا للأسفل بغضب:

-"أهلاً يا آنسه؟ أين كنتِ إلى الآن؟ وكيف تأتين إلى هنا برفقة شباب؟"

أجبت بتردد: "هذا خطيبي ومعه شقيقته, أوصلاني إلى هنا وحسب "

-"من الآن ستأتي وتذهبي بحافلة الميتم, ولا أُريد أن أرى هذا الشاب أمام البناء؛ وإلا طردتك, أتفهمين؟ هذا التنبيه الأول, وأتمنى أن يكون الأخير, هيا انصرفي إلى الداخل"

ركضت إلى غرفتي بسرعة, ثم استقريت جالسةً على السرير, إنها متسلطة, يجب أن أتجنبها.

-"لانا: ما بكِ مما كنت تهربين ؟"

-"بتونيا: من المشرفة, وبختني؛ لأن خطيبي أوصلني إلى هنا, لم نكن لوحدنا, أخته معنا لم أفهم لِمَ فعلت هذا؟ "

-"لانا : انتبهي يا عزيزتي, إذا أزعجتها بشيء؛ ستنغص عليكِ حياتك مثلما فعلت مع سارة "

-"بتونيا: من سارة؟ لا يوجد بيننا فتاة اسمها سارة"

-"لانا: كانت هنا وتسببت بطردها: فتاة لطيفه, لكنها لم تستطع السكوت عن حقها, فكانت النتيجة أن ترمي بها إلى الشارع بلا معيل"

-"بتونيا: وأين هي الآن؟ "

-"لانا: بسجن الأحداث, اعترض طريقها شاب وحاول الإعتداء عليها؛ فقتلته بسكينها التي تحتفظ بها منذ خروجها من الميتم"

-"بتونيا: ماذا؟ لا أستطيع التصديق"

-"لانا: لا تسمحي لها أن تحنق عليكِ, أخبري خطيبك أن يبقى بعيداً عنك, انتبهي أرجوك"

لا حول ولا قوة إلا بالله, إلى متى سأبقى من يد إلى أخرى

أمضيت اليوم بشكل طبيعي, ثم اتجهت إلى فراشي, كنت قد أخفضت صوت هاتفي؛ كي لا يتسبب لي بمشكلة أنا بغنى عنها, دفنت نفسي بغطائي, ثم طلبت وسيم.

أجابني بصوتٍ نعس:

"باتي, هل حدث معكِ خطبٌ ما؟"

قلت مواريةً تفاصيل الحقيقة:

-"أنا بخير, لا تقلق, اتصلت بك؛ لأخبرك أن لا تأتي إلى مدرستي, وإلى المركز لفترة"

قال بنبرةٍ مُتهدجة تشيءُ بالضيق:

" ماذا حدث معكِ يا باتي؟ وعدتني أن لا تُخفي عني شيئاً, هيا أخبريني"

أجبت وأنا أتمالك نفسي بصعوبة؛ كي لا أبوح له بما يُضايقني:

" لا شيء, نبهتني المشرفة اليوم؛ كي لا أقع بمشاكل مع المديرة, لأن هذا يُخالف القوانين هنا"

-"وسيم: سأبدأ بقوانينهم الآن, ما هذا التسلط؟"

-"بتونيا: سأستحملهم لفترة قليلة, ثم أخبرتك الأمور بخير هنا, فقط يجب أن ألتزم بالقوانين, لا تُزعج نفسك أرجوك, لنُمضي هذه الفترة على خير"

أردفت: " دعك مني الآن, أخبرني ماذا تفعل؟"

-"أُحضر لامتحاناتي, صحيح جدتك توصل سلامها لكِ"

آلمني قلبي, كيف كُنا؟ وكيف أصبحنا؟ جدتي كانت أمي الثانية التي سرقتها مني عمتي منى, مع هذا لا أستطيع أن أبغض عمتي, فقد أمضينا أياماً جميلة لا تُنسى.

-"وسيم: أين شردتِ يا باتي؟"

-"بتونيا: ما أخبار عمتي منى؟ هل تعلم عنها شيئاً؟"

-"وسيم: أخبار لن تسرك, ستتزوج في الأسبوع المقبل وتنتقل مع زوجها إلى محافظةٍ أخرى وطبعاً ستأخذ الجدة أم زياد معها, سمعت أيضاً أنها ستبيع المنزل"

-"ماذا؟ مهلاً على قلبي يا وسيم, كيف ستفعل هذا؟ هل جُنَّت؟ لِمَ لتبيع المنزل الذي نشأت به؟ كيف ستهدر ذكرياتنا وماضينا بغمضة عين؟

ألا يكفي أنها ستحرمني من رؤية جدتي؟ ماذا يحصل لها؟ لم أعُد أعرفها"

غصصت بكلماتي ولم أستطع تمالك نفسي, وبكيت, بكيت سنوات عمري دفعةً واحدة.

انتبهت لصوت وسيم أخيراً:

"أرجوكِ اهدئي, هذه الدنيا بأكملها ستذهب, والأحوال سوف تتبدل, لا شيء يبقى على حاله, لكن تذكري كلماتي هذه, ستعود نادمة يا باتي"

-"بتونيا: أخاف أن تعود بعد فوات الأوان يا وسيم"

-"وسيم: لا تقلقي, وأرجوكِ لا تُزعجي نفسك, تخطيتِ الكثير وستتجاوزين هذه أيضاً"

-"بتونيا: إن شاء الله.. وسيم أُريد أن أرى جدتي قبل سفرها, ماذا سأفعل؟"

-"وسيم: إسمعي.. بعد أسبوع تُخبرين معلمتك في المدرسة بقصتك, وأعتقد أنها ستتعاطف معك, وأنا سأكون بإنتظارك في الخارج, نعود بعد ساعة لا تقلقي"

-"بتونيا: لِمَ لا نذهب غداً؟"

-"وسيم: ألم تخبريني أن المشرفة نبهتكِ اليوم؟ لنترك الموضوع ليهدأ"

-"بتونيا: معك حق, هيا لن أعطلك, عُد إلى دراستك"

-"وسيم: أوامرك مطاعة, و أنتِ اذهبي واخلدي إلى النوم, ولا تفكري كثيراً أرجوكِ, سنحل كل الأمور معاً, تُصبحين على خير حبيبتي"

-"بتونيا: تصبح على خير, استودعتك الله الذي لا تضيع ودائعه"

أغلقتُ الهاتف وانخرطت ببكاءٍ يُدمي القلب, كان الجميع قد ناموا, ضاق نفسي, ونهضت من سريري, توجهت إلى النافذة؛ علني أتنفس هواءً نظيفاً.

آهٍ يا أمي, لِمَ جعلتني هشة كعجينة الدونات؟ ليتكِ صنعتِ مني حلوى صلبة صعبة الكسر, لكن هذه أُمي رقيقة القلب, دافئة الإحساس, كيف لها أن تصنع عكس طبيعتها؟.

تنهدت طويلاً ثم عُدت إلى فراشي, وأغمضت عينيَّ أطلب النوم.

*****

استيقظت باكراً, اغتسلت وبدلت ملابسي, ثم ذهبت إلى غرفة سلمى؛ لأستعجلها, فطريقنا واحد اليوم.

"هيا يا سلمى لقد تأخرنا"

-"سلمى: اوه أخي, ما زال الوقت باكراً لِمَ كل هذه العجلة"

-"وسيم: سأصطحب باتي إلى بيت جدتها اليوم "

-"سلمى: وماذا لو كانت منى في المنزل؟"

-"وسيم: لتفعل ما تشاء, سترى باتي جدتها اليوم ولو كلفني هذا الأمر أن أقتل منى وخطيبها"

-"سلمى: هي, ما بك اشتعلت غضباً؟ أذكر الله ودعنا نخرج "

-"وسيم: هيا أسرعي, لا أريد أن أُرى أمي, صحيح هل أخبرتها عن أمر المدرسة؟"

-"سلمى: لا, لم تسنح لي الفرصة, لم أشأ أن نختلف أمام خالتي و رزان, أُخبرها عندما أعود"

-"وسيم: كما تُريدين, لنخرج"

انتظرت قرابة الساعة أمام المدرسة, حتى بانت باتي, خشيت أن يذهب تخطيطنا هدراً.

-"بتونيا: السلام عليكم, آسفة تأخرت قليلاً "

-"وسيم: لا عليكِ, هل مشت الأمور على ما يُرام؟"

-"بتونيا" أجل, الحمد لله لقد تفهمت وضعي, هيا أسرع أرجوك, لا أُريد أن أتأخر, يجب أن أعود مع باص المركز"

إنطلقنا إلى منزل أُم زياد, كانت سيارة منى أمام الباب, مما زاد من إرتباك باتي

-"وسيم: لننزل هيا يا باتي"

-"بتونيا: لا أستطيع, عمتي هنا, لا أُريد أن نتجادل, ولا أود أن أُسبب المشاكل لجدتي, لننتظر قليلاً"

أمضينا ساعة ونصف دون أن يتغير الوضع, ثم قررت أن أخذها إلى الداخل ولو بالقوة.

أمسكت بمعصمها وقلت:

-" هيا لنذهب"

-"بتونيا: لكن يا وسيم"

-"بتونيا: طال إنتظارنا يا باتي, يجب أن تعودي إلى المدرسة, ويجب أن ندخل المنزل الآن, أرجوكِ لا أُريد أن نعود خاليين الوفاض"

استجابت أخيراً لطلبي, ورافقتني إلى باب المنزل بتوتر شديد, كانت تقبض على ذراعي الأيمن مختبئةً خلفي, طرقت الباب عدة طرقات حتى انبلج وبانت منه الجدة أُم زياد, عندما رأتني ضحكت, ثم انتبهت إلى بتونيا التي أطلت برأسها بخفة؛ لترى جدتها كقطة لطيفة.

-" أُم زياد: لا أُصدق عيناي, باتي يا ابنتي كيف فعلتها؟"

انطلقت عقلة الإصبع واستقرت بأحضان جدتها, واحتدت أصوات البكاء وكأنني عُدت لمشهد وفاة والديها, طال العناق وبللتهما الدموع.

-"بتونيا: أرجوكِ يا جدتي لا تذهبي, ابقي هنا, لا تجعلي عمتي تفعل ما تريد, أرجوكِ إبقي معي"

-"ام زياد: لا أستطيع يا صغيرتي, أصبح كل ما نملك لأحمد"

-"وسيم: ماذا؟ كيف حدث هذا؟"

-"أم زياد: لا أعلم يا ولدي, لقد باع كل شيء ويجب أن نذهب الآن معه "

-"بتونيا: ومنزل والداي؟"

-"أم زياد: نقلته منى إلى اسمي وكأنها كانت تعلم ما سيحصل, أخبرَت أحمد أن زياد وضعه ب إسم حياة قبل أن يموت؛ لهذا لم يسأل عنه"

-"بتونيا: إذن ابقيا بمنزل والداي, أرجوكِ يا جدتي أقنعي عمتي منى"

-"أم زياد: حاولت كثيراً, تحب أحمد بطريقة مُخيفة, لا أعلم إلى أين ستجرُنا؟ ولا أستطيع أن أتركها له وأبقى هنا, سنعود لا تقلقي, لن تطول زيارتنا "

عادت بتونيا واندثرت بأحضان جدتها:

" وإن لم تعودي؟ ماذا أفعل أنا؟"

-"أم زياد: أعدك يا طفلتي عندما أطمئن عليها سأعود وأعيش معك بمنزل زياد "

طال العناق مرةً أُخرى, إلى أن زعزعته منى بصوتها:

" ماذا يحصل هنا؟"

هلعت باتي من صوتها, ثم حوَّلت نظراتها إليها, وانطلقت نحوها تطوقها بذراعيها وهي تهتف:

"أرجوكِ ابقي هنا, أحمد لا يحبك, أنا أُحبك أكثر منه, ابقي هنا يا عمتي"

دفعتها منى إلى الخلف؛ فسقطت على عتبة الباب, ثم قالت:

"وأنا أُحب أحمد ولا احبكِ, من تظنين نفسك؟ مُجرد فتاة غريبة, مجهولة الأبوين, من أنتِ لتُحبيني أكثر من زوجي؟ هيا انصرفي من أمامي قبل أن أبلغ الأمن"

ثم سحبت أم زياد إلى الداخل, وضربت الباب.

أسرعت إلى باتي أرفعها عن الأرض, وأخذت أمسح على رأسها وأُحيطها بذراعي, ثم دعوت على منى من أعماق قلبي, ولو أنها لم تغلق الباب لشوهت وجهها, أتمتلك حجراً بين أضلاعها؟ ذنبت نفسي؛ لأنني دفعت باتي إلى هذا الموقف المحرج.

صعدنا إلى العربة لنعود إلى مدرستها, كانت تُخفي وجهها بيديها, وجسدها يرتجف, أمسكت إحدى يديها وقلت:

"سنتجاوز هذا أيضاً, أنتِ قوية, أنظري إلى عيناي سنتجاوزه معاً, هيا كفكفي دموعكِ, يكفي ما أهدرتِ من دموعِ من أجل شخصٍ لا يستحق"

وَضَعَت باطن كفها الأخرى على يدي وقالت:

"إن شاء الله "

عندما وصلنا كان الباص يصطف أمام المدرسة؛ فلحقت به سريعاً دون أن تودعني, بعد دقائق أتت سلمى فأدرت المقود لنعود إلى المنزل.

-"سلمى: ماذا حدث؟ هيا أخبرني بسرعة؟"

-"وسيم: رأينا منى"

-"سلمى: ماذا؟ بالتأكيد نغصت لقاء باتي بجدتها, لعنها الله, أصبحت أكرهها"

-"وسيم: وأنا يا سلمى, تمنيت أن أقتلها"

وصلنا إلى المنزل وأخيراً, كانت أمي بانتظارنا والشرر يتطاير من عينيها, رنوت إليها متسائلاً فهتفت:

" ماذا تفعلون؟ هل تريدون أن تُصيبوني بالجنون؟ أنتِ يا سلمى كيف تنتقلين من مدرستك دون إخباري؟ لِمَ فعلتِ هذا؟ وأنت يا وسيم ألا تزال ترافق بتونيا؟ هذه الفتاة كُتلةٌ من البلاء والشر, أينما

حلت دمرت, لا أُريدها في حياتي, أرجوكما افهماني أنا أم, وأريد استعادة أبنائي "

أجابتها سلمى سريعاً: "أمي اهدئي لو سمحتِ, نحن نُحبكِ أكثر من أي شيء في الدنيا, أنت أساس حياتنا, ولا ننكر فضلك, لكن لا تطلبي مني أن أترك صديقتي بمنتصف الطريق, أنتِ لم تربيني على هذا "

-"رنا: أتبيعينني من أجل صديقة تعرفتِ إليها منذ سنتين؟ أهكذا ربيتكِ؟ أن تفضلي الغرباء علي؟"

-"وسيم: أمي اجلسي أرجوكِ, ارتاحي قليلاً, ولا تتوتري, لِمَ تُضخمين الموضوع؟ هي في النهاية صديقة سلمى وخطيبتي, ليست غريبة, ستصبح زوجتي قريباً, لماذا تُريدين إبعادها عن حياتنا, وأنت تعلمين أن روحي مُعلقةٌ بها؟ لماذا؟ ألم تُخبريني أنتِ كيف حاربتِ للزواج من والدي؟ بالرغم من معارضة أهله."

-"رنا: أجل كافحت وكثيراً, لكنني لم أكُن بلا نَسَب, ولا أصل لي ولا فصل, كيف تطلب مني أن أقبل بزواجك من هذه الفتاة؟ ماذا سيقول أقاربنا؟ ماذا سيقول الناس؟ "

-"وسيم: أخبريني من البداية أن همكِ هو كلام الناس, أتُفضلين كلام الناس على سعادة أبنائك, ومن ثم تُنصِّبين نفسكِ أُماً, لا يا عزيزتي الأم أقرب لأبنائها من أي شيء, تشتري راحة بالهم, وتجهد لزرع الفرح في دواخلهم, أتظُنين الأمومة: فقط بالمال, والملابس, ومستوى المعيشة

المرموق؟ أين اختفت رقتك؟ أين ذهب حُبك لنا؟ لم أعد أعرفك, اكتشفت أنك ومنى وجهان لعملةٍ واحدة"

ثم انسحبت من النقاش العقيم, وهممت خارجاً إلى الفناء, ركبت سيارتي وذهبت إلى زيدٍ الحبيب.

*****

عدت إلى الدار مكسورة الخاطر, اعتذرت عن تناول الطعام, وأرسلت رسالة نصية لوسيم بأنني سأنام, وأغلقت هاتفي خوفاً من مصائبٍ أُخرى, حاولت النوم كثيراً ومحاولاتي باءت بالفشل, لم أستطع إخراج عمتي من بالي, كيف لإنسانٍ تشاركت معه كل شيء حتى الصِعاب أن يُنكِرك؟ كيف لها أن تتركني؛ لأنني لا أحمل كنيتها؟.

-"لانا: ما بك بما تفكرين؟"

-"بتونيا: بعمتي"

-"لانا: إلى متى؟ ألا يكفي ما عانيته بسببها؟ لأُذكرك أنتِ هنا بفضلها, دعيها, لا تُفكري بها, ولا بماضيكِ, استجمعي قواكِ وأخرجي من القمقم الذي حبست نفسك به"

-"بتونيا: والله أنني حاولت كثيراً, لكن ماذا أفعل؟ أنا إنسانة إنتمائية, أُحِب بيتي, أهلي, صديقاتي, ووسيم, لا أُحب أن أخسر أحدهم, أنتمي لهم بروحي, ولا أُحب التجديد, أنا مُكتفية بهم "

-"لانا :وأنا يا باتي, ألم تُحبيني ولو قليلاً؟ "

-"بتونيا: لا, أبداً, أنت أقرب صديقةٍ لي هنا, نعم أنا إنتمائية جداً, لكن حياتي تفرض علي أن أتعرف على المزيد من الشخصيات, والأماكن, وهذا لا يعني أن لا أتقبل كل ما هو جديد, ربما هذا الأفضل من أجلي؛ لكنني فقط أُفضل حياتي السابقة: بحلوها ومُرها, و أتمنى لو يعود الزمان إلى الوراء, خمس شهورٍ وحسب, أن أعيش في هذه الفترة إلى الأبد "

-"لانا: إذن علينا أن نصنع لك آلة الزمن, لا يوجد حل آخر"

ضَحِكت على تعليقها, فقالت:

" هذا ما أُريده, أن أرى صف أسنانك الجميلة"

ثم أخْرَجَت من دُرجها قطعة شوكولاتة ومدتها نحوي, أخذتها منها ثم سألتها: "لو جمعتك الحياة بوالديكِ ماذا ستفعلين؟"

-"لانا: أتعلمين؟ أمضيت عُمري بالتفكير بجواب هذا السؤال, لا أعلم, أنا أُردد بلساني عكس ما أتمناه بقلبي, أريد أن أصرخ عليهم, أن أشتمهم, أضربهم وأمسحهم من حياتي؛ هذا ما أقوله, لكن لو حصل هذا حقاً, سأرتمي بأحضانهم, لن أعاتب ولن أغضب, أُريد أن أشعر بالأمان فقط"

نهضت عن سريري وجلست بقربها, مسحت على رأسها ثم قلت مواسيةً:

"لا تعلمين ماذا تُخفي لنا الحياة, ربما القادم أجمل, الحياة مليئة بالصدف, وحتى لو لم تلتقي بهم؛ فكله لخيرٍ نجهله"

حاوطتني بذراعيها, وسالت دموعها بصمت, ثم قالت:

"أنا خائفة جداً مما ينتظرني, فبعد شهرين من الآن سيُخرجونني من الدار, ماذا سأفعل؟ إلى من سألتجئ؟ "

-"بتونيا: لا تخافي لنتركها إلى وقتها, إذا أردت أخرج معك, فلا فرق بين شهرين أو سبعة, نبقى معاً إلى أن يفرجها الله علينا"

-"لانا: أنا لا أُصدق, هل ستفعلين هذا من أجلي؟ ما أجمل قلبك يا عزيزتي!"

فرَّق عناقنا صوت المشرفة التي دخلت إلى غُرفتنا وهي تُزمجر, ويتبعنها فتيات الميتم.

"من السارقة منكن؟"

-"لانا: سرقة ماذا؟"

-"المشرفة: لقد سُرق من حقيبتي خمس مائة دينار, إحداكن سَرَقتها"

-"بتونيا: كيف سنسرق من حقيبتك؟ وأنتِ تُغلقين الباب بالمفتاح"

-"المشرفة: لا تُقللي أدب, كان الباب مفتوحاً اليوم, هيا انهضن سأفتش الغرفة"

أطرقتُ قليلاً لأفكاري, ثم تذكرت المبلغ الذي أعطتني إياه جدتي (خمس مائة دينار) ما الذي يحصل؟ ستعتبرني السارقة, كيف سأُخفي نقودي الآن؟ لقد فات الأوان.

بدأت بأسرة شقيقاتي بالغرفة ولم تجد شيئاً, ثم نظرت نحوي نظرة شر, وابتسمت ابتسامة صفراء, أشعر وكأنها تتحايل لتأخذ مالي, ثم اقتربت من سريري, وعندما فتحت الحقيبة وجدت النقود.

-" المشرفة: ما هذا؟"

-"بتونيا: هذه نقودي, أعطتني إياهُنَّ جدتي "

-"المشرفة: أتُمازحينني؟ جدتك التي وضعتك هنا أعطتك هذا المال, أنا لم أُصدقك"

بدأ جسدي يرتعش, لم أعرف كيف سأُدافع عن نفسي؟ فأنا الآن أصبحتُ سارقة بنظر الجميع.

-"بتونيا: هذه نقودي, لم أسرق شيئاً, أرجوكِ أعيديها لي, أنا أُخبئها إلى وقت خروجي من هنا "

-"المشرفة: هل تظنين أني بلهاء؟ هيا أُخرجي أمامي إلى الإدارة, لن أُبقيك هنا دقيقةً واحدة."

مضيت معها لا أكاد أتبين طريقي من فرط الدموع, عندما وصلت إلى غرفة المديرة, كانت فارغة, أقفلت الباب وقالت:

"إذا أردتِ البقاء هنا ستعتذرين الآن مني, وتعترفين بسرقتك لأموالي"

-"بتونيا: لكنني لم أفعل, والله لم أسرق شيئاً, هذه نقودي "

-"المشرفة: لم أسمع ما قلتِ, هل كنت تعتذرين؟"

لم أعلم بما أُجيبها, أعرف أنها خططت لأخذ نقودي, وفي الخارج ليس لي مكان أذهب إليه, مُجبرةٌ على البقاء هنا, استسلمت للأمر الواقع وقلت:

"أنا أسفه, أعتذر منكِ؛ لكنني لم أسرق"

-"المشرفة: لم أسمع"

-"بتونيا: أنا أسفه؛ لأنني سرقت مالك"

-"المشرفة: هيا انصرفي من وجهي, واعلمي أنني أراقب كل تصرفاتك, واعترافك بالسرقة سُجل هنا على هاتفي, لن تفتحي الموضوع مع أحد, وإلا أرسلتك إلى سجن الأحداث, ودمرت حياتك, هيا أخرجي من هنا"

خرجت من الغرفة وابتعدت سريعاً عنها, لم أشعر بحياتي بالظلم هكذا, لم أستطع حتى أن أدافع عن نفسي, كيف سأخرج للحياة بعد شهرين وأنا مهزومة؟ بلا شخصية. أنا خائفة جداً, أشعر بالأسى لحالي.

عندما وصلت الغرفة اتجهت لسريري متجاهلةً نظرات الفتيات, دفنت نفسي تحت غطائي, وأخذت أنحب.

-"لانا: هيا تفرقن, لا أريد أن أرى أحداً هنا"

ثم شعرت بيدها ترفع الغطاء عن وجهي, رفعتني إلى حجرها, وأخذت تبكي بكائي, يا له من يومٍ عصيب.

فكرت أن أخبر وسيم, لكنني تراجعت, لن أسبب له القلق, امتحاناته على الأبواب. لم أنم ليلتها, ونسيت أن أفتح هاتفي, بالتأكيد جُنَّ جنون وسيم,

شغَّلت الهاتف, وبدأت تنهال علي رسائله هو وسلمى, أرسلت له:

"أنا بخير, لا تقلق, كنت نائمة, ونسيت هاتفي مغلق"

بعد ثوانٍ قليلة رن هاتفي, كان هو طبعاً.

-"وسيم: ما خطبك يا باتي؟ كيف تُغلقين هاتفك؟ لماذا تفعلي هذا؟ أنا لا أفهمك"

-"بتونيا:ما بك؟ اهدأ, أنا آسفة, كنت نائمة والآن استيقظت"

-"وسيم:ما بال صوتك؟ هل أنتِ مريضة؟"

-"بتونيا: لا يا وسيم, أخبرتك أني بخير, و ها أنا أعتذر منك, هيا لا تُطل الموضوع"

-"وسيم: هل أمضيتِ ليلة الأمس بالبكاء؟"

لا أعلم بما أُجيبه, فهو يحفظني عن ظهر قلب, كيف أخفي عنه؟ كفى, يجب أن أصبح قوية, لن أدع أحدهم يُشفق على حالي.

أتاني صوته مرةً أخرى:

"أتُريدين إخباري يا عزيزتي؟"

-"بتونيا: بكيت قليلاً على حادثة الأمس, لكنني الآن بخير"

-"وسيم: أتمنى أن تبقي دائماً بخير, صحيح هل أستطيع رؤيتك اليوم؟"

-"بتونيا: لا يا وسيم, أرجوك لننتظر قليلاً بعد"

-"وسيم: ما بكِ يا باتي؟ هل تخافين من شيء؟"

-"بتونيا: لا يا عزيزي, أخبرتك فقط من أجل القوانين"

-"وسيم: كما تريدين يا عقلة الإصبع, سأتصل مساءً, لا تُغلقي هاتفك أرجوكِ"

-"بتونيا: إن شاء الله, مع السلامة"

ارتديت ملابسي واعتذرت عن طعام الإفطار, وانتظرت الجميع في الحديقة, لا أُريد أن أرى نظراتهم نحوي, خرجت لانا وجلست بقربي, ثم قالت:

"أعرف أن هذا من تدبير المشرفة, لا أُريدك أن تحزني, سيُبدلك الله خيراً من هذه النقود"

-"بتونيا: كنت سأستأجر بيتاً, وأتدبر أمري بتلك النقود إلى أن أجد عملاً"

-"لانا: ما بكِ؟ لن يترك الله أحداً, ثم ماذا ستفعلين؟ هذا نصيبنا من الدنيا, على الأقل أنت تحملين هوية مواطن طبيعي, فكري أنت بهذا أفضل مني بدرجة, وأيضاً مخطوبة؛ مما يعني أنك ستتزوجين, وبهذا أصبحتِ أعلى مني بدرجتين, ولن يُهمك أمر العمل والبيت"

-"بتونيا: لكنني لن أتزوج الآن, وربما لن أتزوج, لن أقبل أن أفرض نفسي على والدة وسيم, لن أتزوجه إلا إذا باركت الخالة رنا هذا الزواج"

-"لانا: أوه, لقد انتفخ طحالي من كلامك, لو كنت مكانك؛ لتزوجته الآن دون أن أُفكر بالعواقب, سترضى عن الزواج بمرور الوقت"

-"بتونيا: هيا انهضي أتت الحافلة"

-"لانا: تهَرَبي من الحديث كعادتك"

ذهبت لأُعرف لانا على سلمى وشهد, وبعد مراسم التعارف, انتبهت سلمى لوجهي:

"هل أنتِ مريضة يا باتي؟"

-"بتونيا: أنا بخير, ما بال الجميع يسألني هذا السؤال؟"

-"شهد: لأن وجهك شاحب, وجفونك منتفخة وحمراء, وكأنك أمضيتِ الليل بالبكاء والسهر"

أصبتِ والله يا شهد, لم يغمض لي جفن, ولم تتوقف لي دمعة.

-"لانا: لأنها أمضتها فعلاً بالسهر والدموع"

نظرتُ بسرعة نحو لانا, وحدجتها ثم قلت:

" لا تُصدقاها, كنت متضايقة من عمتي وبكيت قليلاً"

سلمى بعدم تصديق:

"قليلاً ؟"

-"بتونيا: أتركاني من هذا الحديث, لنلحق بالدرس قبل أن توبخنا المعلمة"

-"لانا: المشرفة البارحة أخذت نقودها, واتهمتها بالسرقة"

ارتسمت على ملامحهن علامات الدهشة: اتسعت حدقاتُهن, وتدلت الشفاه, وتقوست الحواجب.

-"بتونيا: لانا, ماذا فعلتي حباً بالله ؟"

-"لانا: لِمَ لتُخفي عنهن ؟"

التفتت إليهما وأخبرتهما بما حدث مجبرةً, فما كان من سلمى إلى أن طوقت عُنقي, وقالت:

"كيف تتحملين كل هذا يا باتي ؟ كيف ؟"

تجمعن حولي في عِناق جماعي, ودموع منهمرة.

-"شهد: ماذا ستفعلي الآن؟"

-"بتونيا: لن أفعل شيئاً, سألتزم الصمت"

-"سلمى: أجُننت؟ سأُخبر وسيم؛ ليتصرف معها"

-"بتونيا: لا تفعلي هذا, إلا وسيم, لن أتكلم معك لو فعلتها يا سلمى, دعيه يهتم لامتحاناته "

-"شهد: ولِمَ اسمه خطيبك؟ هل لتُخفي عنه كارثة مثل هذه؟ أجننت؟ هذه الإنسانة سيئة, أتوقع منها كل شيء, ألا تخافي أن تُدخلك سجن الأحداث؟ سيتدمر مستقبلك لو فعلتها"

-"سلمى: أنا أوافقها بكل ما تقوله, لن أسمع كلامك"

-"بتونيا: بنات, هلّا توقفتنَّ قليلاً؟ قلبي يؤلمني, لا أستطيع تحمل توالي الأحداث السيئة, افهمنني أرجوكُن, أريد أن أعيش فترة ساكنة بلا مصائب, لا تُحملنني ما لا أطيق, يكفيني ما أعانيه, لا أريد للموضوع أن يكبُر, ولن يعلم وسيم, أسمعتي يا سلمى؟ لن يعلم."

ثم تركتهن وجلست على مقعدي, أنظر إلى المعلمة وأفكر بحالتي التي وصلت إليها.

*****

مر شهرٌ رتيب خالٍ من أية أحداث, سلمى تُمضي أغلب أوقاتها برفقة شهد, وأمي تكاد تُقيم في منزل خالتي, أما أنا فمنشغلٌ باختباراتي, ومَنفسي

الوحيد هو زيد؛ لأن عُقلة الإصبع تهْملني بشكل فضيع, أُحادثها لمدةٍ لا تزيد عن دقائق يوماً بعد يوم, أكاد أُجن, أشعر بأن خطبٌ ما حل بها ولا تخبرني, تتجنب الحوار معي متعمدةً, احترت فيما أقوله وأفعله, ولم أشأ الضغط عليها كثيراً, ماذا تُراني أفعل؟ والله لم أعد أعلم.

صحيح نسيت أن أُخبركم: سافرت منى والجدة أم زياد قبل يومين, صادفت الجدة عند الباب وودعتها, وصتني على باتي وأعطتني مبلغاً من المال؛ لأوصله لها (المبلغ المتبقي من المال الذي خبأه زياد لباتي) طبعاً لم تسنح لي الفرصة لأخبارها بالمال؛ لأنها عندما سمعت بخبر سفرهما إعتذرت مني وأغلقت الهاتف, لا أعلم ما يحصل لها, وأخاف كثيراً أن نفترق.

قطع سلسلة أفكاري صوت سلمى الباكي:

"وسيم.. هيا إنهض سنذهب إلى المستشفى"

سقط قلبي إلى قدماي, هل بتونيا؟ أجبتها بتوتر:

"من يا سلمى؟"

-"سلمى: رزان حاولت الإنتحار, ووضعها حرج"

-"وسيم: رزان! هل يُعقل هذا؟ رزان تحب الحياة كثيراً, لماذا؟ ما الّذي حدث؟"

-"سلمى: لا أعلم يا وسيم, هيا أرجوك ارتدي ملابسك سريعاً"

هززت رأسي موافقاً, وهممت أبدل ملابسي.

كان الوقت متأخراً, والأجواء مضطربة, خالتي تبكي فوق رأسها, أسرعت أمي تحتضنها وتواسيها, عندما رأتني صرخت, وطلبت مني الخروج من الغرفة حالاً, لا أُخفيكم صُدِمت, ما علاقتي بما جرى لرزان؟ هل تُفرِغ حَنَقها بي؟

-"رنا: وسيم أُخرج الآن يا صغيري"

-"وسيم: ماذا فعلت لها؟ منذ أسبوع لم أُغادر غرفتي"

-"سلمى: أخي, هيا دعنا ننتظر في الخارج"

انصعت لأوامرهم وخرجت إلى الممر, أضرب أخماساً بأسداس, ما بال الجميع؟ لا أعرف من سأُساير.

أقبلت سلمى تمسح على رأسي مواسيةً ثم قالت:

"لا تعبس وجهك أرجوك, أُخرج واستنشق بعض الهواء "

-"وسيم: لا أستطيع يا سلمى, سأنتظر هنا, كل يوم يصبح أسوأ مما سبقه, لم أعد أعلم من أُداري؟ وممن أعتذر؟"

-"سلمى: لا تهتم يا أخي, سنعالج المواضيع, لننتظر أمي, حينها نعرف ما علاقتك بقصة رزان"

انتظرنا والدتي ساعةً كاملة حتى انبلق الباب و ظهرت

توجهت إلى أمي مهرولاً, وقلت:

-"لماذا أنا؟ ماذا فعلت لها؟"

-"رنا: أنت السبب يا وسيم, لِمَ تُعطها أمل وتتخلى عنها؟"

-"وسيم: ماذا؟! كيف أعطيتها أمل بالله عليكِ؟ كم مضى على خطوبتي؟ هل تذكرت أن تحزن الآن؟"

-"رنا: أنت أخبرتها: أنك ستنتقم من بتونيا, وتتزوجها"

-"وسيم: لا, أبداً, أخبرتها: أنني سأنتقم من باتي؛ كي تغض بصرها عنا, لكن أقسم لكِ أنني لم أُلمِّح لها لا لخطوبة, ولا لزواج"

-"رنا: ربما نسيت, لقد سلبت باتي عقلك"

لقد جُنَّ جُنوني, خرجت دون أن أتفوه بحرف, سمعت صوتها هي وأختي يهتفان لي, ولم أُعرهما أدنى انتباه, ثم أتممت طريقي إلى خارج المستشفى.

حاولت الاتصال بباتي لكن عبث هاتفها مغلق, لم يتبقى لي سوى زيد, طلبت رقمه وانتظرت قليلاً, أجابني بصوتٍ ناعس, انتبهت إلى الساعة كانت متأخرة جداً, قلت:

"أنا أسف يا زيد, أزعجتك, لم أنتبه إلى الوقت"

-"زيد: ماذا حدث؟ ما بال صوتك؟"

-"وسيم: لا تكترث لي, عد إلى نومك, نتحدث غداً"

-"زيد: لا والله, أخبرني ماذا حصل؟"

-"وسيم: سآتي للمبيت عندك, هل لديك مانع؟"

-"زيد: هل تمازحني يا وسيم؟ أنت ستنام عندي؟!, إذن المشكلة كبيرة. هيا أنتظرك, لا تتأخر"

أغلقت الهاتف وقصدت منزله, بالأصح منزل عمي, لا أعلم كيف سأجرؤ على دخوله؟ هذا البيت الذي لم أقصده منذ وفاة والدي.

كان زيد ينتظرني بالخارج, وعندما رآني أسرع نحوي متسائلاً:

"ماذا حدث؟"

أخبرته بما يؤرق تفكيري, وتنهدت طويلاً, ثم أغلقت هاتفي الذي لم يتوقف عن الرنين, دخلت منزل عمي خفيةً, لم أستطع النوم, أفكاري كثيرة, ومتداخلة, غلبني النعاس بعد صلاة الفجر, لم أطل النوم؛ فقد أيقظني زيد في السابعة, لنخرج من المنزل قبل أن يرانا أحد.

استيقظت متثاقلاً, ثم تذكرت أين أنا؟, وفززت واقفاً, وقبل أن نفتح الباب, أتانا صوت عمي, هذا ما كان ينقصني:

"وسيم؟ ماذا تفعل هنا؟ هل حدث لأحدكم شيء؟"

-"وسيم: لا يا عمي لم يحدث شيء, أتيت؛ لأستعيد دفاتري من زيد"

-"ابو زيد: إذن, انتظر لنتناول طعام الإفطار معاً"

ماذا؟ لا. إلى هنا وكفى ماذا يحدث؟ ما التغيرات السريعة التي تطرأ على الناس من حولي؟ سأفقد عقلي.

-"ابو زيد: وسيم.. وسيم"

انتبهت إلى صوته وأجبت:

"لا أستطيع, يجب أن أذهب"

-"أبو زيد: لا, لن أدعك تذهب, هيا تفضل إلى غرفة الجلوس"

-"وسيم: كما تريد"

ثم همست في أُذن زيد:

"هل أصيب والدك بالزهايمر؟ أو ربما فقد عقله كلياً, ما الذي يحدث له؟"

ضحك ثم أمسك بيدي يشدني إلى الداخل, أعجبني الوضع كثيراً, جلسنا كعائلة: عمي وزوجته, وزيد, هالة, وأسيل, افتقدت هذه التجمعات منذ زمن, تحدثنا بأمور عامة, وتبادلنا النكات, والذكريات, تبدل مزاجي قليلاً ثم ودعتهم وذهبنا إلى الجامعة, سأبدأ أول امتحاناتي اليوم.

تذكرت هاتفي المغلق, فتحته وانهالت الرسائل: أمي, وسلمى, وباتي .. أرسلت إلى باتي متسائلاً عما تريده, فرن هاتفي سريعاً

-"بتونيا: أين أنت يا وسيم؟ لِمَ هاتفك مغلق؟"

-"وسيم: برفقة زيد, وأغلقت هاتفي؛ كي أريح رأسي"

-"بتونيا: ما بك؟ لِمَ ترد بإقتضاب؟"

-"وسيم: لا شيء, سيبدأ امتحاني بعد قليل, يجب أن أُغلق, نتحدث لاحقاً في وقت فراغي"

-"بتونيا: لو أنك لا تعاكسني, ماذا فعلت لك؟"

-"وسيم: لا شيء, عاد عقلي إلى رأسي للتو"

-"بتونيا: ماذا تعني؟"

-"وسيم: لا تكترثي, هيا وداعاً"

وأغلقت الهاتف قبل أن أسمع ردها, ثم اتصلت بسلمى وطمأنتها عني, وأغلقت هاتفي مجدداً.

-"زيد: ما ذنب باتي يا وسيم؟ هل حان دورك الآن لتقف ضدها؟"

-"وسيم: أولاً اسمها بتونيا, سأسحب لسانك إذا نعتها باتي مرةً أخرى ..ثانياً أردُّ لها القليل من جفاءها, لم أعد أحتمل أن أُداريها , أحارب الجميع من أجلها, وهي لا تُكلِف نفسها أن تتحدث معي أكُثر من دقيقتان على عجل, ومن دون أي إطراء, أو كلمة لطيفة, وأنا أيضاً إنسان, لم أعد أحتمل "

-"زيد: يا أخي ضع لها عُذراً, ربما يحدث معها شيء لا تعلمه"

-"وسيم: هنا المشكلة يا زيد, أنا متأكد بأنها في مشكلة, حاولت كثيراً معها؛ لتخبرني, لكن عبث, ماذا عساي أن أفعل؟ هل أُقبِّل قدميها؟ لا تُريدني أن أزورها, وهاتفها دائماً مُغلق, يا أخي قلبي يؤلمني؛ أخاف أن أفرض نفسي عليها, أخشى أن تكون لا تبادلني ذات المشاعر, أو أنها لا تزال خطيبتي؛ لأنها ترد الجميل لي, أخاف كثيراً يا زيد, كثيراً"

-"زيد: هيا دعك من هذه الأفكار السلبية, سيبدأ الامتحان, تنفس بعمق, وأذكر الله"

-"وسيم: لا إله إلا الله"

*****

لا أُصدق أُذُناي أهذا وسيم؟ لِمَ ليفرغ غضبه بي؟ وماذا يعني: بعاد عقلي إلى رأسي؟ ألا يكفيني ما أتحمله هنا؟ حتى أنت يا وسيم, أعلم أنني أهملته كثيراً هذه الفترة, لكن ماذا أفعل؟ أخاف أن تتسلط علي المشرفة, وأقضي سنين بالسجن من أجل تهمةٍ باطلة. يا رب ألطف بي, لم أعد أحتمل, أخاف أن تضعف نفسي وأفعل كما فعلت رزان, يا رب قوني بك, وثبتني؛ كي لا أظِل.

-"لانا: ألن تأتي لنتناول طعام الإفطار؟"

-"بتونيا: لا أشتهي شيئاً يا لانا "

-"لانا: ألا زلت تفكرين بحديث وسيم؟"

-"بتونيا: بوسيم, ورزان, وجدتي, وبعطلة ما قبل الامتحانات, وتسجيل الصوت الذي تُخفيه المشرفة, لو أننا في المدرسة؛ لتحسنت حالتي قليلاً"

-"لانا: لا اله إلا الله .هل اشتقت للمدرسة بهذه السرعة؟ لا تقلقي, بقي يومين للامتحانات, وتعودين إلى عزيزتك المدرسة"

-"بتونيا: متى ستنتهي امتحاناتي وأرتاح؟ "

-" لانا: لن ترتاحي, وعدتني أن نخرج من هنا معاً, بقي لي أُسبوعين هنا"

-"بتونيا: الحمد لله, وأنا أفكر.. هل بقي مصائب لم أُحصِها؟"

-"لانا: صحيح باتي, ما رأيك أن نفعل مغامرة قبل خروجنا من هنا؟"

-"بتونيا: مغامرة؟ وما هي؟"

-"لانا: أن نسرق هاتف المشرفة, ونمسح التسجيل "

-"بتونيا: هل جُننتِ أنتِ؟ مستحيل"

-"لانا: لا تخافي, أنتِ فقط ستراقبين المدخل, أنا سأدخل وأُعيد ضبط المصنع لهاتفها, وحركة إضافية سأرش حاسوبها الشخصي بالماء, وأسرق منه كرت الذاكرة"

-"بتونيا: ما شاء الله, من أين اشتريتِ ذكاءك هذا؟ لو إستهلكته في كتب المدرسة؛ لكان أنفع لكِ, كيف ستفعلين كل هذا سريعاً؟ ثم أنت جبانة, وتخافين, لن تفعليها"

-"لانا: لا أنوي أن أنجح أصلاً هذا أولاً.. ثانياً هذه لعبتي, لا تقلقي, وأخيراً ليُصبح من يخاف منكِ مثلكِ"

ضحكت على سذاجتها, إنها فتاة طيبة القلب, لكنها بلهاء, كيف سنعيش سوياً ونحن لا نملك عشرة قروشٍ حتى؟ آهٍ من حياتنا نحن المشردين, يا رب عوضنا بالآخرة.

-"سحر: باتي أسرعي إلى غرفة المديرة"

-"بتونيا: ماذا حدث؟"

-"سحر: لم يحدث شيء, لديك ضيفة تُريد رؤيتك"

-"بتونيا: من هي؟"

-"سحر:لا أعلم, فقط أرسلوني لأخبرك, هيا ما بك؟"

هل عساها تكون عمتي منى؟ أم جدتي؟ هل عادتا من أجلي؟ انطلقت مهرولةً إلى الإدارة, والفرحة تغمرني؛ في النهاية رق قلبها, كنت أعلم أن هذا سيحصل.

طرقت الباب ثم دخلت, وطبعاً صُدمت, لا بل دُهشت كثيراً, حتى أنني تخنطت في أرضي.

-"المديرة: تعالي يا ابنتي اقتربي, السيدة رنا أتت للإطمئنان عنكِ"
ماذا يجري هنا؟ لماذا أتت؟ هل ستُعيدني معها إلى المنزل؟ يا رب.

-"رنا: اقتربي يا باتي, هيا اجلسي أمامي أريد أن أتحدث معكِ"

ذهبتُ مذعنةً للأمر, وجلست أمامها على المقعد, ثم استأذنت المديرة وخرجت, قلبي ينبض بشدة يكاد يخرج من مكانه, ماذا ستخبرني؟

-"رنا:كيف حالك يا باتي؟ هل أنتِ مرتاحة هنا؟"

-"بتونيا: الحمد لله "

-"رنا: بتونيا يا ابنتي, دعينا ننهي هذه الترهات التي بيننا, تعلمين أنني أُحبك كسلمى. وأنني ساعدتك كثيراً بعد وفاة والديكِ "

-"بتونيا: شكراً لك؛ لأنك ساندتني, لكن لِمَ كل هذه المقدمة؟"

-"رنا: أُريدك أن تتطلقي من وسيم"

ماذا؟ هل جُنت؟ لا طبعاً, ماذا سأخبرها؟ إمتقع لون وجهي, وبدأت عيناي تترقرق بالدمع.

-"رنا: اسمعيني يا بنتي, وسيم يُشفق عليكِ لا أكثر, لا أريد أن يكسر قلبك بعد أن تتعلقي به أكثر, وسيم لا يحبك, يُحب رزان التي وعدها بالزواج, رزان التي حاولت الانتحار؛ لأنه لا يزال معكِ, هذا هوسٌ

عابر يا ابنتي, عندما تكبُرين ستتأكُدين من كلامي, أرجوكِ اعذريني كان يجب علي أن أكسر قلبك؛ لتُصبحي أقوى "

-"بتونيا: لكنني أحبه كثيراً, وسيم سندي الوحيد في هذه الحياة, وأنا متأكدة من حبه لي"

-"رنا: وأنا ؟ كيف ستُكملين حياتك وأنا لا أُريدك ؟ افهميني يا باتي أريد أن أُزوج ابني بفتاة من مستواه, هل ترضين أن يُذاع بين الناس أن رنا زوجت ابنها للقيطة؟ فكري برزان, إذا تزوجتما هل ستنجو للمرة الثانية؟ هل تستطيعين أن تحملي ذنبها طوال عمرك ؟"

-"بتونيا: وأنا هل تستطيعين تحمل خَطيتي طوال عمرك ؟"

-"رنا: لن أتركك أعدك, كلما احتجت لشيء اتصلي بي, لكن لا تُدمري حياة وسيم, الذي طلبك من والدك؛ لأنه أشفق على معاملته لك, ولأنه علم بحقيقتك, وإن لم يكن بقاؤه معك شفقة؛ فهو لا يترك أمانةً أوصاهُ بها أحد فكيف لو كانت أمانة أموات ؟"

تصلب الدم بعروقي, ماذا عساني أفعل؟ هل حقاً وسيم يُشفق علي؟ لا أستطيع تركه, كيف سأفعل ذلك؟ تمالكت نفسي وهممت واقفة, ثم قلت: " سينتهي الأمر اليوم, لا تخافي, أريد منكِ أن تأخذي لي إذناً لساعتين؛ لألتقي بوسيم"

-"رنا: كما تريدين يا ابنتي"

-"بتونيا: لو سمحتِ لا تناديني بابنتك؛ لأنني بلا والدين, يعني لقيطة كما تقولين."

خرجت من الغرفة أجر أذيال الخيبة, والحسرة, كانت تنتظرني لانا بالممر, عندما رأيتها أسرعت أحاوطها بذراعي وأبكي, تذكرت أمي, تخيلت لانا أمي حياة.. آهٍ يا أمي, كنتِ تقولين: لا أتصور حياتي بدونك, ها أنا الآن أحيا هذه الحياة بدونك.

تخلى عني الجميع يا أبي, سامحكما الله, لما اشتريتماني؟ لِمَ لمْ تدعاني أعيش طفولتي بمراكز الأيتام؟ لآخذ احتياطاتي من العالم الخارجي, لِمَ لمْ تُدرباني على هذه الحياة القاسية؟

اصطحبتني لانا إلى الغرفة, لم أبح لها بما دار بيننا, كنت أميل برأسي على كتفها وأبكي, إلى أن أتت سحر مرةً أخرى تخبرني: أن أُهيئ نفسي بعد عشرة دقائق؛ للخروج من هنا.

أخذت هاتفي واتصلت بوسيم, هاتفه مغلق, أرسلت رسالة لسلمى أطلب رقم هاتف زيد؛ لأنني متأكدة من وجوده معه.

اتصلت بزيد فأجاب: "نعم, من معي؟"

-"بتونيا: أنا بتونيا, هلّا أعطيت الهاتف لوسيم لو سمحت؟"

-"زيد: نعم بالطبع, انتظري قليلاً"

ثم بدأ يناديه.

-"وسيم: بتونيا؟ ماذا حدث؟"

-"بتونيا: لا تقلق لم يحدث شيء, هاتفك مغلق, فطلبت رقم زياد من سلمى؛ لأنني أعلم أنك برفقته"

-"وسيم: عقلة الإصبع لا أريد الحديث بأي موضوعٍ أرجوكِ, ثم أخبرتك أنني سأعاود الاتصال بك في وقت فراغي"

أخافني حديثه معي, وبدأت أشك بما قالته رنا, هل تبقى معي لشعورك بالشفقة أم لأنني أمانة والداي لك؟

-"بتونيا: لا تُغلق تمهل, سأكون في مدينة الألعاب التي أخذنا إليها أبي, أريد أن أراك هناك, على ذات المقعد الذي جلس عليه والداي, إلى اللقاء"

أغلقت الهاتف وبدلت ملابسي, ثم عدت لأرافق الخالة رنا, وطبعاً أحضرت عقد الزواج معي؛ لأنني أنوي إنهاء كل شيء اليوم, سأُفرغ حياتي من الجميع, سترون.

وصلت إلى المكان قبل نصف ساعة, لكنه كان هناك, قابعاً على نفس المقعد, شارد الذهن, هنا بدأ حبي له وهنا سينتهي, اتجهت نحوه, عندما انتبه لوجودي دهُش:

-" ماذا تفعلين هنا قبل الموعد؟"

-"بتونيا: أنت ماذا تفعل هنا قبل الموعد؟"

-"وسيم: لا تردي على سؤالي بسؤالٍ"

-"بتونيا: كنت أُريد الجلوس لوحدي قليلاً"

أمسك بيدي وأجلسني بجانبه, ثم قال:

"هل حدث معكِ خطبٌ ما؟ أخبريني أرجوكِ, ثم كيف استطعت الخروج؟ هل هربتِ؟"

-"بتونيا: لا يا وسيم, أتيت لسببٍ مختلف, ولم أهرب"

-"وسيم: سبب ماذا؟"

-"بتونيا: أريدك أن تُطلقني"

*****

وكأنها كوت قلبي بالجمر, لا يمكن للظروف أن تتكالب علي معاً, انتفضت واقفاً أصرخ:

"هل فقدتِ عقلكِ؟ خلف ماذا تسعين؟"

-"بتونيا: أنا لست سعيدةً معك, حان وقت افتراق طُرقاتنا"

لا, لا أستطيع ضبط أعصابي, صعد الدم إلى رأسي, واصطكت أسناني:

"أنتِ تكذبين لتُبعديني عنك أعلم هذا, لا تستطيعين فعل ذلك"

-"بتونيا: بلى أستطيع, وأتيت إلى هنا؛ لأنني أستطيع"

دَسَّت يدها بجيبها وأخرجت ورقة, ثم وضعتها أمام عينيّ, هذا العقد؛ إذن هي تقصد ذلك.

-"وسيم: بتونيا, هل ستجعليني أفقد عقلي؟هل أنتِ متضايقة من شيء؟ أخبريني: أم أنك غضبتِ من أُسلوبي بالحديث معك اليوم؟, أنا أعتذر, لم أكُن أقصد؛ لكنك أجبرتني على هذا"

-"بتونيا: عُد إلى رشدك لو سمحت, ألم تلاحظ تَغيري معك منذ فترة؟ أنا اقتنعت بأنني لم أكُن أحبك, كنت أريد أن أُرد لك جميلك علي ببقائي معك"

ماذا تهذي هذه؟ لقد تجمد تفكيري, بدأ جسدي يرتجف, ثم زجرتها بعنف: " هذا الكلام سخيف وأنا لا أُصدقك, أنتِ أمانة والديكِ لي, لا أستطيع تركك, لا أستطيع"

عندما سَمِعَت كلماتي هذه, رمقتني بنظرة قاسية, وأقبلت نحوي متأبطة شراً, أنا ازدردت ريقي ورجعت إلى الوراء, ثم قالت:

"هلّا طلقتني؟ أنا لا أُريدك, أنا شخصياً قد سئمت منك, لا أُحبك يا أخي, ولا أُريد الزواج منك, ثم أين كرامتك؟ أنا أُخبرك أنني لا أُحبك, وأنت تخبرني بأمانتك."

لقد وصلت لحالةٍ يُرثى لها, يُمكنها خداع الجميع إلا أنا, أعلم أنها تكذب, وأنها تستفزني, أو هكذا أود أن يكون, قلت:

"أنا كنت أموت ألف مرةٍ في اليوم؛ كي لا تحزني, كنت أُداريك وأواسيك, أتألم أضعاف ألمك, تشاجرت مع والدك, ومنى, حتى أمي من أجلك, تشبثت بك إلى حد التعب, أهكذا تُجازينني؟ تعلمين أنني أُحبك, هل تُطلقين على من أحبك ودافع عنك, وتمسك بك, رجلٌ بلا كرامة؟ أهذا ما أوحيته لك؟"

-"بتونيا: لا تُجبرني على قول شيء لا أُريد قوله يا وسيم, لنذهب للمحكة بسرعة, يجب أن أعود."

-"وسيم: لا, لن أتركك تذهبين, وستعودين الآن معي, إلى منزلي, لو سمحت لنجلس ونتحدث بروية, ونحل جميع أمورنا, أُنظري الجميع يشاهدوننا, هيا أرجوكِ لنذهب, لا أستطيع العيش بدون رؤيتك وسماع صوتك, هذا يكفي.. لن تعودي إلى الميتم"

لم أشعر إلا بيديها تضربان صدري, تنظر نحوي نظرة غضب, وتصرخ:

"ألا تفهم, لا أُريدك, أنا مُعجبة بغيرك, أخرج من حياتي, كنت سأتطلق منك قبل وفاة والداي؛ لكنني أطلت الخطوبة لأُفرح أبي, وبعد وفاتهما لم أستطع أن أتركك؛ لأنك أكثر من ساندني, لكنني لا أُحبك, ولم أحبك يوماً لنتطلق الآن وفوراً"

لم يتبقى لدي كلام, ولا حتى ردة فعل, صَمَتُ قليلاً, ثم قلت:

"هيا, سنذهب إلى المحكمة"

صعدنا إلى السيارة واتجهت إلى المحكمة, كنت أقود بسرعة, أُريد أن أنتهي من الأمر سريعاً, لم أحتمل ما قالته, تمنيت لو أصابنا حادث ومتنا معاً, لكن هذا لم يحدث, كان الصمت يُخيم على المركبة, ضايقني الهدوء كثيراً ففتحت المذياع, كانت الأغنية لفيروز:

(سوا ربينا سوا مشينا سوا قضينا ليلينا

معقول الفراق يمحي ليالينا ونحنا سوا سوا ربينا

قولك بعد الرفقه والعمر العتيق

نوقع مثل ورقه كل من ع طريق

وينسانا السهر بليل السهر ويسألوا عنا أهالينا

سوا ربينا)

تطلقنا بجلسةٍ واحدة, كانت الحِجة أن والدها زوجها غصباً, وهي لا تزال صغيرة ولا تُريد الزواج, طبعاً بتواجد مديرة الميتم التي حضرت وكانت قبلنا في المحكمة, لا أعلم أشعر أن الأمر مدبر؛ لكن هذا يكفي, انتهى الأمر, وانتهى كل شيء.

عادت هي برفقة المديرة, أما أنا فرحت أجر أذيال الخيبة, مكلوم الوجدان, مكسور الخاطر. جُبت الشوارع مشياً على الأقدام, ونسيت أنني أتيت بسيارة, سرت حتى تورمت قدماي, ثم تهالكت على مقعد في إحدى الحدائق و طلبت زيد ليأتي.

أعادني إلى المنزل؛ فاستقبلتني أُمي بالأحضان, تعتذر عن ليلة الأمس, سألتني: عن حالي فلم أُجب, صعدت إلى غرفتي, أوصدت الباب, ورحت أبكي كطفلٍ؛ فقد أحب لعبةٍ إلى قلبه, أمضيت يوماً عصيباً, لماذا فعلت هذا بي؟ كيف سيبرئ جرحي الآن؟ ماذا علني أفعل من دونك؟ من هو؟ وأين تعرفت إليه؟ أنتِ لا تستطيعين التنفس دون رقيب في الميتم, وقبل الميتم مستحيل. لم أعد أحتمل صوت أفكاري, تناولت حبوب مسكنة للصداع, ونمت والدمعة تجر الدمعة في عيناي, إنتهى فصل الشتاء, إنتهى فصل البتونيا.

*****

مضى أسبوعين على طلاقنا, لا زلت مكسورة الخاطر, مجروحة الفؤاد, أنهيت اختباراتي ولملمت حقيبتي؛ استعداداً للخروج مع لانا, لا أعلم ما ينتظرني في الخارج, طمأنتني لانا أنها تُخفي مبلغاً جيداً من مصروفها؛ لكنه عاجلاً أم آجلاً سينفذ.

-"لانا: أخبرتني المديرة: أنها ستُدبرنا في إحدى دور الفتيات"

-"بتونيا: وهل صدقتِ؟ ألم تُخبرنا الأسبوع الماضي أنه لا يوجد شاغر, ثم سأُذكرك.. نهايتنا ستكون في مراكز الإصلاح"

-"لانا: لا تفكري بهذا, ولا تستبقي الأحداث, بقي ثلاثة أيام, ننتظر ونرى, إدعي أن تجد لنا ولو غُرفةً صغيرة تأوينا "

-"بتونيا: كيف سنجد عملاً يا ذكيه؟ كيف سنتدبر أمر طعامنا ولوازمنا؟ كيف سأكمل دراستي؟"

-"لانا: كوني واقعية يا باتي لن تُكملي تعليمك أنتِ تعلمين ذلك, إذا وفرنا الطعام والسكن ف الحمد لله "

-"بتونيا: أه.. يا رب ساعدنا"

أشعر بالرعب من المصير المجهول الذي ينتظرني, لم يتبقى لي أحد سوى لانا, حتى سلمى لا تُريد الحديث معي بعد طلاقي من وسيم؛ وكأنني السبب, ماذا أفعل؟ العالم ضيق جداً على أمثالنا, يا ليتني خُلقت عصفورَ.

بعد يومين أبلغتنا المديرة أنها وفرت لنا غرفة ومنافعها؛ بإيجار بسيط, وأنها لم تجد شاغراً في دور الفتيات: أما بالنسبة لدراستي الجامعية, فلقد طلبت مني الانتظار إلى وقت صدور النتائج, والتوجه إلى صندوق الأمان؛ وهو سيتكفل بدراستي, أما لانا فهي تعلم من الآن أنها لن تنجح, فقررت أن تذهب معي؛ ليساعدوها على الأقل بمصروف شهري, أو أن يدربوها مهنياً, وهي تريد أن تتعلم الخياطة, يعني و لله الحمد بدأت الأمور تنفرج.

غداً صباحاً سنخرج من مركز الأيتام, وطبعاً لانا مصرة على إتلاف هاتف المشرفة وحاسوبها, أخبرتها: بأنني لن أتدخل فذهبت لوحدها, أخاف أن تُمسك بها وأضيع أنا بين الأقدام, سألحق بها.. وقفت قرب

الباب أُراقب الممر.. خرجت بعد عشرة دقائق, وعلامات الفرح تشع من وجهها.

-"بتونيا: فعلتها إذن"

-"لانا: أنتِ وبقية الفتيات بأمان, حاسوبها يسبح الآن بالقهوة, وهاتفها عاد كما خرج من الشركة, هيا لنذهب؛ كي لا يرانا أحد"

ضحكنا وعدنا إلى غرفتنا بخفة ومكر. في اليوم التالي ودعنا الفتايات وأوصلنا سائق الباص إلى بيتنا الجديد, والأصح غرفتنا الجديدة, التي تتكون من: غرفة نوم بسريرين, ومطبخ, وحمام, لا بأس بها, المهم أن تأوينا, طبعاً البيت بحاجة إلى تنظيف, رتبنا ملابسنا وخرجنا بعدها إلى الهواء الطلق, وأجلنا تنظيفها إلى المساء.

كنت أُريد أن أتنفس قليلاً, ذهبنا إلى مدينة الألعاب, ثم تناولنا الطعام في إحدى المطاعم, وبعدها ذهبت إلى المقبرة؛ لأرى والداي, كنت كمغترب ترك وطنه بالإجبار, ثم عاد له بعد فوات الأوان, جلست بين القبرين وبدأت الحديث لم أصمت لثانية, تكلمت كثيراً, وبكيت كثيراً, حتى لانا كانت تجلس على مقربةٍ مني وتنحب.

أخُلقنا لنبكي الراحلين؟ أم لنبكي الذكريات؟ أم لنبكي على حالنا؟ ودعتهما ووعدتهما أن لا أقطعهما أبداً, لن يمنعني عن زيارتهما أحد بعد الآن.

ذهبنا واشترينا بعض المعلبات والأطعمة, ونواقص المنزل بالمال المتبقي مع لانا, يجب أن نبحث عن عمل من الغد, عدنا إلى منزلنا وأول إجراء قمنا به: بدلنا قفل الباب, وبعد أن أنهينا تهذيب المنزل خلدنا إلى نومٍ عميق, ولأول مرة منذ وفاة والداي أنام دون أن أُفكر بالغد.

استيقظنا باكراً بنشاط, تناولنا إفطارنا وخرجنا نبحث عن عمل, كان الوضع غير مبشر بخير, الرواتب قليلة جداً لا تكفي لشيء, والعمل الذي أعجبنا لم نعجب بصاحبه, ماذا سنفعل الآن؟ اهترأت أقدامنا من السير, لم أعد أستطع. دخلنا إلى إحدى الحدائق؛ لنرتاح قليلاً, جلست على المقعد بتعب, ثم عقدت يداي على الطاولة, وألقيت رأسي عليهما.

-"لانا: ما بك يا باتي؟ طريقنا لا يزال طويل, أتتعبين من الآن؟"

ضحكت ولم أُجبها, أغمضت عيناي وأوقفت التفكير, بعد دقائق سمعت صوتها: "نعم نحن في الحديقة الغربية "

رفعت رأسي ونظرت نحوها متسائلةً: "مع من تتحدثين؟"

-"لانا: ما بكِ ؟لِمَ كل هذا الفزع؟ هذه سلمى"

-"بتونيا: هل أخبرتها بشيء؟"

-"لانا: لا, اتصلت بي للسؤال عنكِ؛ لأن هاتفك مغلق"

-"بتونيا: هاتفي مغلق؟ انتظري لأرى, أوه نعم, لقد نفذ شحن بطاريته, هل ستأتي إلى هنا؟"

-"لانا: نعم ستأتي برفقة شهد"

-"بتونيا: هل تعتقدين أن وسيم سيوصلهما؟"

-"لانا: لا أعتقد, فهو مشغول بالصيدلية, وبتخرجه, لماذا تسألين؟"

-"بتونيا:لا يُهمني, سألت لأنني لا أُريد أن أصدفه "

-"لانا: طبعاً, وأنا اقتنعت"

-"بتونيا: إلى أين تذهبين؟"

-"لانا: سأُحضر شيئاً للشرب"

عادت لانا برفقة سلمى وشهد, ويتضح من وجوههن أنها قد أبلغتهن, سأقص لها هذا اللسان الذي بطول حذائي.

-"سلمى: هكذا يا باتي, لم تفكري حتى أن تخبريني بخروجك من الميتم"

-"بتونيا: أنتِ من قاطعتني يا سلمى, وأنا لا أُحب أن أفرض نفسي على أحد"

-"شهد: وأنا يا باتي ما علاقتي بمشاكلكم؟ لِمَ لمْ تُجيبي على رسائلي, واتصالاتي؟"

-"بتونيا: أخبرتكما أنني لا أستطيع التنفس بمركز الأيتام, وأنتما تعلمان بقصتي, لِمَ العتاب؟"

-"سلمى: ووسيم؟"

-"بتونيا: ما به؟"

-"سلمى: لِمَ تطلقت منه؟ ماذا فعل لكِ؟ بكل هذه البساطه تُحبين غيره"

-"لانا: ماذا؟!"

-"شهد: هل هذا صحيح يا باتي؟"

-"بتونيا: لا طبعاً, لقد تحججت بذلك ليتركني وشأني, لا أُريد أن أُفسد مِزاجه, ولن أُعكر صفوكم بمشاكلي "

-"سلمى: أقسم أنكِ مريضة, كيف تفعلين هذا به؟ تعلمين أنه يُحبك كثيراً, ولا يستطيع فُراقك, لماذا يا باتي؟"

-"شهد: لا فائدة من هذا الحديث الآن, لقد خطب رزان وانتهى الأمر "

وكأنها صبّت فوقي أطناناً من الماء البارد:

-" ماذا؟! خطب من؟"

-"شهد: أنا آسفة, لم أكُن أعلم أنك لا تدرين"

-"سلمى: سامحك الله يا شهد, بتونيا اهدئي سأشرح لكِ"

-"بتونيا: تأخرنا, يجب أن نعود إلى المنزل, ليُسعدهما الله, لا يُهمني, لم أتركه لأبكي عليه"

-"سلمى: أرجوكِ يا باتي إسمعيني, قبل قليل وصلنا, ما هذا اللقاء السريع؟"

-"بتونيا: مرةً أُخرى إن شاء الله, هيا يا لانا"

-"شهد: أنا آسفة لأنك علمتِ بهذه الطريقة"

-"بتونيا : لا عليك, ليس مهماً"

-"سلمى: أعطني عنوان بيتك إذن لنزورك لاحقاً"

-"بتونيا: لا أستطيع يا سلمى, لا أُريد لأحد أن يعلم أين أقيم؟ وبيتنا عبارة عن غرفة نوم, لا يتسع لضيوف ,بالإذن"

مضيت لا أكاد أتبين طريقي, كنت سأسقط أرضاً لولا لانا التي تُحيط خصري بذراعيها, استقلينا سيارة أجرة وعدنا إلى المنزل, لم إنبس بحرف, اتجهت إلى سريري ودفنت نفسي تحت الغطاء, ربما أموت وأرتاح.

لماذا فعل هذا؟ وبهذه السرعة؟ هل حقاً كان يُريد رزان منذ البداية ومثل علي؟ ما الّذي يجري؟ مشاعري الآن مُختلطة, شعور غريب ومؤلم أن تخسر شخصك المفضل بصنع يديك, وماذا كُنت أتوقع أن يفعل بعد حديثي القاسي معه؟

مزق أُمنياتي ..عجن قلبي بيديه.. سرق مني الوجهة و لذة الوصول لأحلامي, أصبحت الآن كما يقولون "مقطوعة من شجرة", شجرة لا يَسقيها أحد..لا ترى الشمس, يابسة متعفنة.

لا أدري في المواقف الصعبة, كيف يرتدي الإنسان قناع القوة؟ يُصبح صلب كالبلوط, كيف يستطيع كتم أحاسيسه ودموعه والصمود ثابتاً؟ كيف لإنسان مُهترئ من الداخل أن يبتسم بثقة, وكأن شيئاً لم يكن, لم أنم دارت أفكار كثيرة في مخيلتي, كيف سأُكمل المشوار لوحدي. هذه الفترة العصيبة التي مررت بها ما هي إلا مقدمة, أشعر بذلك, يا الله إني مغلوبٌ فانتصر.

*****

مرَّ علي الأسبوعين كأنهما عشرين عاماً أحداث كثيرة وكبيرة لم تكن بالحسبان, لم أستطع أن أحزن بما يكفي, لم يدعوني أتقيء كافة غضبي وسخطي مما حدث, كانت البداية مع عمي الذي زارنا معتذراً, وطلب منا أن نعود كالسابق, لا أعلم ربما استيقظ ضميره أخيراً.

بعد طلاقي أتت والدتي ونخرت بعقلي كي أخطب رزان, قالت لي حينها: خذ من تحبك ستسعدك, ولا تأخذ من تُحبها وهي تفضل غيرك, ستقضي عمرك حزيناً, لو تدري أمي أنني أموت وأفني عمري من أجل باتي؛ لتخلت عن أفكارها, أرأيتم أحداً يتزوج من إنسان لا يُحبه؛ ليجعله سعيد؟ ليُعدِله عن فكرة الانتحار, مع الأسف أنا فعلتها, تعاستي كانت مُقابلاً لسعادتها.

لا أعلم بما أذنبت ليكون عقابي الزواج من رزان؟ حتى لو كانت تُحبني.

آه يا بتونيا, يا نَدبة العُمر الباقية, إني والله قد غلبني الشوق لك, والله أعلم بمشاعري, والله أعلم بقلبي وما يحوي.

كانت خطوبتي برزان عائلية, لم يتواجد أحد غريب, عائلة عمي, ونحن, وبيت خالتي, أديت الأمر الذي طَلَبته أمي وانتهيت, لا تسألوني كيف فعلتها؟ لا أدري بما أُجيب؛ لكنني شعرت أنني أنتقم لنفسي من نفسي, كانت أفكار آنيَّة, استغلتها أمي بذكاء.

أنهيت امتحاناتي وحان وقت تخرُجي, الآن يبدأ المشوار بالعادة, لكنه انطفئ بخروج عقلة الإصبع من حياتي, أبيع عمري لأسمع صوتها, وأرى محياها؛ لكنني لن أجرؤ, خاصةً بعد خطوبتي من رزان.

-"سلمى: هي يا كئيب, بماذا تفكر؟"

انتبهت لصوتها ثم أجبت:

" ألم تُعلمكِ أمي أن تطرقي الباب ثلاثاً قبل اقتحامك الغرف"

-"سلمى: لا, هذه صفةٌ مُكتسبة, أخذتها من رزان"

-"وسيم: ليس لدي وقت لمزاحك يا سلمى, ويجب أن أُغادر المنزل, قبل أن تأتي خالتكِ وابنتها"

-"سلمى: سأُذكرك, سيعيشان في منزلنا في القريب العاجل"

-"وسيم: حتى لو أقامتا في شعري لن أتزوج قبل أن يُسمح لي بمزاولة الصيدلة, وإن شاء الله إلى ذلك الوقت تكون رزان قد اقتنعت بحبي لبتونيا, ونتطلق وأرتاح"

-"سلمى: هل أعجبتك لعبة الطلاق؟ لم يضربك أحد على يدك لتقبل "

-"وسيم: وأمي التي ضربتني في منتصف عقلي؛ لأوافق, طوال أسبوع وهي تنخر كالسوس بدماغي, المهم أن تتخلص من باتي للأبد"

-"سلمى: صحيح, إحزر بمن التقيت اليوم؟"

-"وسيم: قولي بتونيا أرجوكِ"

-"سلمى: نعم, هي بعينها"

نهضت من مكاني وبلمح البصر صرت مقابلاً لسلمى:

-" كيف حالها؟ هل يُزعجونها في المركز"

-"سلمى: معلوماتك قديمة, بتونيا خرجت من الميتم مع لانا البارحة"

-"وسيم: كيف؟ أين هي الآن؟ يجب أن نُدبر لها مكاناً لُتقيم به, كيف أمضت ليلة الأمس؟ هيا سلمى أخبريني"

-"سلمى: أين هي؟ لم تُخبرني, لكن مُديرة دار الأيتام دبرت لهنَّ غرفة ومنافعها, وهي مرتاحةٌ الآن"

-"وسيم: مرتاحة؟ كيف ستعيشان بمفردهما؟ فتاتين دون معيل ولا كبير, ماذا عساني أفعل؟ أشيري علي يا سلمى"

-"سلمى: لا شيء, لن تفعل شيء, أصْبَحَت تدري بخطوبتك؛ أخبرتها شهد"

-"وسيم: كيف؟ سأقتلها يوماً هذه الشهد "

ترددت قليلاً ثم قلت:

"ماذا قالت؟ أقصد ما هي ردة فعلها؟"

-" قالت: أنه لا يُهمها, وليسعدكما الله معاً, ثم غادرت على عجل"

لا يُهمكِ إذن, ما الَّذي قلب عقلكِ يا عقلة الإصبع؟ هل كنت أعمى لدرجة أن لا أرى إهمالكِ لي وعدم حبك؟.

-"وسيم: كيف سأساعدها بدون أن تدري؟"

-"سلمى :هذا صعب, ثم إنها لم تفتح هاتفها بعد, ولا أعتقد أنها ستفتحه, حتى لانا أغلقت هاتفها, ما أعلمه أنهما كانتا تبحثان عن عمل وإلى الآن لم يعثرا على شيء مناسب."

-"وسيم: سأجن ماذا سنفعل؟ صحيح تذكرت, أم زياد أعطتني بعض المال؛ لأوصله لباتي, لقد نسيته, لم يتبقى لدي عقل, يجب أن أعثر عليها, أرجوكِ يا سلمى اعرفي مكانها "

-"سلمى: لتفتح هاتفها أولاً ثم أُخبرها"

نسيت تماماً أمر خروجها من المركز, لكن لِمَ لتخرج باكراً؟ لا يزال أمامها ثلاثة أشهر على الأقل, ربما لا تريد أن تترك لانا لوحدها, لطيفة الروح, صاحبة القلب الشفاف, ماذا أفعل بها؟.

-"سلمى: الجرس يُقرع, وصلت خطيبتك المصون قبل أن تهرب, هيا إذن إلى اللقاء, سأخلد للنوم"

-"وسيم: لا يا أختي أرجوكِ ابقي معي, لن أحتمل حديثهن وغمزهن, ولمزهن "

-"سلمى: مُشكلتي أني أحبك, ولا أُضحي بك, هيا لننزل قبل أن تصعد إلى هنا"

يا إلاهي كم الفرق شاسع بين باتي ورزان, وبين خالتي والخالة حياة, رحمها الله هي وزياد, طال حديثهن وأنا مللت, وعقلي ليس معهنَّ أصلاً.

-"رزان: سوسو ألم تشتق لي؟ لماذا لا تفكر أن تُراسلني, أو تردَّ على رسائلي؟"

-"سلمى: أولاً اسمه وسيم ليس سوسو, ثانياً مشغول بتخرجه ويلاحق الصيدلية, ولديه أُم وأخت يُريد أن يقضي طلباتهن."

-"رنا: سلمى هذا يكفي, استحي قليلاً, خطيبها واشتاقت له, ما شأنكِ أنتِ؟"

-"رزان: دعيها يا خالتي لا أهتم لكلامها, صحيح أين سنقيم حفل تخرجك؟"

-"وسيم: لن نُقيم ولن نُقعد, لا أُريد أن أحتفل, نسيت أن أُخبركم: سأُسافر أنا وزيد بعد التخرج إلى بلدٍ عربي مجاور"

-"رنا: إلى أين؟ ولماذا؟"

-"وسيم: لم نختر بعد. أريد أن أُغير نفسيتي يا أُمي"

-"رزان: لنذهب جميعاً, ما رأيك يا أُمي؟"

-"وسيم: لا طبعاً, سأخرج أنا وزيد فقط "

هممت واقفاً, يجب أن أخرج, لا أُريد أن أفتعل المشاكل, جوُّ هذا البيت بدأ يُزعجني.

-"رزان: إلى أين؟ لا تقل أنك ستخرج مع زيد, بدأت أكرهه"

-"وسيم: نعم مع زيد, ستعتادين على وجوده مع الوقت, هيا تصبحون على خير سأتأخر قليلاً"

-"سلمى: وأنا أيضاً تُصبحون على خير, يجب أن أنام "

ابتسمت لسلمى وخرجت, ثم توجهت لمنزل زيد, يجب أن نجد والدة بتونيا.

-"زيد: هل خالتك وابنتها من جديد؟"

-"وسيم: ومن غيرهما "

-"زيد: هيا تفضل من الواضح أن سهرتنا ستطول"

توجهت إلى غرفة زيد مباشرة؛ لأن الجميع قد ناموا.

-"زيد: ماذا تُريد أن تشرب؟"

-"وسيم: اجلس لا أريد شيء, سأتحدث معك قليلاً وأذهب."

-"زيد: ماذا يجول بخاطرك؟ أصبحتُ أعي تلك النظرات, هل حديثنا بشأن بتونيا؟"

-"وسيم: سأسافر بعد حفل التخرج, وأنت سترافقني "

-"زيد: هل جُننت؟ كيف سنجد والدتها في تلك المدينة الكبيرة؟ لا نبحث عن منطقة نبحث عن إنسان, هل تعي ذلك؟"

-"وسيم: حتى لو لم ترافقني سأذهب, يجب أن أجدها, بتونيا خرجت من المركز"

-"زيد: إفرض أن اسمها كان مُزيفاً؟ ماذا سنفعل حينها؟"

-"وسيم: لا تخف, معي اسم السيدة التي أحضرت بتونيا, وهذا الاسم صحيح, لقذ أخبرني زياد أنها أرتهُ بطاقتها المدنية"

-"زيد: ماذا أقول لك يا صديقي؟ لن أدعك تذهب وحيداً "

*****

انتهى أسبوعٍ طويل في البحث عن عمل بدون فائدة, لقد تورمت أقدامنا من السير بين المحال, لم يتبقى لدينا حلول, والمال الذي معنا انتهى؛ صرفناه على المنزل, أشعر أنني كلما انتقلت لمرحلة, أشتاق لما قبلها؛ لأنها تكون أقسى من سابقتها.

عدت إلى المنزل وبدأت أُحضر الطعام, أفتح مواقع الانترنت وأُطبق الوصفات, والنتيجة كارثية, لكننا مُجبرتان على تناولها؛ فلا مال معنا لنشتري الطعام من الخارج.

ها هو صوت لانا يصدح بالشتائم, الواضح أن بحثها عن العمل كان بدون نتيجة.

-"بتونيا: ستُفرج لا تخافي, فقط قولي يا الله"

-"لانا: لقد تعبت اهترأت أقدامي, متُّ من العطش, تخيلي لم يتبقى معي مال لأشتري قنينة ماء, لقد أفلسنا ماذا سنفعل لا أعلم؟"

-"بتونيا: ما بكِ؟ انتهى شغفكِ سريعاً, ثم لا تقلقي أشعر أن الفرج قادم, فلنا ربٌّ رحيم"

-"لانا: يا رب. أخبريني ماذا أعددتِ لنا اليوم؟"

-"بتونيا: أرز وعدس, ادعي الله أن يكون لذيذاً"

-"لانا: طعام الفقراء, الحمد لله"

-"بتونيا: ماذا يوجد في فمكِ أخبريني؟"

-"لانا: قابلت اليوم إحدى خريجات المركز, وتحدثنا قليلاً "

-"بتونيا: يعني؟"

-"لانا: لن تصرخي وتحتدي, اسمعيني ثم أجيبي"

اضطربت من كلماتها, أنا متأكدة من أنها ستوقعنا في مصيبة:

"تفضلي.. أسمعك"

-"المكان الذي تعمل به يريد موظفين, والراتب ممتاز لكن العمل سيكون مساءً"

-"بتونيا: ما طبيعة عملها؟ هيا انطقي"

أجابت بتردد: "في ملهى ليلي"

-"بتونيا: ماذا؟! أجُننتِ؟ لا أستطيع تصديقك, مستحيل طبعاً لن أعمل, أُفضل الموت على العمل به"

-"لانا: يا باتي اسمعيني؛ لنجرب, نذهب الليلة ونجرب, إذا لم يعجبكِ الوضع اذهبي"

-"بتونيا: أقسم أنكِ فقدتِ عقلكِ, أهذا هو حلُّك؟ وماذا سيكون عملنا راقصات أم بائعات هوى؟ أخبريني بالله عليكِ, أنا رفضت بعض فرص العمل فقط لأنني لم أرتح لأصحابها, وتطلبين مني أن أُجرب؟"

-"لانا: لا تعملي, كما تشائين لكن أُريد منك أن تُرافقيني, لا تتركيني أذهب لوحدي"

ذهبت إليها ومسحت على شعرها, وقلت: " لا تفعلي هذا أرجوكِ, الله هو الرازق سيرزقنا ونحن في بيوتنا, انتظري قليلاً, ثم أخبريني كيف ستتزوجين؟ هل هناك رجلٌ يقبل أن يرتبط بفتاة تعمل في ملهى ليلي؟ "

-"لانا: هل تظنين أن جميع من يعملن هناك بلا أخلاق؟ أنتِ مخطئة إذن, من يقبل الذل على نفسه دون سبب؟ هذه الفتاة التي صادفتها تعمل مغنية منذ خمس سنوات, لكنها أقسمت لي أن أحداً لم يقترب منها, فقط لتُربي طفليها بعد زواجها من شخصٍ ظلمها ودمر حياتها, ثم طلَّقها ورماها إلى الشارع مع أطفالها, أرجوكِ دعيني أُجرب, أنا قوية وأستطيع الدفاع عن نفسي, أريد أن تذهبي معي, وإذا لم أرتح للوضع سنعود إلى هنا, أرجوكِ اقبلي"

-"بتونيا: لا أعلم بما أُجيبكِ, أتستسلمين في بداية الطريق"

-"لانا: الراتب ممتاز يا باتي, سيؤمن لنا ما نحتاج, هيا اقبلي كوني بجانبي الليلة فقط لو سمحتِ"

-"بتونيا: دعينا نتناول طعامنا أولاً "

أنهيت تناول طعامي المالح, ونظَّفت الأطباق, كانت لانا قد نامت والدموع تُغرق وجهها, كيف سأجعلها تُعدل عن قرارها؟ أظن أن هذا صعب, يجب أن ترى بعينها لترفض من دون ضغطٍ مني, لن أتركها سأرافقها, لن أدعها تُلقي بنفسها إلى التهلكة.

فتحت هاتفي أُريد أن أحادث أحدهم, أشعر أنني سأُجن, أأتصل بشهد أم سلمى؟ فكرت قليلاً ثم بدأ هاتفي بالرنين كانت سلمى, بالتأكيد وَصَلتها رسالة؛ تخبرها بأنني قد فتحت هاتفي, هل أُجيب يا ترى؟ لا أريد أن أُصدم بشيءٍ جديد, ليس أمامي حل سوى أن أُجيب.

-"سلمى: بتونيا, أخيراً, لماذا تُغلقين هاتفكِ؟ أخبريني حبا بالله, حتى هاتف لانا مُغلق, وأنا متأكدة أنكِ السبب"

-"بتونيا: اهدئي أرجوكِ, لن أحتمل عتابك الآن, رأسي سينفجر من الصداع"

-"سلمى: هل أنتما بخير؟"

-"بتونيا: لا, سأذهب الليلة إلى ملهى, لأرافق لانا تريد أن تعمل هناك"

-"سلمى: هل جُننتما؟ أتركيني من لانا, كيف ستذهبين أنتِ؟"

-"بتونيا: لا أستطيع تركها بمفردها, سأُرافقها الليلة فقط"

-"سلمى: مجنونة لا تفعلي هذا, بتونيا, أعطني عنوان بيتك, دعيني أتحدث معها"

-"بتونيا: افهميني لا أستطيع "

-"سلمى: كي لا يعلم وسيم بمكان إقامتك, هل هذا صحيح؟"

-"بتونيا: نعم, صحيح, سلمى أردت أن أُفضفض لك لا أكثر؛ لأنني أشعر بالضيق, لا أستطيع العدول عن قراري. أتحدث معكِ لأحقا, إلى اللقاء"

-"سلمى: انتظري لا تُغلقي "

أغلقت الهاتف ورحت أجوب الغرفة في ضيق, أشعر بكتلةٍ من النار تشتعل بقلبي, يا رب أبعدنا عن الحرام, يا رب ألطف بنا.

في المساء بدلنا ملابسنا, ثم خرجنا, كانت ملابس لانا برَّاقة ومزينة, ووجهها مصبوغٌ بألوان المكياج الفاقعة, خرجت من المنزل بتردد, كنت ادعي الله أن يُعركس هذا العمل, أن يُخرج أمامنا الحل, حاولت إقناعها بالعودة؛ لكنها رفضت, وتشبثت بذراعي أكثر, كنت أشعر برجفةٍ في يديها, وكأنها تقرع بروحي.

وصلنا إلى المكان بشق الأنفس, كانت الساعة تُشير إلى العاشرةِ مساءً, لا أعلم كيف طاوعتها وخرجت من المنزل في هذا الوقت, الرعب يجتاح كل خلايا جسدي, وأفكاري متداخلة, ماذا لو اعترض طريقنا أحدهم؟ كيف سنحمي أنفسنا؟

توقفنا قليلاً؛ لنرتدي أقنعة القوة, ونأخذ نفساً عميقاً, علَّ الخوف الذي يُريبنا يتبخر, ثم عزمنا الدخول, وفي طريقنا إلى المدخل, سمعت أحدهم

يصدح باسمي بغضب, سَرَت القشعريرة بجسدي, تصلبت أطرافي, لم أجرؤ على الالتفات إلى الخلف.

-"لانا: باتي, هذا وسيم "

لا أعلم, وكأن الرعب داخلي قد انجلى, فرحت وحمدت الله كثيراً, إذن وسيم هو العائق, استجمعت قواي والتفت إليه: وجهه مُتعب, كتفيه متراخيان, لكن ملامح الغضب في وجهه تفوز على ملامح التعب, كان يشد على قبضتيه ويحدِجُني بقسوة, ثم اقترب مني وقال حانقاً:

"أهذا ما تطمحين له؟ هل ستعملين هنا؟ فعلتِ ما بوسعك لتتخلصي مني, ألهذا السبب؟ كي تتجهي إلى الحرام"

لم أكُن أنتظر هذا الكلام منه, كنت أُريد مواساةً وحب.

-"لانا: أنا السبب, هي أتت معي فقط لتساندني"

رنوت إليه بنظرةٍ باردة, وقلت: "من أنت لتتدخل بحياتي؟ من تظن نفسك؟ أجبني"

هتف كالملدوغ: "لا أحد, أنت جعلتني لا أحد بالنسبة لكِ.. أنتِ من أجليتني من حياتك رغماً عني, لم تُخبريني بإتهام المشرفة لكِ, وأخفيت عني ما تعيشينه بالمركز,تخليتي عني بكل بساطة, تركتني بحالةٍ يُرثى لها, ومن دون أسبابٍ مُقعنة, نعم, أصبحت لا أحد بالنسبة لك, لماذا؟ لا أعلم, تكلمي أجيبيني, هل ابتلعت لسانك؟"

لقد خفت لوهلةٍ منه, لم أره بهذه الحال إطلاقاً, ليس وسيم الذي أعرفه, عاد الرعب إلى قلبي, ماذا سأجيبه؟ أخفيت عنه كي لا أزيد همومه, تركته برجاءٍ من والدته, فعلت ما فعلته من أجلك, أهكذا يكون جزائي؟

-"بتونيا: سأحتفظ بالإجابة لنفسي, هيا عد إلى خطيبتك, واتركني وشأني"

-"وسيم: سأعود لا تخافي, اتيت لأعطيكِ أمانة جدتك "

ومد لي ظرف منتفخ, ثم أضاف بتهكم تشوبه مرارة: "هذا المال المتبقي من وصية والدكِ, خذيه وشاركي صاحب هذا المكان, في شهرٍ واحد تجمعين عشرة أضعاف هذا المبلغ "

ماذا يقول هذا؟ لم أعد أحتمل قلة أدبه, سقطت دموعي بصمت, ثم رفعت يدي لأصفعه بكل قوتي, و كأني سأُخرج كل قهري وألمي من الدنيا فيه, وبحركة سريعة منه, قبض على معصمي ولواه.

قلت بنبرةٍ متهدجة تشي بالضيق: "إياك أن تقلل أدبك معي! لن أُسامحك يا وسيم, ولا أُريد رؤية وجهك مرةً أخرى, إياك أن تخرج أمامي! "

سحبت يدي من قبضته والتقطت الظرف من يده الأخرى, ثم أعطيته ظهري؛ لأعود إلى المنزل, بظهرٍ محني, وقلبٍ منكسر, متناسيةً لانا التي وضعتني في هذا الموقف المحرج.

*****

عندما أخبرتني سلمى بحديث بتونيا معها, جُنَّ جنوني, هل تريد قتلي هذه الفتاة؟ ماذا أفعل بها؟ كيف سأعيدها إلى حياتي؟ كيف؟.

حين رأيتها انتفض قلبي, وارتخت قواي, كنت أريد أن أمسكها من يدها, وأخذها معي إلى المنزل, أريد أن أُخفيها في جيبي,تحت جلدي, وبين رموشي, أن أحميها من كل شيء, ومن نفسها, أن أضعها في كتبي كفاصل قراءة لطيف, لا أدري ماذا حصل لي؟ لِمَ عاكستها وقسوت عليها في الكلام؟ بالرغم من معرفتي أنها أتت من أجل لانا, وأنها حاولت كثيراً أن تُعدلها عن هذه الفكرة.

بعد ذهابها لبثت في مكاني أنظر في الاتجاه الذي سلكته, كانت تمشي على مهل, وتترنح كأنها غزال جريح, أفقت من شرودي على صُراخ لانا:

"كيف تتحدث معها بهذا الأسلوب؟ أنا أجبرتها على المجيء, أنا من تشبثت بها, ألا يكفيها ما عاشته بحياتها؟ ألا يكفي الخوف الذي عاشته خوفاً من دخولها السجن؟ أتعلم لِمَ لمْ تُخبرك؟ كي لا تفسد نظام حياتك, لتُركز أنت بتخرجك فقط "

صمتت قليلاً لتأخذ نفساً عميق, ثم أردفت: "بتونيا لا تحب غيرك يا وسيم, تركتك من أجلك, شعرت بثقلها عليك, لم تشأ أن تبقى على خلاف مع والدتك من أجلها, وأنت ماذا فعلت؟ جعلت من رزان خطيبةً لك قبل أن يبرأ جرحيكما, كل ما حدث معها بكفة وخطوبتك بكفةٍ أخرى, كانت الضربة القاضية, سأتركك الآن مع عذاب الضمير "

رحت أركض كالمجنون كي ألحق ببتونيا, وجدتها تسند ظهرها على نخلةٍ, وتشهق, أفزعني بُكاؤها, وقفت قربها واهتزت الأنامل, ثم قلت بصوتٍ خافت: "أنا أسف, لم أكن أقصد ذلك ,هلّا سامحتني؟"

-"بتونيا: أُسامحك بشرط: أن لا تظهر بحياتي مرةً أُخرى"

-"وسيم: لماذا تفعلي هذا يا باتي؟ لماذا تُبعديني عنكِ؟ أنا مستعد لأن أُطلق رزان الآن وأتزوج بك, فقط اقبلي"

-"بتونيا: اعذرني, لا أستطيع بناء سعادتي على حساب تعاسة غيري, ثم نحن لا ننفع سوياً, أنت تُحزنني وأنا أُحزنك, أريد بعض السلام لا أكثر"

كنت أتأملها بصمت, وأريح بصري بوجهها المتعب, وكأن كل طمأنينة العالم بها.

-"وسيم: على الأقل دعيني أساعدك, أريد أن أطمأن عليكِ بين الحين والآخر, أرجوكِ"

-"بتونيا: طبعاً لا, لن أقبل بهذا, لكن أعدك إن ضاقت علي دنياي سألتجئ لك أولاً"

-"وسيم: نتحدث بهذا الموضوع لاحقاً؛ لأن الحديث الآن بدون فائدة, هيا دعيني أوصلكما إلى المنزل, وأرجوكِ لا تعترضي؛ لأنني أستطيع أن أجد عنوان منزلك من المديرة بسهولة, هيا لنعد إلى موقع السيارة"

هزت رأسها إيجاباً دون أن تنبس بحرف, ثم سارت أمامي وهي تلتقط ذراع لانا, في الطريق أشعلت المذياع ورحت أُقلب بين الإذاعات؛ علني أجد رسالةً مُبطنة أرسلها لها, ووجدت مطلبي.

(أدخلني حبك سيدتي مدن الاحزان

وأنا من قبلك لم ادخل مدن الاحزان

لم اعرف ابدا ان الدمع هو الانسان

ان الانسان بلا حزن ذكرى انسان

علمني حبك ان اتصرف كالصبيان

ان ارسم وجهك بالطبشور على الحيطان

يا امرأة قلبت تاريخي

اني مذبوح فيك ..من الشريان الى الشريان

علمني حبك كيف الحب يغير خارطة الازمان

علمني اني حين احب ..تكف الارض عن الدوران

علمني حبك اشياء ما كانت ابدا في الحسبان

فقرأت اقاصيص الاطفال..دخلت قصور ملوك الجان

وحلمت بان تتزوجني بنت السلطان

تلك العيناها اصفى من ماء الخلجان

تلك الشفتاها اشهى من زهر الرمان

و حلمت بأني اخطفها مثل الفرسان

و حلمت باني اهديها اطواق اللؤلؤ و المرجان

علمني حبك سيدتي ما الهذيان

علمني كيف يمر العمر و لا تأتي بنت السلطان)

كنت أنظر إليها بواسطة المرآة, لم تتوقف دموعها عن الجريان, كانت تلقي برأسها على كتف لانا, وتغمض عينيها والدموع تفيض على وجنتيها,

أما لانا فكانت تصف لي موقع المنزل, عندما وصلنا ترجَّلت من المركبة؛ لألقي نظرة عابرة على المنزل الصغير المهترئ, لا أدري كيف تعيشان هنا بمفردهما؟.

-"بتونيا: شكراً لك "

-"وسيم: هذا واجبي يا عقلة الإصبع, هل توصيني على شيء؟"

استأذنت لانا ودخلت إلى المنزل.

-"بتونيا: لا أريد شيئاً, أشكرك مرةً أخرى"

-"وسيم: انتبهي على نفسكِ يا باتي, إذا سمحتي لي سأجد لكما عملاً يناسبكما"

-"بتونيا: لا, لن أبحث عن عمل الآن, هذه النقود تكفينا إلى حين صدور النتائج, والتسجيل بصندوق الأمان"

-"وسيم: كما تريدين, هيا اذهبي وارتاحي, وأوصدي الباب والنوافذ جيداً, وأرجوك لا تُغلقي هاتفك, يجب أن نطمأن عليك أنا وسلمى "

-"بتونيا: إن شاء الله. طابت ليلتك"

-"وسيم: أستودعكما الله الذي لا تضيع ودائعه"

لم أستطع الذهاب, لم يطاوعني قلبي على فعل هذا, سأنام في سيارتي, على الأقل يرتاح بالي قليلاً, لم أستطع النوم فقررت السهر, كنت قد اشتريت بعض الكتب الجديدة, ولله الحمد أني لم أضعها في المنزل, أخذت أحد هذه الكتب, وبدأت القراءة.

سرقني الكتاب من حالي, عشت في أجساد شخصياته, أدخلني في عالمٍ مختلف, مثير, وهانئ, تمنيت لو أستطيع أخذ باتي والعيش في هذا الكتاب إلى الأبد. انتهيت منه عند أذان الفجر.

رأيت منزل باتي يُضيء من أطراف النافذة؛ فعلمت أنها استيقظت لأداء الصلاة, شغلت سيارتي وعدت إلى المنزل, من الآن وصاعداً سأبقى في سيارتي لأحرسها ليلاً وأعود عند أذان الفجر إلى منزلي, على هذه الحال يجب أن أشتري المزيد من الكتب.

تخرجت وأخيراً, والآن حان وقت السفر, لن أعود دون أن أجد والدتها, لن أبقيها في هذا المنزل, ولو بالإجبار.

كانت الأيام الماضية مُتعِبة, لقد أرهقتني رزان نفسياً, لا تشبهني, ولا بشيء, اهتماماتنا مختلفة كلياً, أفكارنا, طموحاتنا, طريقة حياتنا, أينها من باتي التي أشعر أنها أنا ؟, أُخاطبها كما أخاطب نفسي, كأنها مرآتي, أين أذهب بأحلامنا المُشتركة ؟ أأمسحها لأُسعد رزان ؟ لن أفعل, لستُ نبياً ولا مَلَكَ, سأدافع عنَّا, لا أستطيع أن أهدم أحلامي من أجل أحد.

بالنسبة لباتي ولانا فلم يخرجن من منزلهن إلا نادراً, وهذا ما طمأنني عليهما, وجودهما داخل المنزل يُريح قلبي, كنت أنتظر رسالةً منها لتُبارك لي تخرجي؛ لكنها لم تفعل, لا بأس, المهم أنها بخير, لا أُخفيكم عاد الشغف إلى روحي, أصبح لدي أمل, ستعود باتي لي بعودة والدتها, إيماني بالله كبير, لا أعلم ما ينتظرني لكن قلبي مرتاح.

أصرت والدتي وخالتي على إقامة حفل تخرج كبير, لكنني رفضت, ثم إتفقنا على حفلٍ بسيط لا يحوي سوى الأصدقاء, والمقربون. أنتظر انتهاء الحفل بفارغ الصبر, اعذروا حماسي ولهفتي, لكني أريد أن أسافر بأسرع وقت.

-"رزان: سوسو ألم ترتدي ثيابك بعد ؟"

-"وسيم: إسمي وسيم يا رزان, لا تجعليني أفقد عقلي, ثم لماذا أرتدي ملابسي قبل ست ساعات ؟ أقنعيني"

-"رزان: لا أعلم لكنني أحاول خلق حديث بيننا, ألا تُلاحظ أننا لا نتكلم سوياً؟ لم نعش فترة الخطبة كما يجب"

-"وسيم: في الخطوبة يتعرف الخاطبين على بعضيهما, أنا أعرف عنك كل شيء, وأنتِ كذلك, لدرجة معرفتك لكل ألوان قمصاني, ماذا تُريدين أن نتحدث بالله عليكِ؟"

-"رزان: بما أننا نعرف بعضنا إلى هذا الحد, إذن دعنا نتزوج"

-"وسيم: ماذا؟ طبعاً لا, أخبرتك سابقاً أني لن أتزوج أحد قبل أن أُزاول مهنتي, وأعتمد على نفسي"

-"رزان: لست بحاجة يا وسيم, دخل الصيدلية جيد كما تُخبرني خالتي, وأبي معه الكثير من المال سيساعدنا"

-"وسيم: أتمزحين؟ لا أريد أن أغضب يا رزان, هيا أُخرجي من غرفتي, أريد أن أنام"

-"رزان: لا زلت تحبها, أنا أعلم أنك تؤجل موضوع الزواج؛ علك تقنعها في العودة لك, أتعلم لو حدث هذا؟ سأقتل نفسي وستبقى خطيتي في عنقك"

ثم صفقت الباب وخرجت, يا ربي ما هذه البلوة؟ بدأت أفكر في أن أنحرها بنفسي, أليس لديها ذرة كرامة؟ تعلم أني أُحب غيرها ومع ذلك تلتصق بعنقي, لماذا لا تكف عن ملاحقتي؟.

يجب أن أنام, أشعر أنني منهك, فكما تعلمون أُطيل السهر في الفترة الأخيرة. نمت لساعتين متواصلتين دون أن يُنغص علي أحد, استيقظت واغتسلت, ثم ارتديت ملابسي, هذبت شعري وذقني ثم نزلت إلى غرفة الجلوس. كانت خالتي, ورزان, وبنات عمي, وزيد يتشاركون الأحاديث, و أكواب القهوة, أما سلمى فتساعد أمي في المطبخ, ألقيت التحية عليهم, ثم انسحبت إلى المطبخ؛ فلحق بي زيد.

-"زيد: كيف استعدادك للغد؟"

-"وسيم: أنظر إلى وجهي, ماذا ترى؟"

-"زيد: أتحبها إلى هذه الدرجة يا وسيم؟ ألم تمل من الحزن والمصائب التي ترافقكما؟ ألا ترى أن ابتعادها عنك أفضل حلٍ لكما؟"

-"وسيم: ماذا تهذي يا رجل؟ أموت من أجلها, أنتظر سفرنا بفارغ الصبر, هات يدك وضعها على صدري, أترى كيف ينبض بحماس؟ أتريدني أن أتخلى عن مشاعري ولهفتي؛ لأعيش حياة رتيبة مملة مع رزان؟"

-"زيد: أتمنى أن نجد ضالتنا سريعاً"

-"وسيم: توكل على الله, ولا تقلق"

-"زيد: والنعم بالله"

-"وسيم: هيا إتبعني لنرى ماذا حضروا من أجلنا؟"

كانت أمي منهمكة في إعداد المخبوزات بأنواعها المتعددة, والرائحة الزكية تملئ المنزل. سلمى تدعو صديقاتها إلى الحفل وكأن الحفل يُقام من أجلها.

-"زيد: ألم تخبروني أن الحفل عائلي؟"

-"سلمى: ما شأنك أنت؟ أريد دعوة صديقاتي, نعم أنا أستغل الفرصة"

-"زيد: ما بكِ يا غبية؟ سألت سؤالاً وحسب"

-"سلمى: أنت الغبي, انتبه لكلامك, وإلا طعنتك"

-"وسيم: هي, ما بكما كقطط الشوارع؟ سلمى ركزي بهاتفك, وأنت يا زيد تناول ما بيدك لنعود إلى غرفتي"

-"زيد: إن شاء الله"

ثم أردف بسخرية: " ألن تدعي بتونيا إلى هنا؟ ألم تعد صديقتك؟"

نظرتُ نظرةً خاطفة نحو أمي؛ لأرى ردة فعلها, إنتبَهت لنظراتي وأنزلت عينيها إلى الأرض.

-"سلمى: ليست صديقتي وحسب, بل أختي, سترى الآن كيف سأدعوها؟"

حوَّلت نظراتي إلى سلمى, ثم هززت رأسي مُشيراً لها بعينيّ؛ لتأخذ الإذن من والدتي, ففهمت مقصدي وهتفت: "أمي, ما رأيك؟ هل أدعوها؟ لم أرها منذ فترةٍ طويلة, واشتقت لها كثيراً"

عادت أمي تُلقي نظراتها نحوي, كيف أتهرب من نظرات المكر في عينيها؟ رحت أبتسم كالأبله, ردة فعلي لم تكن بمكانها, ماذا حدث لعقلي؟ إنفَجَرت أمي بالضحك على حالتي, وأتمها زيد بضحكته العالية, عادت تنظر نحو سلمى وقالت: "صديقتك وأنتِ أدرى, افعلي ما تشائين"

بسم الله ماذا يحدث لأمي؟ طبعاً ستقبل فهي الآن مطمئنة؛ لارتباطي برزان, وخوفي من فكرة إنتحارها, ماذا أفعل بأمي؟

-"سلمى: طبعاً سأدعوها, أحبك يا أمي"

ثم طلبت رقم باتي, طال الرنين أو ربما لأنني أشعر أن الثانية أصبحت دهراً.

-"سلمى: وأخيراً يا باتي, إسمعي أرجوك لا ترفضي, أريد أن أدعوك إلى منزلنا اليوم, هلّا أتيتِ؟ نُقيم حفلاً صغيراً بمناسبة تخرج وسيم وزيد"

والواضح أنها رفضت, تعابير وجه أختي تغيرت.

" لو سمحتِ وافقي من أجلي, لقد اشتقت لكِ, هيا أرجوكِ"

تنهدت وزادت إختلاجات وجهها وهي تستمع لمبررات بتونيا.

-"رنا :أعطني الهاتف يا سلمى"

ركضت سلمى نحو أمي سريعاً وناولتها الهاتف بلهفة, أخذت أمي الهاتف واختفت من أمامنا ثم عادت بعد دقائق, وقالت: "ستأتي"

قفزت سلمى بسعادة, وراحت روحي تُحلق معها, ولولا خوفي من أمي لقفزت أنا الآخر فرحاً, تبادلنا الابتسامات أنا وزيد وذهبنا إلى غرفة الجلوس

*****

إن كنتم تتساءلون عن أحوالي فأنا بخير, وأوضاعنا ممتازة, تعلمت طهي بعض الأطباق وأصبحت أُتقن وضع الملح بِقدرٍ مناسب, وهذا من الانجازات التي أفخر بها, لا نخرج من منزلنا إلى للضرورة, أنا أقضي وقتي في القراءة, ولانا تقضيه على الهاتف, لا أعلم مع من تتحدث, أصبحت غامضة بعض الشيء, مع أننا في نفس الغرفة, لكننا لا نتحدث إلا للضرورة, أتمنى أن لا تجرَّ نفسها إلى مصيبةٍ أخرى.

أنتظر صدور النتائج بفارغ الصبر, لم يتبقى الكثير, أشعر بالحماس ولم أفكر بعد بالتخصص الذي سأختاره, لننتظر ونرى. صحيح أخبرتني سلمى أن وسيم قد تخرج, أشعر بالسعادة من أجله, ها هو يخطو أولى خطواته لإثبات ذاته, ليُسعده الله ويكتب له الخير أينما ذهب.

أتعلمون لمن اشتقت؟ لبتونيا الكبيرة: لنخلتي وملاذي, ماذا عساها تفعل الآن؟ حاولت كثيراً الاتصال بها لكن هاتفها مغلق, كيف سأصل لها؟ لو أنني أعلم لها طريقاً, ذهبت وذهب معها الرضا, والدعوات الدافئة, لا أحد يُرقيني مثلها, ولم أجد حِجراً دافئاً كحجرها, يا ليتني أسمع صوتها, يا رب طمئني عن جدتي فهي أخر ما تبقى لي من رائحة والدي.

أما عمتي فهي عالقة في حُنجرتي, لم أصدق إلى الآن كيف نكرتني وأخرجتني من حياتها؟, مع هذا لا أكرهها, ولا أستطيع, تخطر ببالي ذكريات جميلة جمعتنا, أحِن لها كثيراً, وأتمنى أن تسامحني, يا ليتها تتذكر سهراتنا سوياً, كم كانت ترجو والدي لأنام عندها, ليتها تتذكر كم مرةٍ اختبأت وراء ظهرها خوفاً من أبي, كلما تذكرتها أشعر بغصةٍ تشق روحي.

كنت شاردة الذهن باكية العينين, مشروخة الروح, لا أدري لما أخلق لنفسي جواً من الحزن؟ دائماً ما تنتهي ذكرياتي بالدموع التي أغص بها, أُريد أن أفرح, اشتقت أن أضحك من قلبي. أريد أن أرى وسيم, وهذا أيضاً يحدث معي كثيراً بالفترات الأخيرة, عندما أبدأ الدعاء لنفسي أختمه بوسيم, ولا أدري لِمَ لَمْ أقطع الأمل منه بعد؟

قاطع صوت أفكاري رنين هاتفي المدفون تحت الوسادة, كانت سلمى المُتصلة, إبتسمت.. لقد اشتقت للحديث الطويل معها, إتصالك في وقته يا سلمى.

كانت تدعوني إلى منزلها, فرفضت كيف سأذهب إلى هذا المنزل الذي خرجت منه باكية؟ تطلبين شيئاً كبير يا سلمى, فجأة سمعت صوت الخالة رنا: "كيف حالك يا ابنتي؟ هل أنتِ بخير؟"

-"بتونيا: خالة رنا؟ بخير, الحمد لله"

-"رنا: اسمعي يا باتي, لننسى الماضي ولو ليومٍ واحد, أرجوكِ اقبلي, سلمى وحيدة جداً بدونك, أنتِ أفضل صديقةٍ لها, لنفتح صفحة جديدة من أجل سلمى"

-"بتونيا: كيف تطلبين مني العودة إلى حياتكم بعد ما حصل؟ إن كنتِ تستطيعين التغاضي؛ فأنا لم أنسى"

-"رنا: أنا لم أطلب منك العودة لوسيم, وسيم قد خطب رزان وهما سعيدان, أنا أريد استعادة صديقة إبنتي: الداعمة, والساندة, والحانية, لا تُطيلي أرجوكِ, لقد حضَّرت الكثير من الأطعمة التي تُحبينها, هيا يا باتي وافقي"

تنفست الصعداء ثم أجبت: "من أجل سلمى فقط"

-"رنا: أهلاً وسهلاً يا ابنتي, ننتظركِ مساءً"

أغلقت الهاتف وأرخيت جسدي على السرير, ماذا سأفعل الآن؟ كان علي أن لا أقبل وكأن أبواب السماء كانت مفتوحة, حتى أستجيب دعائي بدقائق.

-"بتونيا: لانا..لانا.. هي, استيقظي "

رفعتُ الغطاء عن وجهها ببطء, ثم قالت:

"سمعت حديثك, ولن أرافقك"

-"بتونيا: لانا لو سمحتِ, لا تتركيني لوحدي "

-"لانا: قلت لكِ لا, لن أذهب, عندي موعد ضروري"

-"بتونيا: ضروري ها, مع من موعدك؟"

-"لانا: هل تعتقدين أني حمقاء لأخبرك؟"

-"بتونيا: لانا, ماذا يجري لكِ؟, هيا تكلمي"

-"لانا: أوه منكِ, ما هذا الفضول؟ لن أخبرك, ثم إذا كنتِ تُريدين رفيقاً للطريق, أوصلك أنا وأذهب لموعدي"

-"بتونيا: مع من موعدك؟ أريد أن أطمئن"

-"لانا: أيقظيني بعد ساعة "

أعادت الغطاء فوق وجهها, يجب أن أراقبها, أشعر بالخوف عليها؛ فهي متهورة, ولا تفكر في خطواتها, سأجد يوماً مناسب لألحق بها, وأعلم ما تُخفيه عني.

ارتديت فستاناً أبيض, تُزهر عليه ورود بنفسجية اللون, حزامه رقيق من نفس قماشه, وحجاباً بنفسجياً أفتح من لون زهور الفستان بدرجتين, لم أضع شيئاً على وجهي, تعلمون لا أحب أي شيء يُخفي ملامحي.

وجهي هو ملخص كفاحي الذي أفخر به, التعب الذي يرسم شحوباً عليه..خطوط الضحك التي ترسم عمراً عزيزاً.. أما خطوط جبهتي؛ فتذكرني بالمرات التي غضبت بها وثُرت, تُذكرني بقوتي وكم مرةٍ قسوت

بها على نفسي, وخطيّ الحزن اللذان يُذكراني بكل ما أوجع قلبي, وجهي مرآة شخصيتي, ومع هذا كله أراه لطيف.. لطيفٌ مُتعب.

أوصلتني لانا إلى منزل الخالة رنا, كان الرجال يجلسون في حديقة المنزل, قبل أن أدخل نظرت إلى منزل جدتي, اعتراني الحنين له فقررت أن أُلقي نظرةً عليه وأعود إلى هنا. هناك سيارتان تصطفان أمام الباب, والباب الخارجي مفتوح, لا أدري من أين أتتني الشجاعة لأدخل حديقة المنزل؟ نظرت حولي أتفحص المكان: المزروعات على حالها لكنها لم تعد كما هي, ربما روحها ماتت, أتعلمون؟ أنا من الأشخاص الذين يظنون أن الأشياء تحزن على فراق أصحابها: كالمنازل, والزرع, والألعاب.

فُتح الباب فجأة, فلم أعرف كيف أتصرف؟ ظهر منه رجل أربعيني, نظر نحوي باستغراب, ثم قال: "من أنتِ؟ هل أستطيع مساعدتك بشيء؟"

-"أنا آسفة يا عم, هل هذا منزل أم وسيم؟"

"لا يا ابنتي, إنه هناك على يميننا "

وأشار إليه بسبابته, اعتذرت منه وخرجت, لماذا لم أخبره أن هذا المكان يخصني؟ لِمَ لمْ أطلب منه أن أرى الداخل؟ أن أحضن الأبواب, وأقبل الجدران, سامحك الله يا عمتي. إتكأت على سور الحديقة قليلاً وقبل أن أتحرك وجدت وسيم أمامي.

-"بسم الله, من أين خرجت أنت؟"

-"وسيم: رأيتكِ عندما دخلتِ إلى حديقتنا, ثم خرجتِ؛ فلحقت بك لأرى ما قصتك؟"

-"بتونيا: هل رأيت؟"

-"وسيم: كلنا سنرحل يا باتي, لن يتوقف الأمر على المنازل, والسيارات, والأحلام "

-"بتونيا: معك حق "

ثم سرت إلى منزلهم دون أن أنظر خلفي, ألقيت التحية على زيد الذي يقف أمام الباب, ثم دخلت, هل تعرفون من استقبلني؟ نعم, بنفسها رزان البلهاء, كانت ترتدي فستاناً أحمر اللون, ووجهها يبرق بالألوان, أما الشعر فمصيبة, لا أريد أن أتحدث عنه, عندما رأيتها تحول شعر جسدي إلى شوك.

-"رزان: من دعاكِ أنتِ؟ لن أسمح لك بالدخول, هيا بلا مطرود"

تراجعت قليلاً للوراء وقبل أن أفتح الباب أتت الخالة رنا, وهتفت:

" هذا بيتي يا رزان, أستقبل به من أشاء, أهلاً وسهلاً يا باتي"

ومدت يدها لتصافحني, ثم أردفت: " شكراً لك لأنك أتيتِ, سلمى وشهد في الأعلى, هيا أسرعي "

ابتسمت لها ومشيت مشية انتصار, ثم استدرت برأسي, نظرت نحو رزان وغمزتها بعيني, ومضيت لغرفة سلمى.

عندما رأتني سلمى قفزت تُحيط عُنقي بذراعيها, كانت تصرخ بفرح:
"وأخيراً يا باتي, وأخيراً, لقد اشتقت لك"

-"شهد: هيا يا سلمى ابتعدي, دوري الآن"

وانقضت علي هي الأخرى, أنا سعيدة يا رفاق, دعوت الله نهاراً أنني أريد أن أضحك؛ فأضحكني من أعماق قلبي, لم أشعر بالوقت أبداً.

أحدهم يطرق الباب, ادعوا معي أن لا تكون رزان

-"رزان: أين كرامتك يا باذنجانة؟ تأتين لبيتٍ طُردتِ منه"

-"سلمى: رزان اخرسي وأخرجي من غرفتي "

-"بتونيا: لا يا سلمى دعيها تبقى هنا, دعيها تُفرغ سُمها, ثم أُريد أن أُصحح معلومتك, أنا من خرجت من المنزل بنفسي, لم يطردني أحد"

-"رزان: أتعلمين؟ أحسدك على وقاحتك, مجهولة النسب, مطلقة, وعالةٌ على المجتمع, وقصيرة"

-"شهد: هي, من تظنين نفسك؟ إذا قللت أدبك معها سأُبرحك ضرباً"

-"رزان: لا ينقصني سواكِ يا قبيحة"

-"بتونيا: أعرض عن الجاهل السفيه, فكل ما قال فهو فيه, ما ضر بحر الفرات يوماً, إن خاض بعض الكلاب فيه"

ثم ضحكت من أعماق قلبي, كدت أنسى هذا النوع من الردود, أتى وسيم ووقف إلى جانب رزان, قطعت ضحكتي وأنزلت رأسي إلى الأرض, لا, ليس خجلاً, لكنني لم أستطع النظر إليهما معاً في ذات الصورة, وكأن مسماراً يُطرق في قلبي بعنف.

-"وسيم: عادت حليمة إلى عادتها القديمة "

ثم ابتسم, لم أرى إبتسامته, لقد شعرتها بقلبي.. يضحك فيُزهر فؤادي من أجله.

-"رزان: هل خجلتِ الآن؟ ما بكِ؟ هل كنتِ تُمثلين عليه الأدب؟"

-"بتونيا: لكِ وجهٌ يحِلُّ البصقُ فيه, ويحرُمُ أن يُلقى بالتحيةِ"

هذه المرة إنفجر الجميع بالضحك, إلا كُتلة الخبث.

-"رزان: اعرفي حدودك, وتكلمي معي بأدب, سأريك مع من ترقصين"

-"سلمى: ماذا ستفعلين؟ هيا أرينا جميعاً"

يبدو أن سلمى استفزتها بكلماتها, فانقضت علي وصفعتني, نظرت نحوها باستغراب, لم أستوعب بعد كيف تجرأت على هذا الفعل؟ دفعها وسيم وأخرجها من الغرفة وهو يصرخ:

" أخرجي من وجهي الآن؛ وإلا هشمتك بيديّ"

أمسكت سلمى يدي, ثم قالت: "أعتذر منك يا باتي, لم أعتقد أنها ستتمادى إلى هذه الدرجة"

-"بتونيا: لا عليك, ليت كل مشاكلي مثل هذه"

-"وسيم: هل أنت بخير يا باتي؟"

-"وسيم: اسمي بتونيا يا وسيم, بتونيا, وأنا بخير"

ثم وجهت نظري لسلمى, وقلت:

" يجب أن أذهب الآن, اسمحي لي "

-"سلمى: لا, لن أدعكِ تذهبين, أعلم أنكِ انزعجتِ مما حدث, أعتذر منك مرةً أخرى, أرجوك ابقي قليلاً, تعلمين كم اشتقت لك, ابقي من أجلي"

-"شهد: أخي سيأتي بعد نصف ساعة ليصطحبني, نوصلك معنا ما رأيك؟"

-"وسيم: لا طبعاً, كيف ستركب بسيارة رجلٍ غريب,؟ أنا سأوصلها"

زجرته بعنف: -" وأنت من؟ هل من محارمي؟ أم من بقية أهلي؟ أُفضل أن تواسي حبيبتك, قبل أن تفعل شيئاً لنفسها"

-"وسيم: عُقلة الإصبع, ما بك؟ لم أفعل لك شيئاً, لقد دافعت عنكِ"

-"بتونيا: قلت لك اسمي بتونيا يا أحمق, بتونيا, وأنا لم أطلب دفاعك, ولا أريدك بحياتي, أنا أتيت اليوم من أجل سلمى فقط, سلمى من تُهمني في هذا المنزل"

-"وسيم: يا لك من فتاةٍ حادة الطباع, ومجنونة, عاكسيني قدر ما تشائين لن أخرج من حياتك, وسأوصلك أنا وسلمى, ثم تذكري أنكِ وصية زياد وحياة لي, يعني لن أُفرط بك, ولو أصبح لدي عشر أولاد"

لقد طفح الكيل, يريد أن يُثير جنوني, قلت متمالكةً أعصابي وبصوتٍ خافت: "لا أُنكر أنك كنت جانبي في أصعب أيام حياتي, وأشكرك على هذا, لكن أمانتك إلى هنا وحسب, أنا لست لُعبتك, وأرجوك أن لا تتدخل بي "

-"وسيم: هل ممكن أن تكوني وقعتِ على رأسك في صغرك؟"

ابتسمت ثم أجبت: " نعم وقعت, لكنها لم تكن في صغري, قبل خطوبتي منك بأسبوع, أسقطني من حمَّلَكَ أمانة حمايتي, أرجوك استوعب, لا تُضيِّقها علي واعتقني "

نظر نحوي نظرة يأس, ثم قال: "كما تريدن, سأفعل من أجلك معروفاً واحد وأخير, بعدها أعدك لن أظهر بحياتك مجدداً "

ثم خرج وضرب الباب خلفه.

-"سلمى: ما هذه القسوة يا باتي؟ لقد أفرغت كل حنقك وغضبك بالشخص الخطأ, لماذا؟ بماذا أساء لكِ؟ هل لأنه خطب رزان؟ لكنك أنت من تركته, أنت من رميته لمخططات أمي"

-"بتونيا: نعم, أعلم هذا, وأعترف بخطأي, لكنني أفعل هذا من أجله ومن أجل والدتكِ, لا أريد أن يخسرها من أجلي, لا أحتمل نظرة لومٍ من عينيه لي, ولن أحتمل أن أكون مصدر الحزن والكئابة في حياتكم, افهميني يا سلمى, أريد بعض السلام لا أكثر, أتمنى أن أعيش روتيناً مملاً بدون أي حادثة, أو مصيبة تُكدر صفوي, لقد تعبت من حياتي, أرجوكِ لا تضغطي علي أنتِ الأخرى, فقط افهميني"

-"شهد: أنا أفهمك يا صديقتي, وسأقف بظهرك مهما كانت قراراتك "

-"سلمى: لا أعلم ماذا أفعل؟ أنتِ أختي, ووسيم أخي, والواضح أنك أنهيت الموضوع, كما تريدين لن أتدخل لكنني أشعر أن أمي وراء تركك لوسيم, أتمنى أن أكون على خطأ"

غيرت مجرى الحديث ورحت أضحك معهما على صفعة رزان لي, أعترف أنها آلمتني, لكنني لم أُقصِّر وأستحق هذا الرد

-" شهد: باتي, هيا لنذهب, أخي ينتظرنا بالأسفل"

-"بتونيا: انتبهي لنفسك يا سلمى, ومن الآن وصاعداً أنتما ستأتيان لبيتي المتواضع "

-"سلمى: مجنونة, لكني أحبك يا أختي.. اعلمي مهما خاضت بك الدنيا أن لكِ أختاً تُعطيك روحها لو طلبتِ"

-"شهد: أختين لو سمحتي"

-"بتونيا: الله يعلم كم أحبكما, هيا لنذهب يا شهد"

-"سلمى: سأرافقكما إلى البوابة"

ودعت الخالة رنا قبل خروجي, ثم رأيت رزان تبكي وتنظر نحوي بحقد, آلمني قلبي من أجلها, وأعطيها الحق, لم تروا كيف غضبت أنا؛ لأنني رأيتهما معاً, فكيف سيكون حالها وهي تعلم أن وسيم لا يزال يُحبني؟.

-"شهد: هيا يا باتي, هل سأنتظر كثيراً؟"

-"بتونيا: ها أنا قادمة"

رحت أتبعها على استحياء؛ فالمدخل مليء بالرجال

-"زيد: بتونيا"

التفت نحوه بدهشة, ثم قلت: "تفضل, ماذا تريد؟"

-"زيد: كافحي من أجل نفسك, خذي ما تريدين بقوة, وتشبثي بما هو لك, أنا أسف لتدخلي؛ لكنك تُحزنين وسيم كثيراً, وأنت تعلمين أن وسيم خلاصك مما تعيشينه, وتعلمين أيضاً أنه يُحبك, ويحارب الجميع من

أجلك حتى والدته, لا تفكري إلا بنفسك, ولا تطيلي التفكير؛ كي لا يضيع العمر من يديك وتتحسري عليه لاحقاً"

إبتسمت ورددت بسعادة: "شكراً زيد, أعدك أنني سأفكر بما قلت, اعتني بوسيم. سفرةٌ موفقة"

أوصلتني شهد إلى المنزل, كانت الأنوار مطفئة؛ مما يعني أن لانا لم تأتي بعد, أين ذهبت يا لانا ؟ اتصلت بها مراراً ولم تجب, ثم أَغْلَقَت هاتفها, هل يُعقل أن تكون بخطر ؟ ماذا سأفعل الآن ؟ كنت أجلس بالمطبخ أفكر بها, وبوسيم, ورزان. الأمور متداخلة ببعضها, يجب أن أجد حلولاً وبأسرع وقت.

أتت لانا بعد منتصف الليل, كان قلبي قد تجمر من الخوف عليها, وكنت أُجاهد نفسي؛ كي لا أتصل بوسيم للبحث عنها.

صرخت عليها: " أين كنت حباً بالله ؟ على الأقل افتحي هاتفكِ, لقد جُننت وأنا أنتظرك"

-"لانا: سأخطب غداً من أسعد سراً عن والديه؛ لأنهما يُعارضان زواجنا"

-"بتونيا: ماذا ؟ من أسعد ؟ سر ماذا ؟ هل تهذين يا لانا"

ثم انهارت من البكاء, عانقتها وتمتمت بآياتٍ من القرآن الكريم على رأسها؛ علها تهدأ, كنت أعلم أنها ستوقع نفسها في المتاعب, لكنني لم أتخيل هذا

أبداً, ماذا ينقصها لتتزوج بالسر؟ ولرجلٌ تعرفت إليه من أُسبوعين, هل هذا وقتٌ كافٍ لزواج اثنين.

-"بتونيا: أخبريني ماذا حصل؟"

-"لانا: صدقيني لم أرتكب خطأ, تعرفت إلى أسعد منذ فترة, وهو من أُعجب بي بادئ الأمر, وأخبر والديه عنا لكنهما رفضا, كما فعلت أم وسيم. لماذا ينبذوننا؟ ما ذنبنا نحن بما اقترفه آبائنا؟ صحيح أن الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون"

-"بتونيا: اهدئي وأخبريني كيف أحببتما بعضكما بهذه الفترة القصيرة ؟ أتضمنين أن يكون رجُلاً معك؟ أن لا يخدعك."

-"لانا: ليس صغيراً في الأربعين من عمره"

-"بتونيا: لا! بالتأكيد جننت, هل صدقت أن والديه من يمنعانه عنك؟ هذا ليس مُراهقاً؛ ليتحكم به والديه, لن أسمح لك بتدمير مستقبلك "

-"لانا: أريد أن أنجو من التشرد يا باتي, تعبت من مراكز الأيتام, أخاف أن أذهب إلى السجن إذا لم أتزوج, أُريد أن أُجرب "

-"بتونيا: لا أشعر بالراحة حيال هذا الأمر, إستخيري أرجوكِ, ثم هل ستتركينني بمفردي هنا؟ هل تُضحين بي؟ "

-"لانا: سأزورك يومياً لا تخافي, في الوقت الذي يكون هو عند والديه سآتي اليكِ"

سأنام, هذا يكفيني لليوم ولخمس سنوات للأمام, تُصبحون على خير.

*****

أتمتلك قلباً من حجر؟ أيُعقل أن يتغير الإنسان ويتبدل حاله بعدة أسابيع, لا أدري كيف يطاوعها قلبها أن تقسو علي؟ ماذا سأفعل الآن؟ لو أنرت أصابعي العشرة لها لن ترضى, أعرفها عنيدة؛ ستُضحي بنا من أجل رزان, ومن أجل أمي.

-"زيد: يكفي يا وسيم, ألم تتعب من التفكير؟ دعنا ندخل إلى المنزل, لقد اختنقت هنا"

-"وسيم: أُفضل الإختناق هنا على الإختناق في الداخل"

-"زيد: تقصد رزان ؟"

-"وسيم: كيف سأتركها دون أن أحمل ذنبها؟"

-"زيد: الآن يا وسيم تقول هذا؟ كان عليك الرفض من البداية, كنا لن نعيش هذا كله"

معه حق, ماذا أقول غلطة الشاطر بألف.

إنبلق الباب وظهرت منه سلمى تصرخ وتستنجد:

" أخي رزان حبست نفسها في غرفتك, وتهدد بالإنتحار"

ها هو الكرت الذي تضغط علي به, هل سأعيش عمري أداري خاطرها خوفاً من تحملي لذنب موتها؟

وبعد نصف ساعة من التوسل والرجاء حتى قررت الخروج من غرفتي, تتلاعب بالجميع بأصابعها, اعتذرت منها مُجبراً, وسمعت لسخافاتها مطولاً حتى امتلأت, ثم تملصت بصعوبة متحججاً بسفري, وذهبت لغرفتي أكمل التفكير في مشاكل حياتي.

استيقظت على صلاة الفجر, أتممت صلاتي ودعوت الله كثيراً أن يجد لي مخرجاً من هذه الورطة, ثم أخذت حقيبتي وودعت أمي والجميع, وخرجت لأصطحب زيد من منزله.

وصلنا المدينة التي تقطن بها الفتاة التي باعتها لزياد, ثم بحثنا عن فندق يناسب ميزانيتنا, وأخذنا غرفةً بسريرين لثلاثة أيام, أول عمل كان لنا أن نبحث عن اسمها في مواقع التواصل الإجتماعي, وكان بحثنا عبثاً, سنرتاح اليوم ونبدأ البحث عن اسمها بدوائر الأحوال المدنية.

-"زيد: عندي فكرة ربما تنفع"

-"وسيم: لتكن جيدة أرجوك, أريد أن أنتهي من هذا الموضوع سريعاً"

-"زيد: هناك مجموعات للبحث عن المفقودين على الفيسبوك, ما رأيك أن نسأل عنها هناك"

-"وسيم: أعجبتني الفكرة, لكن ماذا سنكتب؟"

-"زيد: نكتب أننا نبحث عنها لنوصل إليها أمانة مهمة وضرورية"

-"وسيم: هيا ابدأ على بركة الله"

في اليوم التالي خرجنا للبحث وتعلمون أن الدوائر الحكومية دوماً ممتلئة, والأمور تسير ببطء شديد, طبعاً لم نعثر على شيء لا عن طريق التواصل الاجتماعي, ولا عن طريق الدوائر الحكومية, عدنا إلى الفندق خاليين الوِفاض, وكذلك الأيام الأربعة التالية, حتى كدت أفقد الأمل.

-"زيد: وسيم يا وسيم تعال وانظر"

رحت أركض نحوه بفزع: "ماذا حدث؟ هيا تكلم"

نظر نحوي وابتسامة النصر تعتلي شفتاه, ثم قال: " وجدنا حنان"

وكأن هذا اليوم يوم ميلادي, وكأنني أنا من سأجد والدتي, لم أستطع الانتظار, أخذت زيد وتوجهنا إلى العنوان الذي أخذناه من الفتاة التي تقول أن حنان والدتها, عندما وصلنا إستقبلتنا الفتاة, وأدخلتنا إلى غرفة الضيوف ثم ذهبت لتُنادي والدتها.

كنت أنتظر قدومها بفارغ الصبر, حتى زيد كان يشعر بالحماس كثيراً, اللهم إجمعنا بضالتنا, بعد دقائق أتت امرأة على مشارف الثلاثين من عمرها, أنيقة جداً, لكنني لم أستلطفها, أشعر أن بها شيئاً غريباً ينفرني منها,

ألقت التحية وجلست, ثم قالت:

"تفضلا, لقد أخبرتني ابنتي أنكما تبحثان عني, وأن هناك أمانة لي معكما"

ارتبكت, كيف سأبدأ كلامي الآن, ساعدني زيد في بداية الحديث:

"نبحث عن شخصٍ تعرفينه حق المعرفة"

-"حنان: ومن هذا الشخص؟"

-"وسيم: صديقتك سعاد التي شاركتك السكن في غربتكِ"

تغيرت ملامح المرأة المتسائلة بسرعة قياسية, إضطربت وتوترت ثم قالت: " ليس لدي ما أخبركما به, هيا عودا من حيث جئتما"

انتفضت واقفاً وقلت: "لا تُريدي أن أفضحك طبعاً, هيا تكلمي أين سعاد؟ وإلا أخبرت زوجك وأولادك"

أجابت بتوتر شديد: "اجلس أرجوك, دعنا نتحدث بروية "

عدت إلى مكاني منتظراً ما ستخبرني به, ثم بدأت: " ليس لدي صديقة تسمى سعاد, هذا الاسم اختلقته؛ كي أخفي ما فعلت, الطفلة لم تكن لصديقتي"

-"زيد: هل أنتِ أمها؟"

-"حنان: لا, لست والدتها, كنت أحتاج إلى الكثير من المال؛ لأسدد ديوني قبل أن أعود إلى مدينتي, كنت شابة وأحب تجربة كل شيء, لم

أشعر سوى بالديون تزيد وتكبر, عندما زُرت حياة مرة أخبرتني بمشكلتها: فدارت في دواخلي فكرة, قررت أن أنفذها"

-"وسيم: ماذا فعلتِ؟ هيا انطقي"

-"حنان: أخبرتها أن صديقتي حامل, ولا تستطيع الإجهاض, و تريد أن تتخلص من طفلتها مقابل المال, ثم خرجت لأدعها تفكر, بعد ذلك أخبرتني بقبولها وزوجها المقايضة, عندما اقترب موعد ولادة حياة الكاذب بحثت في إحدى المناطق عن امرأة ولدت حديثاً, ثم وجدت"

-"وسيم: سرقتِ الطفلة؟"

انهارت من البكاء ثم قالت: " أرجوك لا تخبر زوجي وأولادي, لم أكن أعي ما أفعله حينها, ضاقت بي السبل "

-"وسيم: أتعلمين؟ أود أن أبرحكِ ضرباً, أن أُهشم وجهك, أن أُشتت شملكِ, أتعلمين ماذا فعلت بهذه الطفلة؟ أتدرين ماذا حل بها؟ كيف استطعتِ النوم؟ كيف تجرأتِ على إخفاء الحقيقة؟ ألم يؤلمك قلبك يوماً على أهلها؟ ألم تضعي نفسكِ مكان أمها؟ أليس لديك قلب؟"

-"حنان: أرجوك سامحني, سامحوني جميعاً لقد خفت, كيف سأخبر أهلي بما فعلت؟ حاولت كثيراً ولم أستطع"

-"زيد" دعينا من كذبك الآن, لن تُجدي دموعك بشيء, أخبريني أين سنجد أهلها؟"

-"حنان: لا أعلم مكانهم؟ كل ما أعرفه اسم الأخت الكبرى للطفلة, عندما سرقتها رأتني؛ فحاولت أن أُفهمها أنني صديقة والدتها, سألت عن اسمها الكامل وأجابتني, هذا ما أستطيع مساعدتكما به"

-"وسيم: أين منزلها؟ أتذكرين اسم أختها بالكامل ولا تذكرين منزلها"

-"حنان: سرقتها من السيارة عندما رأيت والدتها تصطف أمام إحدى الصيدليات, انتظرت دخولها ثم فتحت الباب وأخذت الطفلة, لم يكن في الشارع أحد, أخذتها وأسرعت إلى أول سيارة أجرةٍ رأيتها, ثم اتصلت بحياة وأخبرتها"

-"وسيم: أنتِ بلا ضمير, سرقتِ حياتها, سرقت منها والديها, دمرت عائلة بأكملها, وتُبررين خطأك بالطيش, ليلعنك الله, سأدعو عليكِ في صلاتي, لا سامحك الله"

-"زيد: أُكتبي هنا اسم الطفلة بالكامل"

ومد إليها دفتر ملاحظات صغير وقلم, عندما هممنا بالخروج من المنزل استوقفتنا حنان: "إنتظرا سأُحظر لكما السلسلة التي كانت تُحيط بعنقها"

ثم ذهبت وغابت عدة دقائق, وأنا أقف مكاني والدم يغلي بعروقي, عادت تحمل السلسلة كان يتدلى منها قطعة ذهبية على شكل قطرة

ماء, تحوي خرزة زرقاء, سحبتها من يدها القذرة وعدنا إلى الفندق, حان وقت الرحيل, لململمنا أغراضنا وحجزنا تذكرتين للعودة إلى بلادنا.

كان الإستقبال حافلاً وكأننا غبنا أعوام, كانت أمي قد حضرت الكثير من الأطعمة الشهية, تناولنا الطعام بنهم واستمعنا إلى أحداث المنزل الروتينية التي حدثت بغيابنا من والدتي, ثم شرَّفت الآنسة رزان, أتت سريعاً وحاوطتني بذراعيها, كنت أنظر نحو خالتي وأبتسم على مضض, أتمنى أن أقتل رزان بيديّ, ليتها تطير وتخرج من حياتي.

استأذن زيد وخرج, وتحججت أنا بالتعب ثم صعدت إلى غرفتي. تفكيري الآن بسارة أُخت بتونيا, كنت أظن أن الأمر سينتهي عندما وجدنا حنان, ثم اكتشفت أنني لا زلت في منتصف الطريق.

*****

في هذا الأسبوع عرَّفتني لانا على زوجها المستقبلي أي خطيبها, قبل يومين أتتني بعقد خطوبتها فجأة دون أن تخبرني, وكأن الفجوة اتسعت بيننا بليلة وضحاها.

خطيبها الذي لم أهضمه أبداً: يتضح من عينيه أنه كاذب, حتى أن نظراته نحوي بدأت تُزعجني, والوضع الآن مُزري بيننا, أصْبَحَت لا تطيق الحديث معي؛ لأنني شكوت لها نظرات زوجها المستقبلي, وطبعاً هي تفكر بأنني أكذب عليها لا محالة.

اليوم سيُشرفنا السيد أسعد؛ ليشاركنا طعام الغداء, وأنا لا أستطيع تركهما لوحدهما بالمنزل, ولا أحب البقاء معهما, لكني سأبقى حتى لو لم أرتح برفقتهما, عندما يتزوجان سأرتاح قليلاً ولو أنني أعلم أن زواجهما فاشل قبل أن يتم, سامحك الله يا لانا. طلبنا الطعام من الخارج: رتبت أنا الطاولة ولانا تتزين في غرفة النوم.

ها هو جرس المنزل يُقرع, ذهبت لأخبرها فطارت بخفة لتفتح الباب له, أما أنا فانتظرتهما بالمطبخ, سيتناولون الطعام ويخرجون للتنزه, توزعنا على المقاعد حول الطاولة, لم أتفوه بحرفٍ واحد, كنت أستمع لهما وأتناول طعامي بصمت, حتى أنني لم أرفع ناظريَّ عن طبقي.

-"لانا: شاركينا الحديث يا باتي"

ابتسمت لها, ثم وجهت كلماتي لأسعد: "متى ستتزوجان؟"

-"اسعد: لا تخافي سيبقى هذا البيت لكِ قريباً جداً, في الأسبوع القادم إن شاء الله"

-"بتونيا: ماذا؟! ما هذه العجلة؟ البارحة تخطبان وبعد أسبوع تتزوجان, لماذا يا لانا؟"

-"لانا: بتونيا أنا لا أهل لي, ولا فائدة من إطالة الخطوبة, هذا يكفي"

-"بتونيا: أُسبوع يا لانا, هل هو كافٍ لتتعرفان على بعضكما؟ ثم أنتِ صغيرة.. بل صغيرة جداً"

-"لانا: أنا أعرفه من وقت خروجنا من مركز الأيتام, ثم أنتِ صغيرة ومطلقة "

-"بتونيا: لانا هل تقولين هذا وأنتِ تعرفين حكايتي؟ ثم أنا أخاف من أجلك, أخاف أن تعودي لي مُشردة, ومطلقة, يكفي مُطلقة واحدة في هذا المنزل"

ثم هممت واقفة, لقد جرحتني بكلماتها, وهل الطلاق أصبح عيباً؟, تجرُّ نفسها إلى الهاوية وهي تعلم, كيف سأساعدها؟ كيف بالله عليكم؟

ـوقفني صوت خطيبها البغيض: "هل تخافين عليها مني؟"

-"بتونيا: نعم, وكثيراً, أنت بعمر والدها تقريباً, ألم تجد سواها؟ اذهب وانظر إلى المجتمع الواسع, أتتزوج بها لأنها طفلة؟ كي تدمر مستقبلها"

-"لانا: بتونيا, أصمتي لا تتدخلي بشؤوني, أنا أُحبه وهذا يكفي"

-"بتونيا: أنتِ كاذبة, أين ذهبت طموحاتك وأحلامك؟ أين ذهبتِ بصفات فارس أحلامك؟ أين موقع أسعد من أحلامك كلها؟"

-"اسعد: أنت أنانية يا بتونيا, تفعلين هذا لخوفك من البقاء بمفردك في هذا المنزل, اذهبي وتزوجي قرارك بيدك, لكن لا تقفي في وجه زواجنا, أنا مقتنع بخياري وسأضعها على رأسي وفي بيابي عيناي, لا تقلقي عليها"

-"بتونيا: أنا أنانية؟ لانا أرجوكِ لا تهدري حياتك عبثاً "

-"الانا: نعم, أنتِ أنانية, تستكثرين علي القليل من السعادة, عوضاً عن ذلك سانديني, قفي إلى جانبي, افرحي لي كما أفعل من أجلك, أنت فعلاً تخافين البقاء هنا لوحدك, وتُحدثين المشاكل؛ لإعاقتي عن هذا الزواج, لكنني سأتزوج وسترين كيف ستكون حياتي؟"

لا أصدق, لا أريد أن أصدق, تتعلق بالإنسان الخاطئ, أسعد يكذب أنا متأكدة وأعلم أنها ستعود إلي باكية, استأذنتها وخرجت من المنزل لا أدري إلى أين سأذهب؟

رحت أجوب الشوارع دون هدف, كنت أسير دون أن أتبين أمامي, لا أدري كيف أوصلتني أقدامي إلى منزلنا, منزل زياد وحياة, جلست على عتبات المدخل, وأسندت رأسي إلى بوابته.

جلست قرابة الساعة أُفكر, ماذا لو فُتح الباب وظهر منه أبي؟ ماذا لو سمعت صوت أمي تناديني؛ لأساعدها بترتيب مائدة الطعام؟ ماذا لو أقبلت جدتي وعمتي الآن لزيارتنا؟

جدتي.. آه يا جدتي كم أشتاق لكِ, أخذت هاتفي واتصلت برقمها, تفاجأت لم يكن مغلق, إنه يرن.. و الله يرن, قفزت من مكاني بفرح أنتظر الإجابة و أتاني أحن صوتٍ في الدنيا.

" السلام عليكم, من معي؟"

-"بتونيا: جدتي"

شهقت أنفاسها ثم أنفلتت بالبكاء, فلم أستطع الصمود أكثر, شاركتها البكاء لكن داخلي يضحك, وأخيراً سمعت صوتها وأخيراً.

"أم زياد: زهرتي الصغيرة, أشتقت لكِ كثيراً, آسفة يا صغيرتي, منى مسحت رقمك من عندي فلم أستطع الإتصال بكِ, وهاتفي كان معطلاً لقد أصلحته البارحة"

-"بتونيا: أخبريني عنك يا جدتي, كيف حالك؟ "

-"أم زياد: بخير, نحن بخير, عندي لك خبر سيفرحك"

-"بتونيا: ما هو؟ هيا يا جدتي قولي"

-"ام زياد: منى ستتطلق من أحمد, سنعود يا باتي.. سنعود"

عادت دموعي تنهمر من جديد, سأراهما مجدداً كنت أعلم.

-"بتونيا: لماذا ستتطلق؟ ألم تكن تحبه كثيراً؟"

-"أم زياد: الوضع بينهما سيء جداً, أحمد استولى على كل أموالها, هذا غير المعاملة السيئة والضرب, لقد ظهر على حقيقته, والحمد لله أنها نقلت ملكية بيت زياد لي, على الأقل لن نبقى في الشارع"

-"بتونيا: الحمد لله عوَّضها الله بالأفضل, أخبريني متى ستأتيان؟"

-"أم زياد: تقريباً أُسبوعين, أتمنى أن تمضي الأيام سريعاً يا طفلتي, لقد إشتقت لوجهك"

-"بتونيا: وأنا أيضاً اشتقت لكِ, وأحبك. كم كان صوتك دواءً لي, أتى في وقته"

-"أم زياد: هل أنتِ بخير يا باتي؟ كيف أحوال المركز؟"

-"بتونيا: أنا أقيم الآن مع صديقتي في بيتٍ صغير, والحمد لله أنا بخير"

-"أم زياد: متى خرجتِ؟ ثم لِمَ لَمْ تذهبي لبيت وسيم؟"

-"بتونيا: تطلقنا, ووسيم خطب ابنة خالته, وأرجوكِ لا تقلقي من شأني, أنا الآن أفضل, ولست بحاجة أحد, أنتظر صدور النتائج بفارغ الصبر, سأكمل دراستي وأخذك عندي, سنعيش سوياً أعدكِ"

-"أم زيد: كيف يحدث كل هذا معك وأنا لا أدري؟ سامحك الله يا منى, ووسيم كيف يفعل هذا؟ سأفقئ عينيه عندما أراه"

-"بتونيا: لا شأن له, أنا من طلبت الطلاق, قلت لك لا تقلقي, أنا سعيدة جداً, ومرتاحة, لا تفكري بي, سأغلق الآن انتبهي لنفسك "

-"أم زياد: لنا حديثٌ طويل بعد أسبوعين يا حفيدتي الغالية"

-"بتونيا: كما تريدين يا عزيزتي, هيا بأمان الله"

-"أم زياد: حفظك الله يا باتي "

أغلقت الهاتف ورحت أمشي بالشوارع مجدداً, لكن بفرح, تبدل حالي بغضون دقائق, الحمد لله.

أكملت طريقي متجهةً إلى بيت سلمى, لا أنوي الدخول فقط أريد أن أراها, أن أعانقها, أحتاج لذلك كثيراً.

عندما وصلت إلى المنزل, اتصلت بها لتنزل, لم أنتظر كثيراً, إنبلق الباب وأتت مهرولةً نحوي, عانقتها طويلاً وبكيت حزناً وفرحاً في آنٍ واحد.

-"سلمى: ماذا حدث يا باتي؟ لِمَ البكاء؟"

-"بتونيا: تحدثت مع جدتي قبل قليل, ستعود بعد أُسبوعين"

-"سلمى: حقاً.. لقد فرحت كثيراً من أجلك, الحمد لله ستعودين إلى منزلك الآن"

-"بتونيا: تمهلي, ما بكِ؟ لن أعيش معهما, سأبقى وحيدة في منزلي"

-"سلمى: معهما؟ إذن منى أيضاً ستعود, لماذا؟ ماذا جرى؟ ثم أخبريني كيف ستعيشين لوحدك؟ ولانا أين ستذهب؟"

-"بتونيا: إجلسي لأخبرك"

-"سلمى: أين نجلس؟ أتقصدين عتبة المنزل؟ سأضربك الآن, دعينا نصعد لغرفتي"

-"بتونيا: لا أريد, سيارة وسيم هنا هذا يعني أنه عاد, ويعني أن خطيبته الظريفة تُقيم عندكم, دعينا نجلس هنا, لن أتحمل المزيد من الكلام"

-"سلمى: كما تشائين, لن أضغط عليكِ, هيا أخبريني ماذا حصل؟"

أخبرتها عن كل شيء؛ علني أجد نصيحة, أوعلى الأقل أعرف إن كنت على حق أم لا.

-"سلمى: ما بها هذه المجنونة؟ ألم تجد أفضل منه؟ لماذا تفعل هذا بنفسها؟"

-"بتونيا: و الله لم أعد أعلم شيئاً, ما يقلقني أنني أُصبح كغريبة بالنسبة لها, أنا أحبها يا سلمى, أحبها كثيراً, تعودت على وجودها بحياتي, كيف سأبقى لوحدي الآن؟ كيف سأتركها تنجر إلى الهاوية برغبتها؟"

-"سلمى: ما تفعليه ليس صحيحاً, لا تضغطي عليها, عارضتي كثيراً يجب أن تؤازريها الآن ادعميها؛ لأنها ستفعل ما تريد, دعيها تتحمل نتائج قراراتها, لا تجعليها تتخلى عنك, لا تُبقيها وحيدة "

أطرقت أفكر قليلاً, ربما ما تقوله سلمى هو الصحيح, لماذا أقف ضدها؟ من الممكن أن يكون أسعد الزوج المناسب لها, مع أنني لا أعتقد ذلك.

أردفت بابتسامة عريضة: " سأذهب لأُحضر شيئاً نشربه, وأُضايق رزان بطريقي"

-"بتونيا: ضايقيها كيفما تشائين, لكن لا تُخبري أحداً بوجودي, أرجوكِ"

-"سلمى: كما تريدين يا آنسة, سأعود سريعاً"

عادت أفكاري تحوم حولي؛ علني أجد حلاً مناسباً, يجب أن أقف مع لانا حتى لو كانت على خطأ. أتت سلمى تحمل كوبين من عصير البرتقال,

وطبق ممتلئ بمحشي ورق العنب, فز قلبي شوقاً إلى هذا النوع من الأطعمة, الذي لم أتذوقه منذ مدةٍ طويلة.

التقطت الصحن وشرعت بالأكل؛أضع الواحدة تلو الأخرى.

-"سلمى: أضحكتني يا باتي, هل أنتِ جائعة إلى هذا الحد؟"

-"بتونيا: لم أكمل طعامي, خرجت من المنزل وأنا جائعة, ثم لم آكل محشي ورق العنب منذ وفاة والداي, دعيني أملئ معدتي وفؤادي منه"

أخذت تضحك على حالتي, لم أهتم لها كان تفكيري في الطبق وما يحوي.

-"وسيم: ستختنقين إذا تناولتِ الطعام هكذا"

نظرت إلى الخلف وفمي نصف مفتوح, وممتلئ بالطعام, كيف خرج هذا دون أن أشعر؟ استدرت بوجهي وأخفيت فمي بباطن يدي اليمنى, حاولت إبتلاع الطعام سريعاً دفعةً واحدة؛ فغصصت وبدأت أسعل بشدة, كادت عيناي أن تتشققان, والدموع تشق الخُطى على وجنتيّ, ما هذا الموقف المحرج؟ ليت الأرض تنشق وتبتلعني, أستحق هذا, ما الذي أحضرني إلى هنا؟.

-"وسيم: خذي كأس العصير واشربي منه بسرعة"

قال هذا وهو يمد الكأس نحوي, لم أستجب له وأكملت سعالي, وسلمى تخبط بكف يدها على ظهري دون جدوى, مد وسيم الكأس مرةً أخرى نحو فمي وأشربني منه غصباً, لم أشرب من الكأس بقدر ما سقط على

ملابسي, وأيضاً دون فائدة, ثم تحرك وسيم وخبط على ظهري خبطةً واحدة لم أعد أسعل بعدها لكنني شعرت بتهشم في فقرات ظهري.

نظرت نحوه مزمجرةً: "أجننت؟ كدت أن تكسر ظهري"

-"وسيم: هل كُسر ظهركِ؟ لا, إذن لما تصرخين كالماعز؟ عوضاً عن صراخك أشكريني"

-"بتونيا: لقد آلمتني يا أحمق, ثم من طلب مساعدتك؟ أنت السبب في ما حدث لي"

-"وسيم: هل أنا الذي كنت آكل بشراهة؟ أنت فقدت عقلك تماماً, يجب أن نصطحبك إلى مشفى المجانين عاجلاً"

-"سلمى: وسيم أرجوك, هلَّا ذهبت من هنا؟ هيا دعنا لوحدنا"

نهضت عن عتبة المنزل, ثم مسحت التراب العالق بملابسي, وقلت:

"لا, أنا يجب أن اذهب, أشكركِ على استماعك لي, أراكِ لاحقاً."

-"سلمى: لا يا باتي, أرجوكِ ابقي قليلاً, سيذهب وسيم الآن, هيا أجلسي"

-"وسيم: لا تخافي سأخرج, أبقي قدر ما تشائين"

-"بتونيا: عد إلى خطيبتك قبل أن تبكي على فراقك, أنا سأذهب"

-"وسيم: وما شأن خطيبتي؟ ألا ترين أنكِ من تختلقين المشاكل؟ ثم ما المأساة التي تعيشينها مجدداً"

تجاهلت رده وسؤاله, وقبّلت سلمى من وجنتها, ثم قلت: "إلى اللقاء, سأتصل بك مساءً"

انطلقت دون أن انظر خلفي, هذا الحيوان لم يتركني أُشبع معدتي من الطعام اللذيذ.

عدتُ إلى المنزل ولم أجد لانا, حتى أنها لم تُكلف نفسها أن تُنظف الأطباق, غيرت ملابسي ونظفت الأواني والأطباق, ثم ألقيت بجسدي على السرير, تناولت الكتاب الذي لم أكمله وهربت من نفسي إليه.

مرَّ الأسبوع سريعاً, حاولت إصلاح الشرخ بيني وبين لانا, والحمد لله أنني نجحت, جهزنا سوياً كل ما تحتاجه من ثياب, عطور, وأدوات تجميل, ولم يتبقى شيء.

في هذا الأسبوع أيضاً صدرت نتائج الثانوية العامة, والحمد لله نجحت, وفرحتي لا توصف, أصبحت أعلم ما أريده من الحياة, أُريد أن أصبح معلمة للصفوف الإبتدائية, تجول في خاطري أفكار كثيرة: أريد أن أؤسس الأجيال القادمة جيداً, أن أعلمهم كيف يتقبلون أمثالنا في حياتهم, أعلمهم أن يحبوا الآخرين دون أهداف, ولا أسباب, أريد أن أُنشأهم على مراعاة ظروف من حولهم, أن لا يُعاقبوا أحدا على خطأ لم يرتكبه, أريد أن أتحرر من عقدتي.

اليوم هو يوم زواج لانا, كانت تظهر كالملاك: بريئة, جميلة الملامح, وخائفة, أجل كانت ترتجف, حاولت طمأنتها, عانقتها ودعوت لها, لم يُقام لها أي حفل ولو بسيط؛ لأنها تتزوج من أسعد سراً كما تعلمون, أتى أسعد ليأخذها في المساء, كانت كالزهرة, عانقتني طويلاً أنا وسلمى, وشهد, ثم غادرت, لا أدري قلبي مقبوض يا رفاق.

لم أستطع النوم لا أنا ولا سلمى, صحيح نسيت أن أخبركم, سلمى ستنام عندي هذه الليلة, بعد رجاءٍ وتوسل منا للخالة رنا, أمضينا الليلة في الحديث عن أحلامنا وطموحاتنا, وعن الجامعة التي سندرس بها, تحدثنا عن كل شيء, حتى عن رزان ومحاولات انتحارها الكاذبة.

كانت الساعة تُشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل عندما طرق الباب طويلاً وبعنف, لقد تجمدنا في أرضنا من الخوف, من يكون يا ترى؟ لم أستطع استجماع قواي للوقوف, ثم ظهر صوت لانا المضطرب تنادي بصوتٍ خافت باسمي, حينها نهضت بسرعة وفتحت الباب لها, لن تصدقوا حالها, كانت ترتدي بيجامة نومها, ويديها تمتلئان بالدماء.

-"لانا: قتلته يا باتي, قتلته, سيحدث ما خفت منه, سأدخل السجن"

وانهارت على الأرض تنحب, لم أدري كيف أتصرف, ثم سمعت صوت وسيم من جانب الباب: "بتونيا, هلّا ارتديتِ ملابس الصلاة؟ أريد أن أدخل"

ارتديت ملابسي سريعاً وغطيت جسد لانا بعباءة وألبستها حجاب, صحيح أنها لا تُغطي رأسها؛ لكنني لم أكن أعي ما أفعله, كنت أرتجف, أما سلمى فلم تنهض من السرير من وقت الطرق العنيف على الباب.

عاد صوت وسيم مرةً أخرى: "هل أدخل؟"

-"بتونيا: تفضل"

عندما دخل وسيم, ذهب نحو سلمى, أحاطها بذراعيه, ثم أخذ يهمس تعويذاته بأذنها ليُّهدأ من روعها, عندما هدأت أتى نحوي وقال: " هل أنتِ بخير؟"

أجبته وأنا أنفي بوجهي قبل كلماتي: " لا. لست بخير.. لسنا بخير.. ماذا نفعل؟ ماذا نفعل يا وسيم؟"

وانهرت أرضاً أرتجف, مسح وسيم على رأسي, ثم جلس على ركبتيه أمامي وقال: " يجب أن تهدئي الآن, لنجد حلاً مناسباً"

قال كلماته هذه وهو ينظر بداخل عيناي, هل شعرت أنا بالأمان؟ نعم. واستكنت روحي, ثم وجه بصره نحو لانا التي لم تتوقف عن الإهتزاز للأمام وللخلف وهي تردد: " قتلته.. أنا قتلته"

-"وسيم: إهدئي أرجوكِ, استجمعي قواكِ وأخبرينا ما الذي حصل؟"

لم تجبه, وبقيت على حالها, أعاد سؤاله كثيراً لكنها لم تجب, ثم صفعها على خدها بقوة فشهقت, ثم بدأت ترتجف, ركضت نحوها وعانقتها وأتت

سلمى وجلست أمامها أيضاً, ثم أعاد وسيم السؤال عليها: "ما الذي حصل يا لانا ؟ أخبريني من البداية"

-"لانا: قتلته, لقد أخبرني أن زواجنا مجرد حيلة, الشهود, والمأذون أصدقائه, لم أتمالك نفسي, كان يضحك بطريقة مُقرفة وهو يخبرني, قتلته يا بتونيا, أحضرت سكيناً من المطبخ وطعنته كثيراً وهو نائم, لقد مات أنا متأكدة. "

كنت أعلم يا لانا أنكِ تجرين نفسكِ إلى مصيبة, كنت أعلم.

-"لانا: أنتِ على حق يا بتونيا, أنت على حق, لم أستمع لكِ, سأدخل السجن الآن, الشيء الوحيد الذي جهدت كثيراً للإبتعاد عنه, لن أخرج قبل عشرون عاماً, انتهت حياتي.. انتهت"

وعادت تبكي من جديد, ذهب وسيم وأحضر لها كوباً من الماء, ثم أخذناها لتنام بسريرها قبل أن تكتشف الشرطة أمرها.

نامت لانا ودخلنا نحن إلى المطبخ ننتظر استيقاظها.

-"بتونيا: وسيم ماذا سنفعل ؟"

أراح صدغيه النابضين ثم قال و هو يغمض عينيه: " لا أعلم, أحاول أن أفكر, لا أستطيع إيجاد مهرب, لكن يجب أن تسلم نفسها للشرطة"

-"سلمى: لنُخبأها عن الأنظار, ثم كيف سيعلمون أنها هي القاتلة ؟"

-"وسيم: والبصمات؟ وهويتها المدنية؟ يجب أن نرافقها إلى مركز الأمن قبل أن يأتوا إلى هنا"

-"بتونيا: لا أرجوكما, هي تخاف السجن, لن أسلمها مستحيل, سيضيع مستقبلها هناك"

-"وسيم: لا تخافي سيُخفف حكمها؛ لأنها قتلته دفاعاً عن شرفها, ولأنها لا تزال طفلة "

-"لانا: أنا جاهزة, هلّا أوصلتني إلى مركز الشرطة يا وسيم؟"

-"سلمى: لانا؟ متى استيقظتِ؟"

-"بتونيا: لا يا لانا, أرجوكِ لا تتركيني أنتِ أيضاً "

-"لانا: أنا آسفة, لقد خرجتِ من الميتم بسببي, وها أنا أتخلى عنكِ بسبب طيشي, يا ليتك ضربتني يا باتي, يا ليتك قتلتني ولم أفعل ما فعلته, نطقتُ قدري بلساني يا باتي, ألا يقولون كل متوقعٍ آتٍ؟ أنا توقعت دوماً دخولي إلى السجن, لا تتوقعي سوى الخير يا باتي, سأشتاق لكِ كثيراً يا أختي, أرجوكِ زوريني, لا تنسيني في الداخل, أعلم.. كثُرت الأماكن التي ستزورينها؛ لكن تذكريني وادعي لي حتى لو لم تستطيعي زيارتي, كوني معي بقلبك وهذا يكفيني "

ثم عانقتها مودعةً إياها, ما هذا الحظ العاثر؟ لا, ما يحصل بحياتي كبير جداً, لم أعد أحتمل

*****

رافقنا لانا إلى مركز الأمن, لكننا لم ندخل معها, لم تسمح لنا بالدخول, لا تريد أن تتسبب بأذيتنا, انتظرنا ساعتين ثم اتصلت لانا بباتي؛ لتخبرها أنها بالمركز كما اتفقنا بيننا, لنأتي دون أن تدخلنا في دوامات التحقيق, انتظرنا قليلاً ثم دخلت لوحدي, لم أدع الفتيات يرافقنني إلى الداخل, حقق معي الضابط قليلاً وسألني: من أكون بالنسبة لها؟ فقلت له: أنني خطيب صديقتها في السكن, طال التحقيق.. ثم أخبرني الضابط أنها ستبقى عندهم, وأنها ستحول في الغد إلى مركز العاصمة, وأنهم قد تأكدوا من وفاة الضحية, ثم طمأنني أن حكمها سيكون مخففاً, شكرت الضابط وخرجت.

كانت الفتاتين تنتظرانني بالخارج بتوتر, والدموع تُغرق المحاجر وتفيض على الوجوه.

-"بتونيا: ماذا حدث؟"

-"وسيم: سيشرحون الجثة أولاً, ثم سيتم نقل لانا إلى مركز أمن العاصمة, ستبقى هناك إلى أن يصدر حكمها, ربما ستُسجن سنة أو اثنتين, وبعدها سيتم الحكم عليها, لأن قضايا القتل تأخذ وقتاً طويلاً لإصدار الحكم"

سقطت باتي أرضاً ثم غابت عن الوعي, ما هذه الليلة العصيبة؟ أعدناها إلى منزلها بعد أن أيقظناها, عندما وصلنا المنزل استلقت على سريرها وراحت تغط بنومٍ عميق بعد انهيارها من التعب, وسلمى أيضاً نامت

على سرير لانا, أما أنا فلم أستطع النوم, جلست على إحدى المقاعد في المطبخ, ووضعت رأسي على الطاولة, و بدأت دوامة الأفكار تعمل, ماذا سأفعل ببتونيا؟ لن تبقى لوحدها طبعاً, يجب أن أعثر على عائلتها بأسرع وقتٍ ممكن.

في الأيام الماضية بحثت أنا وزيد عن شقيقتها التي عرفنا أنها في السنة الأخيرة لها بتخصص الطب العام؛ أي أنها تكبر باتي بسبعة أعوام, وجدنا طرف الخيط الذي سنبدأ منه, و هي الجامعة التي تدرس بها سارة.

لكن إلى حين عثوري على عائلتها ستقيم مجبرةً في بيتنا, لن أدعها تبقى وحيدةً في هذا البيت, لكن كيف سأقنع والدتي؟ طبعا لم تغب عن بالي البلوة الكبيرة, خطيبتي العزيزة, أعلم أنها ستفعل كل شيء؛ لأبعادها عن المنزل, غفوت على الطاولة ولم أشعر إلا بيد سلمى التي تمسح على رأسي لتوقظني, فتحت عيناي بصعوبة ونظرت نحوها, ثم تذكرت ما حدث الأمس بثواني؛ فانتفضت جالساً, كانت عضلاتي متشنجة وكل جسدي مشدود, وكأنني خُضت حرباً شعواء

-"وسيم: ماذا حدث؟ أين بتونيا؟"

-"سلمى: لم يحدث شيء, الأمور على ما يرام, لكننا نريد أن نزور لانا, هلّا أخذتنا؟"

-"وسيم: لن يسمحوا لأحد برؤيتها يا سلمى, تُهمتها كبيرة "

أتت باتي من الخارج تصدح بصوتها: "لكنها صديقتي, وأريد أن أطمأن عليها, إن لم تأخذنا سنذهب لوحدنا"

نهضت عن المقعد واتجهت نحوها ثم قلت: -" أولاً ستجمعين ملابسك وأغراضك وتأتين معنا إلى المنزل, وسأذهب أنا لأرى ماذا حصل؟ لا تخافي, سأحاول أن أخذ إذناً للزيارة"

-"بتونيا: أبداً, لن أذهب معكما إلى المنزل, سأبقى هنا في بيتي"

-"سلمى: أجننت أنت؟ كيف ستبقي هنا بعد ما حدث ليلة البارحة؟ لن نتركك هنا "

-"وسيم: لا تخافي, فقط ليومين أعدك بعدها لن تري وجهي على الإطلاق, ثم سأبحث لكِ عن سكن تقيمين فيه مع بعض الفتيات, على الأقل سيرتاح بالنا قليلاً"

-"بتونيا: والخالة رنا؟ ورزان؟ ووالدتها؟"

-"وسيم: أنا سأقنع والدتي, ولا تهتمي للباقي "

-"سلمى: هيا يا باتي, هذا الحي مخيف, كيف ستبقي بمفردك هنا؟ ماذا ستفعلين ليلاً؟"

استرخت ملامحها وتنهدت بيأس, ثم انصرفت إلى غرفة النوم جمعت أغراضها, ووضعت ملابس لانا بحقيبة صغيرة؛ لنأخذها لها.

ذهبنا في البداية إلى مركز الأمن فلم يسمحوا لنا برؤيتها, وأخبرني الضابط أن لا فائدة من تواجدي هنا؛ لأنها اعترفت وسيتم تحويلها إلى سجن النساء, إلى أن يصدر الحكم, خرجت أجر أذيال الخيبة, أيُعقل أن تكون نهاية هذه الفتاة الرقيقة في السجن؟ ماذا لو كانت باتي بمكانها؟ لن أفكر بهذا الآن, يجب أن أوصلها إلى المنزل سريعاً؛ لألحق بسارة قبل أن تنهي محاضراتها.

عندما وصلنا إلى المنزل ترددت باتي مرةً أخرى, فتركتها لسلمى؛ لتقنعها وسبقتها إلى الداخل, كانت أمي في المطبخ, اتجهت نحوها وقبلت رأسها ثم قلت:

-" ماذا تصنع أجمل الأمهات؟ سلم الله يداكِ يا غاليتي"

-"رنا: تكلم, ماذا فعلت؟ ما المصيبة التي اقترفتها؟"

-"وسيم: ليست مصيبة, أريد أن أطلب منكِ شيئاً"

-"رنا: هات ما عندك يا وسيم "

-"وسيم: ستبقى باتي في بيتنا ليومين"

-"رنا: مستحيل, أتريد أن تثير جنون رزان؟ لا, لا أستطيع قبول ذلك"

-"وسيم: أمي أرجوكِ استمعي لي أولاً ثم قرري"

أخبرتها بما حصل ليلة الأمس, بعد كلامي المختصر, لان قلبها قليلاً لكنها قالت: "إذا بقيت باتي هنا, ستذهب أنت لبيت خالتك "

-"وسيم: إلى بيت زيد, هذا أفضل لي ولكِ ,ها ما رأيك؟"

-"رنا: يومين لا أكثر"

ابتسمت وقبلت جبينها بسعادة, ثم قلت: " وربما أقل"

ثم خرجت و ناديت على الفتاتين؛ فأقبلت سلمى وباتي تلحق بها على استحياء, ثم تركتهما مع والدتي التي رحبت بباتي واحتضنتها , صعدت أنا إلى غرفتي ووضعت بعضاً من ثيابي بالحقيبة, وخرجت كي أنزح من هذا المنزل سريعاً.

-"سلمى: أخي إلى أين؟"

-"وسيم: سأبقى عند زيد"

-"بتونيا: لن أرضى بذلك, أرجوكما أعيداني إلى بيتي, لا أريد البقاء هنا"

-"وسيم: لقد تحدثنا في هذا الأمر, تحملي يومين وبعدها أعدكِ ستعيشين حياة سعيدة وهانئة"

ثم انصرفت واتصلت بزيد؛ لنلتقي عند بوابة الجامعة, وصلت بعد نصف ساعة, كان زيد ينتظرني بسيارته بالخارج, عندما رآني بدء بالضغط على البوق, صرخت: -" أراك يا غبي, توقف لقد أفزعت الناس"

ضحك وتوجه نحوي, ثم قال: "أنا متحمس كثيراً اليوم, أشعر أننا قاربنا من خط النهاية"

-"وسيم: أتمنى ذلك يا أخي, لقد تعبت كثيراً, لنجد عائلة باتي ونرتاح قليلاً"

-"زيد: هيا إذن لندخل "

وجدنا ضالتنا وأخيراً, ها هي سارة تقف على مقربةٍ منا, لقد تأكدت منها, تشبه باتي إلى حدٍ ما, لكن باتي أجمل منها بالطبع, فعين المحب لا ترى سوى من تحب, انتظرناها حتى خرجت ولحقنا بها, إلى أن وصلنا منزلها.

انتظرناها حتى دخلت, ثم اتجهنا إلى البقالة القريبة من المنزل, كان يجلس بها رجل طاعن في السن, يرتدي ثوباً بني اللون, وفوقه جاكيت أسود من الجلد.

-"زيد: السلام عليكم يا عم"

-"وعليكم السلام, تفضلا.. ماذا تريدان ؟"

-"وسيم: زادك الله فضلاً يا عم, نحن نريد أن نطلب يد الآنسة سارة, التي تُقيم في حييكم, هل تعرفها ؟"

وذكرت اسم العائلة لنتأكد من أنها ذاتها أخت باتي, قال:

"هل أنتما الاثنين معاً ؟"

ثم ضحكنا على سذاجتي, أجبت بخجل: "آسف يا عم لقد ارتبكت, أنا سأطلب يدها, وأريد أن أعرف بعض المعلومات عن عائلتها"

-" سارة طيبة ومهذبة, وستصبح طبيبة قريباً إن شاء الله, ووالديها قمة في الأخلاق, لها أخ يصغرها بعدة أعوام؛ طالب محاماة, لكنه يقيم في محافظةٍ أخرى حيث جامعته, يأتي في أيام العطل, إنهم من خير الناس يا ولدي, صدقني لن تندم"

-"وسيم: هل عائلتهم بهذا القدر, إذن يا حظي, سأكون النسيب المدلل"

-"أجل ستكون النسيب المدلل, كان من المفترض أن يكون لك نسيباً آخر, لكنك محظوظ"

كنت أستدرج العم في الكلام, أريد أن أصل إلى غايتي سريعاً.

-"وسيم: ماذا تقصد يا عمي؟ هل لها أخت ميتة؟"

-"لقد كان لها أختاً اخْتُطِفَت من العربة في وضح النهار, كانت رضيعة لم يتجاوز عمرها بضعة أيام, ولم يستطع أحداً العثور عليها, وكأنها تبخرت"

-"زيد: ربما يجدوها الآن بعد هذا العمر "

-"لا أعتقد يا ولدي, ربما قتلها من اختطفها, أو أخذها إلى مدينة أخرى, سأنصحكما نصيحة, لا تفتحا هذا الموضوع مع العائلة إذا لم يُخبركم أحد منهم, لأن جرحهم لم يبرئ بعد "

-"وسيم: شكراً من قلبي لك يا عم, لقد خدمتني خدمة العمر بكلامك هذا"

ثم ودعناه وخرجنا, غداً سيكون يوم الجمعة, ستكون العائلة مجتمعة, سنأخذ باتي ونزورهم, حان وقت اللقاء يا عقلة الإصبع. يجب أن أمهد لها الموضوع لكن كيف سأبدأ؟ لا أدري ما سأفعله, لكنني سأطير؛ لأزف إليها الخبر السار سريعاً.

*****

كنت قلقة كثيراً بشأن لانا؛ فهي لا تزال طفلة لم تعرف للسعادة عنوان, كان سؤال واحد يدور في رأسي, هل يُعقل أن تكون نهايتي كنهايتها؟ أشعر وكأنني أعيش كل شيءٍ من البداية, يا رب ألطف بي.

تناولنا طعام الغداء ونظفنا الأطباق, ثم صعدنا إلى غرفة سلمى.

-"بتونيا: سلمى, ماذا سترتدين في حفل زفاف وسيم؟"

-"سلمى: هل تُمازحيني؟ لا يزال الوقت باكراً لهذا, ثم لا أعتقد أن تستمر خطوبتهما, لا تخافي"

-"بتونيا: ولِمَ لأخاف؟ ما علاقتي بزواجه من رزان الشمطاء؟"

-"سلمى: أنتِ مجنونة يا باتي, أشعر أنكِ ستقتلينها قبل أن يُقام حفل زفافهما"

-"بتونيا: أيتها الحمارة, هل تحاولين استفزازي ؟ ثم لا تقلقي لقد بقي كل شيء بالماضي "

-"سلمى: في الأسبوع القادم ستأتي جدتك ومنى, كيف استعدادك للقائهما ؟"

-"بتونيا: متحمسة كثيراً, عندما تحدثت مع جدتي قبل يومين أخبرتني أن عمتي منى تسأل عن أحوالي, وتحاول الاطمئنان عني "

-"سلمى: وهل صدقتها ؟ ربما تحاول جدتك تلطيف الجو بينكما "

-"بتونيا: دعيني أحلم قليلاً يا سلمى, أتمنى أن نعيش سوياً في منزل أبي, أتمنى أن أعود إلى غرفتي, أريد أن أتنفس قليلاً في غرفة والداي, اشتقت لهما كثيراً يا سلمى, أشعر وكأن جناحي قد كسر, كيف سأعيش الآن ؟ لقد تركني الجميع يا سلمى, أشعر أنني أصارع الحياة لوحدي"

نهضت سلمى عن سريرها وأتت لتجلس أمامي, ثم مسحت العبرات العالقة على وجنتاي, وقالت: -"سلمى: لو أنك تُخبريني بما حصل يا باتي؟ لو أعلم سبب طلبك الطلاق من وسيم وأنت تعرفين أنه يموت من أجلك إذا أردتِ "

-"بتونيا: كيف أوصلتي الموضوع إلى وسيم يا سلمى ؟ بالله عليكِ انسي ما حصل, لأنسى أنا وأبدأ حياة جديدة, هل سمعت ما قاله وسيم؟ أتمنى أن يصدق, أريد أن أخرج من هذه القصة بشكل تام"

-"بتونيا: وهل تظنين أن عدم رؤيتك لوسيم سينسيك إياه؟ لقد فات الأوان يا عزيزتي"

قاطع حديثنا صوت وسيم الذي يصدح باسمي, ارتديت ملابس الصلاة ونزلت السلالم بخوف, ولحقت سلمى بي.

-"سلمى: ما الّذي حصل يا وسيم؟ لما كل هذا الصراخ؟"

-"زيد: زغردي يا سلمى, وجدنا عائلة بتونيا"

ماذا؟! عائلة من؟! وهل أنا لدي عائلة؟ كيف ذلك؟ لم أعد أرى أمامي, أُسدلت الستائر على عيناي, وسقطت أرضاً, ماذا يحصل؟ عائلة مرةً واحدة.

-"وسيم: هل أنتِ بخير يا عقلة الإصبع؟"

كانت سلمى تجلس على الأرض بقربي, ووسيم يقف أمامي, كُسِر عُنقي وأنا أنظر للأعلى ولم أصل بعد لوجهه, قلت بلسانٍ ثقيل: "هل تُمازحانني يا وسيم؟ أرجوكما قلبي لن يحتمل "

ثنى ركبتيه؛ ليُصبح أمامي, ثم قال : "أعرف أن هذا صعبٌ عليك, لكن من حقك أن تعرفي, عندما سافرت قبل أسبوعين التقيت بالسيدة التي اختطفتك من العربة "

لم أدعه يكمل, صرخت: " أنت تكذب, لماذا تُخبرني بهذا الآن؟ لِمَ لَمْ تخبرني عند عودتك؟ لماذا تلعبون بأعصابي؟"

احتضنتني سلمى تحاول أن تهدأ من روعي, كنت أرتجف, قلبي ينبض ببطء, لا أستطيع التقاط نفسي, حتى شفتاي ترتعشان, ما الذي يحصل لي؟ انتظرت هذا الخبر طويلاً لِمَ لا أستطيع التصديق الآن؟

-"وسيم: أنا أسف لأن زيد أخبركِ بهذه الطريقة, لكنني سأشرح لكِ الآن ما حدث معنا"

بدأ يقص علي ما جرى في سفره, وهل ما فعلته حنان يعقل؟ لقد سرقت حياتي, دمرتني, لن أسامحها أبداً, هل أنا الآن فرد من أفراد عائلة كاملة؟ أريد أن أبكي يا رفاق لكنني لا أستطيع, تجمدت الدموع في محاجري, لا أستطيع, عدت وركزت ناظراي على وجه وسيم, وقلت:

"أين وجدت سارة؟ وأين تُقيم عائلتي الآن؟ هل سأذهب لأخبرهم أنني لا زلت هنا في نفس المدينة وتحت نفس السماء؟ ماذا سأفعل يا وسيم دلَّني؟ لقد احتار دليلي, وجفت روحي, هل حقاً سأنام من جديد دون أن أشعر بالخوف؟"

-"وسيم: لو سمحتِ اهدئي واطمأني, وجدت سارة في الجامعة, ولحقت بها إلى منزلها, ثم سألت البقال عن عائلتك: فأخبرني أن والديكِ أحياء, وأن سارة ستصبح طبيبة, وأخوكِ الأصغر منها يدرس محاماة, لقد أثنى كثيراً على الجميع, ثم أخبرني أنهم لا يزالوا عالقين في الماضي, ولم يستطيعوا تخطي فكرة غيابك عنهم, لا تقلقي, بعد الآن ستنامين قريرة العين, مرتاحة الفؤاد يا باتي"

-"بتونيا: كيف سأوفيك حقك يا وسيم؟ كيف سأرد لك جميلك علي؟ لم أفكر في البحث عن أمي. ظننت أنها أخطأت وتريد أن تنسى خطأها, لم أعلم أن حكايتي ستكون مختلفة هكذا, نعم, حلمت كثيراً أن أعيش في عائلةٍ كاملة متكاملة, لكنني لم أعرف أن الأحلام ربما تتحقق في يومٍ من الأيام, لن أنسى فعلتك هذه أبداً يا وسيم"

-"رنا: أنتِ تستحقين هذا يا باتي, لقد صبرتِ كثيراً, وكافحتِ كل الظروف الصعبة, تستحقين الفرح "

-"سلمى: أختي الغالية, لقد نجوتِ وأخيراً"

عانقتني وبكت, وأنا بكيت, لكن هذه المرة كانت دموعي سعيدة. يا الله لك الحمد, يا الله لك الحمد.

-"بتونيا: هلّا أخذتني إليهم الآن يا وسيم؟"

-"وسيم: لا يا باتي, دعينا ننتظر للغد, هذا أفضل, على الأقل ستجدين كافة أفراد العائلة. "

اقتنعت بكلامه ثم نهضت وعدت إلى غرفة سلمى؛ لأُصلي ركعتي شكر لله, لا أصدق ما حصل معي, وكأنني في حلمٍ طويل وجميل, كيف سيعرفونني؟ هل أُشبه والدي أم والدتي؟ هل سيتقبلني اخوتي بعد كل هذه السنين؟ أشعر أن باب الفرج فُتِح لي بعد سنوات طويلة من التعب.

لم أنم طوال الليل, لقد جلسنا أنا وسلمى والخالة رنا نتحدث بحماس عن الغد, وعن ردة فعل عائلتي.

-"سلمى: كنت أتمنى أن أطيل السهر معكما, لكنني لا أستطيع فتح جفناي, تُصبحان على خير"

-"رنا: اذهبي وارتاحي, سنكمل السهرة لوحدنا"

صعدت سلمى إلى غرفتها وهي تترنح, أما أنا فالتقطت كوب الشاي ورفعته نحو فمي؛ لأشرب لكنني شربته من أنفي, كنت شاردةً كثيراً, ولم أشعر بالشاي يبلل ثيابي حتى حرَّكَت ذراعي الخالة رنا.

-"بتونيا: أنا آسفة, لم أنتبه"

-"رنا: لا عليك, أعذر لهفتك وتشوش أفكارك, لا تقلقي سيكون كل شيءٍ على ما يرام, سنكون إلى جانبك أنا ووسيم وسلمى, لن نتركك لوحدك في هذا اللقاء"

-"بتونيا: لا أعرف كيف سأشكركم؟ لقد ساندتموني جميعاً, لم أكُن أعلم ماذا سأفعل من دون مساعدتكم لي؟"

-"رنا: أنا لم أفعل شيء أستحق الشكر من أجله, أنا وقفت ضدك عوضاً عن الدفاع عنك, أعلم أنني أخطأت, لكنني خفت من مجتمعنا الظالم, سأخبرك بسر وأتمنى أن يبقى بيننا يا باتي "

-"بتونيا: أنا أسمعك يا خالة, قولي.. سرُك بأمان عندي"

-"رنا: أنا لقيطة يا باتي, ولا أحد يعلم سوى أبي وأمي المتوفيان, وأختي مجد وزوجي رحمه الله وعائلته "

-"بتونيا: ماذا ؟! ولما أخفيتي الأمر عن أبنائك؟ من حقهما أن يعرفان"

-"رنا: أخاف كثيراً من تغيرهم علي, وعدم تقبلهم لي, عندما علمت بالأمر كنت بعمرك, غضبت وهجت ثم خرجت إلى الشارع, لا أدري إلى أين سأذهب؟ ثم قررت الذهاب إلى إحدى زميلاتي في المدرسة, وبقيت عندها يومين, وعندما عَلِمَت بقصتي اعتذرت مني وطردتني, وأخبرت جميع من في المدرسة بقصتي.

وجدني أبي على حافة إحدى الطرق القريبة من منزله و أعادني إليهم كانت نظرة الجميع لي مقرفة و مخيفه و كلماتهم جارحه صحيح أن عائلتي احتوتني لكنني بقيت ناقصة طوال عمري يا باتي لهذا خفت من ارتباطك بوسيم لا اعلم ماذا حدث لي؟ انتقمت من الضحية التي تشبهني ,أنا وجدت من يحتضنني عائلتي البديلة كانت حنونة جدا و لم اشعر يوماً أنني انتمي لغير عائلتي أما أنت يا باتي فتعذبتِ كثيرا وأنا الآن سعيدة جداً من أجلك كانت أمنيتي أن أجد عائلتي لكن الأمر صعب وجدوني أمام بيتهم من دون ملابس ولا حتى أثر "

ثم انهارت من البكاء, أشعر بقلبي يعتصر ألماً على حالها, صحيح أنها ضرتني وأبعدتني عن وسيم, لكنني لا أكرهها, أعلم أن هذا مُقدر لي, ويجب أن أعيشه, هي كانت مجرد سبب لفراقنا.

أردفت بصوتٍ مخنوق, لا يكاد يخرج: "أنا آسفة يا بتونيا, أعتذر منك, لقد دمرت حياتك و حياة وسيم, لكن أعدك سأخبره بكل شيء, أنا السبب ويجب أن يعلم"

اقتربت منها وعانقتها, ثم انهرت من البكاء على حالها.

-"بتونيا: أرجوك لا تخبريه, لا أريد أن يكسر خاطر رزان كما حدث معي, لقد سامحتك, والله يعلم بحسن نيتي, لو سمحت لا تخبريه"

-"رنا: لقد تعبت كثيراً من حمل الأسرار المؤلمة يا باتي, لن أستطيع, أترين حالتي الآن؟ هذا لأنني لم أواجه نفسي بحقيقتي؛ لأنني حاسبت نفسي دوماً على خطأ والداي, تعذبت كثيراً عندما تزوجت من زوجي, رفضتني عائلته كثيراً, لقد عايشنا الكثير, ثم تزوجني بدون موافقتهم, لكنني عشت سعيدة معه, خرجت إلى مُجتمع لا يعرفني به أحد, ومع ذلك كنت سعيدة, لا أستطيع أن أحرمك من هذه السعادة مع وسيم يا باتي, أعلم أنك تحبينه كثيراً, وهو أيضاً يبادلك ذات الشعور.

لقد استغربت مما فعله؛ ليجد عائلتك, أثبت لي أنه يعشقك لدرجة أن يسافر للبحث عن عائلتك, لينتشلك مما أنت فيه, لن أخفي عنه أكثر, سأخبره, أريد أن أرتاح يا باتي"

-"بتونيا: كما تريدين, لكن ليس الآن, أرجوك لنتركها لفترة على الأقل "

أخذتني لحضنها, وبكينا كثيراً, وكأننا فرَّغنا كل الجراح التي عايشناها في بيرٍ واحد.

في اليوم التالي استيقظ الجميع باكراً, رتبت حقيبتي وارتديت ملابسي, ثم ساعدت الخالة رنا بتحضير الإفطار, كنت أطير من الفرح, أتنقل من مكانٍ لآخر: مثل فراشة, يا رب لا تخيب ظني بعائلتي الجديدة, أتى وسيم وزيد وتناولنا طعام الإفطار معاً, ثم تجهزا للذهاب لأداء صلاة الجمعة, أما نحن فنظفنا الأطباق وجففناها, رتبنا المنزل, صلينا, وانتظرنا عودة وسيم؛ لنذهب إلى عائلتي, كانت الدقيقةُ تمر علي سنواتٍ طِوال.

عندما رجع وسيم من المسجد انطلقنا إلى وجهتنا, روحي تُرفرف, لم يكن المكان بعيداً عنا, وعند وصولنا جرتني سلمى إلى باب المنزل جراً, تجمدت أمام الباب دون حِراك, أمسكت سلمى يدي, وقالت بصوتٍ حنون:

-" نحن بجانبك, لا تخافي"

وضعت الخالة رنا يدها على كتفي, وقالت: " هيا لِنُسمي بالله جميعاً وندخل"

طرق وسيم الباب مرةً واحدة, ثم إنبلق الباب سريعاً, ظهر منه شاب وسيم وطويل, ويُفترض أن يكون هذا أخي.

-"وسيم: السلام عليكم يا أخي, نأسف على الإزعاج, نريد أن نُقابل والديك لو سمحت"

ردَّ أخي الذي لم أعرف اسمه بعد: "أهلاً تفضلوا بالدخول من هنا "

وأشار بيده إلى الغرفة الموجودة على يمين المدخل, ثم قال: " ارتاحوا لو سمحتم, سأُنادي والداي وآتي"

توزعنا على المقاعد, أما أنا اخترت الإلتصاق بالخالة رنا, جلست بقربها, وتشبثت بذراعها.

-"وسيم: باتي ما بك؟ لا تخافي, كوني بتونيا القوية التي نعرفها جميعاً, لا تقلقي, وهوني عليك, لقد انتهى كل شيء"

ثم ابتسم لي ابتسامة لم أستطع تحديد مغزاها, إن كانت ابتسامة رضا, أم حزن.

بعد دقائق أقبلت عائلتي: أمي وأبي, أختي وأخي, رحب أبي بنا وصافح وسيم, ثم اقتربت أمي للسلام علينا فرداً فرداً, بدأت من الخالة رنا, وعندما وقفت أمامي لم أستطع الصمود, نظرت إلى عينيها, إلى خطوط وجهها, ثم أمسكت يدها التي مدتها نحوي وقبلتها, عادت إلى الوراء مُستغربةً ما حدث, ثم اقترب أبي من أمي ونظر نحوي متسائلاً, وكأن قلبه شعر بفلذة كبده, قال باضطراب: "هل تعرفينا يا ابنتي؟"

عندما قال ابنتي ركضت نحوه ورميت برأسي على صدره, وبكيت كثيراً:

"أنت أبي, أنا ابنتك.. أنا ابنتكما"

حاوطني بذراعيه وشد علي, حتى شعرت أنني سأختنق, أخذ يقول:

" والله ما قطعت الأمل قط من عودتك يا لورا, كنت أعلم أنك على قيد الحياة يا ابنتي"

لا تعلمون بمدى سعادتي الآن, أحاسيس غريبة تجتاح فؤادي, تملصت من حُضن والدي؛ لأرى أمي المتلهفة, كانت دموعها تنهمر دون توقف, أمسكت بيديَّ وبدأت تقبلهما, ثم التقطت وجهي بكفيها, وقبلتني على جبيني, خداي, عيناي, لم تقل شيئاً, عانقتني وأخذت تنحب بصوتٍ مرتفع, ثم أقبل إخوتي, وأحاطوا بنا بأيديهم, ودموعهم . لقد شعرت بوجعهم وكسرة قلوبهم, استمرت العناقات أكثر من نصف ساعة, كنت أنتقل من حُضنٍ إلى آخر, وقلبي يقفز فرحاً. أخيراً وجدت عائلتي, الحمد لله يا رب.

-"وسيم: الحمد لله على سلامتكم جميعاً يا عم"

أجاب أبي الذي كان يجلس على يساري: "الحمد لله يا بني, الحمد لله. لكنني أريد أن أعرف كيف حصل هذا ؟ قلبي لم يلتئم أبداً, عايشنا أيام سيئة جداً, كانت حالتنا يُرثى لها, لم نترك مكاناً لم نبحث عنها فيه, كيف وجدتمونا ؟"

قص عليه وسيم ما حصل معي بعد وفاة والداي إلى أن وصل إلى صاحب البقالة التي في حيهم.

-"حسبي الله ونعم الوكيل, الله هو المنتقم الجبار, سينتقم منها أعلم ذلك"

ثم أخرج وسيم سلسلة من جيبه وأعطاها لأبي, وقال بأسف:

"وهذه هي السلسلة التي كانت مع بتونيا عندما اختطفتها"

نظر إليها أبي والدموع تستقر بمحاجر عيناه, ثم قال: "دعوت الله كثيراً أن يجمعني بابنتي, كنت على ثقة أنها هنا, وها هي الآن في بيتي, وبقرب قلبي, عادت والشكر لله, ولك يا بُني, لولاك لَمُتنا أنا وسوسن دون أن نعلم أنها على قيد الحياة"

-"وسيم: بتونيا تستحق السعادة يا عم, لقد عانت الكثير بحياتها, وأنا أستودعها الآن عند الله وعندك"

وخزني قلبي من كلماته, ذبلت روحي بثانية.

ثم قالت الخالة رنا: " ها هي ابنتكم رُدَت إليكم بصحة وسلامة, نحن نستأذن منكم, سنترككم الآن؛ لتُذهبوا شوقكم وحسرتكم عليها"

ردت أمي التي لا تزال تحاوطني بذراعيها بخوف: "لكنك ستقبلين دعوتنا لكم على طعام الغداء في الغد, ها ما رأيك؟ لن أقبل أي اعتراض"

-"رنا: و الله لن أرفض, يُشرفنا ذلك يا أُم يوسف, الآن يجب أن نذهب نستودعكم لله"

أخر من خرج كان وسيم وكأنني شعرت أنه يرغب بالبقاء, كان يمشي خطوةً للأمام وأخرى للخلف, وينظر إلي, بقي على هذه الحال إلى أن وصل البوابة, كانت عيناه الخضراء تترقرقان بالدمع, نظر نحوي وابتسم ابتسامة وداع, ثم ذهب مطأطأً الرأس, محني الأكتاف.

-" أنا اسمي سارة"

ابتسمت لها بخجل.

" وأنا اسمي يوسف"

-"وأنا بتونيا"

أتت أمي واحتضنتني, ثم قالت: " أنت لورا.. ابنتي الصغيرة التي لم أفرح بها بعد, أنت غصة حياتنا يا لورا"

"وأنا اسمي حسن والدك الذي لم يرتح لليلةٍ من التفكير بك, لا أُصدق أنك بيننا الآن يا لورا"

ذهب نصف اليوم ونحن نتحدث ونتعانق, سردت عليهم كل ما مررت به, مع التحفظ على بعض الأشياء, أخذتني سارة؛ لتُريني سريري الذي سأنام عليه, أفرغنا حقيبتي وعرفتني على المنزل, ثم أحضر لنا والدي الكثير من الطعام هو ويوسف, تناولنا طعامنا بسعادة عارمة.

وقبل أن أخلد إلى النوم, أرسلت رسالة نصية لوسيم, كتبت فيها:

(إلى صاحب الظل الطويل

لقد استحقيت هذا اللقب في النهاية, أنت النقطة الفارقة بحياتي يا وسيم, وقفت إلى جانبي وساندتني, لم تتركني أبداً, بالرغم من عِنادي وسوء أطباعي, كنت سندي يا وسيم, أتعلم ؟ أنا أؤمن أن الله يبعثنا لبعضنا رحمات, ويُرسل لنا الناس إما دروس, أو عون, أنت كنت عوني, وصديقي الحنون, خفيف الروح. أرسلك الله لي لتُحِبَني, أرسلك لأنني كنت بحاجتك دوماً, أنا أشكرك من كل قلبي, لقد أديت أمانة زياد, لقد حملت أمانة أبي على ظهرك وكنت أهلاً للحمل, أعلم أنني قسوت عليك, لكنني والله أحببتك.

أشكرك, وأتمنى لك حياة سعيدة, خاليه من التعب, أنت ورزان. سأدعو الله لك في كل صلاة.

عقلة الإصبع)

أرسلت رسالتي ودخلت في سباتٍ عميق, ياااه... ما أجملهُ من شعور! أنت لست عالةً على أحد, تنام في بيتك, تحاوطك عائلتك, تشعر بالأمان, الحمد لله.

في صباح اليوم التالي أيقظتني أمي باكراً؛ لأصلي الفجر مع العائلة, فنهضت بهمة ونشاط, أدينا الصلاة, وطلبت من أبي أن يصطحبني إلى

المقبرة, أريد أن أُخبر والداي أنني أصبحت بأمان, أنني وجدت عائلتي. رحب أبي بالفكرة وخرجنا سريعاً

عندما وصلت إلى قبريهما شعرت بمشاعر غريبة, إحساس آكل قلبي, وأنهاه, لا, لم أُبدلكما بأحد, أنتما عائلتي الأولى, أنتما والداي, ولكما الفضل علي, لكنني بحاجة إلى هذه العائلة, وهم بحاجتي, نحن نُكمِّل بعضنا يا أمي, أنا بحاجةٍ إلى الحب يا أبي, أشتاق لكما كثيراً وتمنيتكما إلى جانبي في لحظة لقائي بهم, لكنكما بعيدان الآن, أعلم أنكما تشعران بي, وتدعوان لي, أنتما معي دوماً, أحملكما بقلبي, وأُحبكما جداً, أنتما أول مؤسسين لحياتي, زياد وحياة.. أبي وأُمي

*****

أعلم أن لا شيء سيكون كالسابق بالنسبة لبتونيا, كان يوماً صعباً, ثقيلاً وكأن الدنيا حطَّت علي بثقلها, أجل هذا ما صنعتهُ يداي, لكن قلبي يؤلمني يا رفاق, بعد الآن حياتي ستكون مُستقلة عن حياتها, لا أستطيع الذهاب, ولا أستطيع البقاء, ليت رزان لم تكن موجودةً بحياتي, كنت على الأقل أحتفظ بقليلٍ من الأمل, لكنها لن تدعني وشأني, ستبقى عُقدة إنتحارها تشغل بالي, لا أستطيع حمل ذنب موتها يوماً بسببي.

عندما عدت إلى المنزل صعدت إلى غرفتي, وأغلقت الباب بالمفتاح, ثم نمت طويلاً, أحاول إزالة القليل من الأذى الذي علق بفؤادي.

استيقظتُ مساءٍ, كانت خالتي ورزان في بيتنا, ألقيت التحية وجلست معهم دون أن أنبس بحرف, حاولت رزان معرفة ما بي لكنها لم تأخذ مني حقاً, أو باطلاً, ثم أخبرتها أمي: بقصة باتي, وعودتها إلى أهلها, استأذنت أنا منهم وذهبت إلى المطبخ أبحث عن شيءٍ يهدأ ألم رأسي, الصداع ينهش دماغي, حتى أنني أشعر بالصداع في معدتي, بحثت ولم أجد شيئاً, أو أنني لم أشأ أن أجد. لم تُطِل رزان غيابها, ولحقت بي, كنت أجلس على المقعد, وأبحث بين كومة الأدوية؛ علني أجد مُسكناً يُخمد ألم رأسي, وألم قلبي, ويدخلني بسباتٍ عميق مرةً أُخرى

-"رزان: هل هذا ما يُزعجك, ويسبب لك الصداع؟ عودة الباذنجانة لأهلها"

-"وسيم: أرجوك يا رزان لا أريد لهذا الموضوع أن يُفتح, رأسي يؤلمني وموضوع بتونيا لا يُهمني"

-"رزان: وأنا صدقتك, لا يا حبيبي, هل تراني طفلةً أمامك؟ ألا أعلم أنا أنك لا تزال تحبها؟"

-"وسيم: وإذا علمتِ ماذا ستفعلين؟ لستُ بمزاجٍ يسمح لي بمثل هذه النقاشات يا رزان, لو سمحتِ أتركيني وشأني"

-"رزان: سأريحك مني لا تقلق, سأموت لترتاح أنت وحبيبتك القصيرة"

-"وسيم: آخ يا رزان, إلى ماذا تُريدين أن تصلي بهذا الكلام؟ أرجوك اعتقيني اليوم من محاولات انتحارك؛ لأن قلبي قد تلف"

نظرت إلي بغضب ثم خرجت وصفقت الباب خلفها, في هذه الأثناء وصلتني رسالة من مهجة القلب, قصبة السكر.. بتونيتي, زهرة المجرة. بعد أن أنهيت الرسالة سالت دموعي رغماً عني, أنت من تخليت عنا يا بتونيا, أنت من تخليت عن حبنا, كان الوضع سيكون مختلفاً الآن لولا عنادك, وأسرارك التي كنت تخفيها عني, ماذا سأُجيبك الآن؟ والله لا أعلم, لقد تعبت, أُستُهلِكت, لم أجد شيئاً أرد به, فكتبت:

" العفو.. لقد كان واجبي"

تجاهلت الجميع وعدت إلى غرفتي, أوصدت الباب ونمت؛ ففي الغد سنذهب إلى دعوة أهل باتي, أو لورا, على كل حال.. سأنام, يكفيني تفكيراً.

كنت مهموم البال, أنام لوقتٍ قصير واستيقظ, بقيت على هذا الحال إلى ما بعد صلاة الفجر, صليت واستكنت روحي قليلاً, ثم اندثرت بغطائي ونمت إلى صلاة الظهر, استيقظت على رنين الهاتف.. كانت أمي المتصلة.

"نعم يا أمي, ماذا تريدين؟"

-"رنا: ماذا أريد؟ هل تمزح معي يا وسيم؟ هيا انهض, الساعة الآن الثانية عصراً, وبابك مُقفل, هيا سنتأخر على أهل باتي"

-"وسيم: ألا تستطيعين تدبر أمري, والاعتذار عني, لا أريد الذهاب"

-"رنا: من الواضح أنك لم تستيقظ بعد, هيا يا وسيم, ثم إن رزان سترافقنا أيضاً, أترى من الصحيح أن تذهب خطيبتك وتعتذر أنت؟"

-"وسيم: ماذا؟! مستحيل, لن ترافقني "

ثم قفزت عن السرير أشتم رزان في سري, فتحت الباب ونزلت إلى الأسفل حيث يجلس الجميع, ثم وجهت حديثي لرزان قائلاً:

"ولِمَ ستذهبين أنت؟ ألم تكوني عدوتها الأولى؟ ألم تُخبريني أنك لا تحبيها؟ أخبريني لِمَ ستذهبين إذن؟"

-"رزان: أريد أن أذهب مع خطيبي, ألم تدري أننا سنصبح شخصاً واحداً؟ بعد الآن قدمي ستسبق قدمك يا وسيم"

-"وسيم: أوه ما هذا الصباح السيئ! هذا ما كان ينقصني"

-"رنا: هل أنت متأكد أننا لا نزال في فترة الصباح؟ هيا يا بني دعنا من الصراخ, اذهب وارتدي ملابسك, سنتأخر على عائلة باتي"

-"وسيم: سأذهب يا أمي لأرى نهايتها معكم"

اغتسلت وارتديت ملابسي, ثم انطلقنا إلى وجهتنا, استقبلنا العم حسن على الباب, ورحب بنا ثم اصطحبنا إلى غرفة الطعام مباشرةً, لقد تأخرنا قليلاً عليهم وتعلمون السبب.

كانت المائدة تليق بالملوك, مليئة بالأطعمة, لا تكاد تخلو من صنف, جولت نظري في المكان؛ علني أرى بتونيا, لكنها لم تطل بعد, وبعد عدة دقائق أتت تحمل أطباقاً فارغة ألقت التحية, ووضعت الأطباق على الطاولة, ثم احتضنت سلمى ووالدتي, ولو رأيتم دهشتها عندما وقع نظرها على رزان, لكنها تداركت نفسها, ومدت يدها للسلام عليها, والتي بدورها اصطنعت الانشغال بالطعام, أعادت باتي يدها وجلست بقرب سلمى, ثم قالت لها بصوتٍ مُنخفض سمعته لأنني أجلس بقرب أُختي:

"أُريد أن أُمسك شعرها وأجرها في الأرض"

ابتسمت فانتبهت لي واخفضت رأسها بخجل, ثم بدأنا بالطعام, طبعاً رزان وجدت الفرصة متاحة أمامها, ولم تدع شيئاً إلا وانتقدته, حتى شعرت أن العائلة بأُكملها تود أن تقتلها, أي لست لوحدي, ليلتصق طعامها بمعدتها إن شاء الله, بعد الانتهاء من الطعام توجهنا أنا ويوسف والعم حسن إلى غرفة الضيوف؛ لنترك النساء لوحدهن.

بعد أقل من نصف ساعة أطلَّت باتي مرةً أُخرى تحمل أكواب الشاي, كان وجهها ممتقع, تتألم روحي كثيراً عندما أراها هكذا, وأعلم بل متأكد من أن رزان قد ألقت سمومها عليها, أتت نحوي لتُعطيني كوب الشاي خاصتي, وعندما تناولته قالت: "مبروك.. لقد اتفقت أنت ورزان على موعد الزفاف"

رزان.. سأفقئ عينك عندما نعود إلى المنزل

-"وسيم: لا, مُجرد حديث, لم نقرر بعد"

ثم ابتسمت ابتسامة كاذبة, وانسحبت من بيننا بخفة.

*****

عندما خرج الرجال إلى غرفة الضيوف, توجهنا نحن إلى المطبخ, أما أمي والخالة رنا فأخذتهن الأحاديث على طاولة الطعام.

-"رزان: أتعلمين يا باتي؟ لم أعتقد أن لك عائلة, تخيلتك تخرجين من البيضة"

وأخذت تضحك لوحدها

-"سلمى: هلَّا تحدثتِ بلطف يا رزان؟ وإلا أخبرتُ أخي"

-"رزان: أوه صحيح, لقد نسيت أنني خطيبته الآن, ألم أُخبركِ؟ لقد حددنا موعداً لزفافنا البارحة"

-"سلمى: مع أنني متأكدة أنك تكذبين, لكنني أعتقد أنه سيتركك قريباً؛ لأن الفرق شاسع بينكما"

-"رزان: سنرى إذن من سيربح يا ابنة خالتي العزيزة؟ اعذروني سأذهب لرؤية خطيبي, والإطمئنان عليه"

-"بتونيا: انظروا إليها تسددُ هدفاً بكلِ كرةٍ ترميها"

-"سارة: لا عليكِ منها يا أختي العزيزة, الواضح من كلامها وتصرفاتها أنها تُحاول إثارة جنونك"

-"بتونيا: كأن دماغي يحترق عندما أراها إلى جانب وسيم"

-"سلمى: وأخيراً اعترفت يا باتي"

-"بتونيا : نعم أغار, وجداً, والغيرة تأكل خلايا دماغي الآن, هل ارتحت يا مُغفلة؟"

ضَحِكَت: "أجل, ارتحت, هل سآخذ رأيك يا مفتعلة المشاكل؟"

بعد نصف ساعة أتت الخالة رنا وقالت لي: "هلّا أتيتِ معي قليلاً يا باتي؟"

رافقتها دون أن أجيب, ثم ذهبنا إلى الحديقة, كان وسيم يجلس على إحد المقاعد ينتظر باضطراب.

-"بتونيا: ماذا يحصل يا خالة؟ هلّا أخبرتني؟

-"رنا: اجلسي هنا أولاً"

وأشارت إلى المقعد الذي يواجه مقعد وسيم, ثم جلست بقربي وقالت:

"وسيم يا بني أريد أن أُخبرك سراً أخفيته عنك"

نظرت نحوها سريعاً لأمنعها بنظراتي الحادة, لكنها أكملت: "أنا من ذهبت إلى مركز الأيتام, وطلبت من بتونيا التخلي عنك, أنا السبب بطلاقكما

يا ولدي, وأنا أعتذر منكما, لم أدري ما الذي سيطر على دماغي حينها؟ كنت بلا قلب, ولم أُفكر سوى بنفسي "

كان الذهول واضح جداً على وجه وسيم؛ وكأنه صُعق مما سمع, ثم قال متردداً: "أنت السبب يا أمي؟ ألم ينكسر قلبك لحالي؟ ألم تُشفقي على بتونيا؟ ماذا سأفعل بأسفك الآن؟ لقد أنهيتِ حياتي يا أمي"

-"رنا: أرجوك يا بني سامحني, لقد أخبرتك الآن؛ لتستطيع إصلاح وتدارك الوضع بينكما "

-"بتونيا: عن إذنكما, سأترككما معا"

-"وسيم: وأنت يا باتي؟ ألا تعلمين أن الكذب ليس ما نقوله فقط؛ بل ما نصمت عليه أحياناً"

-"بتونيا: اعذرني لم أشأ أن أُدمر حياتك, وأن أُحمِّلك هم إضافي, كنت تتفرغ لامتحاناتك, وتخرجك, ولم أود أن أشوش عقلك, وأكون العقبة بينك وبين والدتك, لم أشأ أن أرى الندم في عينيك عندما تنظر ولا تجد والدتك معك, كنت ستُحمِّلني الذنب طيلة عمري, حتى دون أن تُخبرني"

-"وسيم: ليتكِ أخبرتني بهذا وتركتني أنا أُقرر مصيري, لما سمحت أن نُعايش أياً من هذا "

-"رنا: لا تلمها يا وسيم, أنا السبب, أنا من أجبرتها على هذا الخيار"

-"وسيم: أنت يا أمي كنت مختلفة جداً بالنسبة لي, لست كالجميع؛ لكنك مع الأسف أصبحت مثلهم عندما جاء الموضوع للكذب"

-"رنا: أنت قرر ماذا ستفعل بي؟ لكن أرجوك لا تُعاقب نفسك, ولا تعاقب بتونيا, ستندم طوال عمرك"

الوضع كان متوتراً جداً, استأذنت واستدرت لأذهب فرأيت رزان التي استمعت لكافة الحديث لا شك بهذا؛ لان وجهها لا يُفَسر, حدجتني بقسوة ثم صرخت:

" تتخلين عني الآن يا خالتي, تُفضلين هذه على ابنة أختك, وأنا التي اعتبرتك كأمي؛ لكنك مع الأسف لا تستحقين هذا, وبما أنك أفسدتِ كل شيء؛ فسأخبر وسيم أنك لقيطة, نعم يا وسيم, والدتك وجدها جدي أمام باب المنزل "

هذه الفتاة مُستفزة, وقبيحة الطباع, أصبح حال وسيم يُدمي القلب, وتجمعت العائلة؛ لتعرف سبب صراخها.

-"وسيم: أمي؟ هل هذا صحيح؟"

-"رزان: صحيح, أنا لا أكذب, أخبرتني أمي بهذا"

-"بتونيا: لم تستطع أن تُخبركما يا وسيم, كانت تخاف أن تخسر أولادها, أن لا يتقبلوها "

-"وسيم: أنتِ أيضاً تعرفين؟"

-"بتونيا علمت بهذا حديثاً, عندما أخبرتني عن عائلتي, ولم أستطع أن أبوح لكما بهذا؛ لأنه سرها الذي طلبت مني أن أحفظه "

-"وسيم: أمي قولي شيء, هيا تكلمي"

-"سلمى: أمي هل هذا صحيح؟ أرجوك أجيبي"

كانت الخالة رنا تذرف الدموع وهي تنظر إلى الأرض, لم تستطع النظر إلى أبنائها, كانت حالتها يُرثى لها, لقد أُفتُضِح أمرها أمام أطفالها, وأمام عائلتي التي خرجت على صوت الصراخ.

-"رنا: نعم, خفت أن تكرهاني عندما تعلمان بذلك, أنتما حياتي, أطفالي, مُهجة روحي"

-"سلمى: لا يا أمي, لن تخسرينا, هل هذا سيغير حقيقة انك والدتنا؟ ألم تري كيف تقبلنا الأمر مع بتونيا؟ لقد أحببناها أكثر من ذي قبل, لقد تمسكنا بها جداً "

-"وسيم: تحدثي عن نفسك يا سلمى, أما عني فلقد خسرتني يا أمي تعلمين أنني أكره الكذب كثيراً, أنت غششتنا, لقد تعبتُ كثيراً يا أمي أستُهلِكت, لقد أضعت طريقي من العجز, أكرهكم جميعاً"

-"رزان: وأنا يا وسيم ؟هل ستتركني؟ أرجوك لا أستطيع العيش من دونك"

-"وسيم: رزان, أنت خاصةً اذهبي من وجهي, لا أريد أن أراك لمدة طويلة"

انهارت أرضاً وأخذت تبكي وتندب حظها, ثم أخذت مفاتيح سيارة وسيم عن الطاولة, وراحت تركض باتجاه المركبة, ثم قادتها بجنون.

-"رنا : أرجوك يا وسيم إلحق بها"

-"وسيم: هل ألحق بها جرياً على الأقدام ؟"

-"يوسف: تعال يا وسيم؛ لنبحث عنها قبل أن تفعل شيئاً بنفسها"

ثم ركبا سيارة يوسف وذهبا, ركبت أنا وسلمى, والخالة رنا مع أبي, بعد دقائق توقف أبي,كان الطريق مُغلق, نزلت الخالة رنا بسرعة, ولحقنا بها, لم تخب ظنوننا: كانت رزان, نقلناها إلى المستشفى, وذهبنا لنُخبر والدتها التي جنَّت وأخذت تسبني, وتسب وسيم.

كان وضعها الصحي خطر جداً, هناك كسر في العمود الفقري, وأصابة بليغة بالحبل الشوكي, والوضع لا يُطمئن أبداً, سيجرون لها عملية, مع هذا أبلغنا الطبيب أن لا نتأمل؛ لأنها أُصيبت بشلل الأطراف السفلى, وفقدان الإحساس من منطقة الترقوة فما دون, وعدم مقدرتها السيطرة على السبيلين

كان الجميع متوترون, أما والدة رزان ففقدت الوعي,كان يوماً عصيباً, عدنا إلى منازلنا بحالٍ مُزري, وعيون مُنتفخة, المصاب لم يكن سهلاً.

بقيت رزان على حالها طوال الأسبوع دون أمل ولا حتى تحسن طفيف, لكنها أفاقت ولله الحمد, وتحدثت, كان وسيم ووالدتها يقيمان معها في المشفى بالتناوب, وكما علمت أن وسيم يُقاطع والدته ويشعر بالذنب تجاه رزان, يُحمِّل نفسه أكثر من طاقته, انتقل من همومي إلى هموم رزان.

اليوم يا رفاق سأرى جدتي التي أتت من السفر البارحة, أخذني أخي يوسف إلى منزلها؛ أي منزل أبي, يوسف لم ينزل وقرر أن ينتظرني بالخارج, لا أخفيكم كنت خائفة من ردة فعل عمتي منى, طرقت الباب وانتظرت, فبانت قمري وشمسي, وعمري بأكمله, ركضت إليها واحتضنتها, كان لقائي بها مُبهج جداً, ولأول مرةٍ ألقاها بعد رحيل والداي دون دموع, عانقتها طويلاً, وقبلتها كثيراً, لقد كبرت جدتي, شاخت ملامحها بأشهر, أدخلتني إلى المنزل, فرُحتُ أدور به, وأتجول في الغرف, أشمُّ الروائح. هنا كانت تُحضر حياة أشهى الوصفات, وهنا كان يتمدد زياد لمشاهدة الأخبار, أما هنا فكنت أنام, وأدرس, وأتنفس, هنا غرفتي الحبيبة, وهنا غرفة والداي, لقد اشتقت لكما, اشتقت لبيتي كثيراً.

-"أم زياد: ها, أين سرحتِ يا ابنتي؟"

-"بتونيا: في حنايا أيام عودتها مستحيلة يا جدتي"

-"أم زياد: منذ البارحة ونحن نبكي يا باتي, أرجوك لا تُدمي قلبي أكثر"

-"منى: باتي؟ أهذه أنت؟"

-"بتونيا: أنا آسفة, فقط أتيت لأرحب بجدتي, وها أنا ذاهبة, لا تغضبي أرجوك"

ابتسمت وانكبّت دموعها, ثم فتحت ذراعيها وقالت:

"تعالي يا إبنة زياد.. تعالي يا روح العائلة"

رحت أركض نحوها وارتميت على صدرها, وأنا أنوح وأقول:

" لماذا فعلتِ هذا بي؟ لماذا يا عمتي؟ والله أنني أحبك, ولم أحمل بقلبي عليك أبداً "

-"منى: أعلم أن اعتذاري لن يفيدك, فأنا طغيت وتجبرت, لكنني سأفعل شيئاً ربما ستسامحينني على فعلتي بسببه, أشعر أن كل ما حل بي بسببك يا باتي, أنا ظلمتك, و إستحقيت كل ما حدث معي"

-"بتونيا: لا تقولي هذا أرجوك, لقد سامحتك من كل قلبي, سأطلب منك طلب إذا سمحت"

-"منى: أطلبي يا قلب عمتك, أطلبي"

-"بتونيا: هل تسمحين لي بالبقاء هنا هذه الليلة؟ أريد أن أنام بغرفتي, أريد أن أتسلل ليلاً إلى غرفة والداي وأبكي خلسةً, أن أعيش هنا ولو لليلة واحده."

-"منى: بل سأعطيك ما هو أكثر يا بتونيا, هذا البيت لك, هو وصية أخي وسيعود لك في هذا الأسبوع, وأنت من ستتفضلين علينا بالعيش فيه لفترة, حتى نجد بيتاً آخر"

-"بتونيا: لا يا عمتي لن أقبل بهذا, أنا لا يحق لي أن أمتلك شيئاً ليس لي"

-"ام زياد: بل هو حقك ووصية والديك يا باتي, نقطة وانتهى"

أمضيت يوماً من العمر في منزلي, مع عمتي وجدتي الحنونة.

*****

لقد اتخذت قراري سأتزوج من رزان وأرافقها هي وخالتي إلى المدينة التي يعيش بها والدها, يجب أن تتعالج خارج البلاد, لن أتركها, حصل هذا بسببي, سأخبر الجميع اليوم وأجهز أموري للسفر, في البداية سأذهب وأنهي أوراق الزواج دون أن أخبر أحد, لا أريد الاستماع إلى النصائح.

لقد أصبحت الآن رزان زوجتي رسمياً, وسنسافر بعد الغد بأذن الله, رتبت الأمر مع والدها, بقي أن أُخبر عائلتي التي ستأتي مساءٍ كالعادة؛ للاطمئنان على حال رزان, وستأتي معهم بتونيا التي لم تنقطع عن المشفى منذ الحادثة, سأضرب عصفورين بحجرٍ واحد, أريد أن أتخلص من ذنبي سريعاً.

في المساء أتى الجميع برفقة زيد, اطمأنوا على رزان وخرجوا, ثم طلبت منهم النزول إلى الاستراحة؛ كي أفتح الموضوع معهم, وعندما اجتمعوا قلت: "لقد تزوجت رزان اليوم, وسنسافر بعد الغد إلى والدها للعلاج"

بان الذهول على وجوههم.

-"رنا: لن تفعل هذا بي يا وسيم, أرجوك إلا هذا العقاب "

-"سلمى: أخي, هل ستتركنا هنا لوحدنا ؟ هل ستتخلى عنا جميعاً ؟ "

-"وسيم: يجب أن أذهب, لقد أتممت أموري, ربما تطول سفرتي؛ فعلاجها سيأخذ وقتاً طويلاً, سنُجري لها عملية, عليه سيتحدد وضعها, لكن نسبة النجاح ضئيلة, سأخبركم من الآن أنني سأجد عملاً هناك, لن أعيش على حساب والدها طبعاً"

-"رنا: هذا يعني أنك لن تعود يا وسيم, لن تفعل هذا, أنا لا أسمح لك"

-" وسيم: آه.. نسيت, أنت يحق لك العبث بأمور الآخرين وتدمير حياتهم, ويحق لك الكذب, وأنا لا يحق لي التصرف بحياتي كما أشاء, لا يا أمي, كان هذا في الماضي, أما الآن؛ فسيحصل ما أريده"

-"زيد: وسيم, هلّا أتيت لنتحدث على إنفراد"

-"وسيم: لقد تزوجتها يا زيد, وتذاكر السفر معي؛ يعني لا يوجد ما يمكننا الحديث به"

-"زيد: لكن يا وسيم لا تُعَالج المواضيع بهذه الطريقة, أنت تتسرع باتخاذ القرارات, تعال لنتحدث قليلاً يا أخي."

-"وسيم: فيما بعد يا زيد, أما الآن؛ فحديثي سيكون مع بتونيا على إنفراد لو سمحتم لنا"

أمسكت سلمى بيد أمي واصطحبتها معها, ولحق بهما زيد, أما بتونيا فقد كانت تسند ظهرها إلى الجدار, وتنظر نحوي نظرةً لم أستطع تفسيرها, نظرتها طويلة, وملامحها ساكنة, لم تكن غاضبة كسلمى, أو حزينة كأمي, أو حتى غير مُصدقة كزيد, بدت لي راضية, مُتقبلة, عندما أراها يعود مزاجي إلى مكانه, قلت بصوتٍ خافت: " ما رأيكِ أنتِ يا بتونيا؟ هل فعلتُ الصواب؟"

-"بتونيا: لا أعلم يا وسيم, المهم أن تكون على اقتناع تام بقرارك, وإذا كنت تُفكر بعُقدة الذنب التي حمَّلتها لنفسك؛ فأنت على حق, ولو كنت أنا بمكانك لما تصرفت غير هذا التصرف. "

ماذا تفعل بي هذه الفتاة؟ أيُعقل هذا؟ كيف تستطيع التفكير بي وتنسى أنها من أكثر الأشخاص المتضررين بهذا القرار؟ ماذا أفعل بكِ يا بتونيا؟ كيف سأتخطى غيابكِ عن حياتي؟ هذه المرة أنا من أقصيكِ عنها, لكنني أُعاقب نفسي كما أعاقبك.

-"وسيم: لِمَ تفعلين هذا يا باتي؟ تحاولين تشويش رأسي كالعادة"

-"بتونيا: أنا فقط أخبركَ أننا لن نكون سعداء معاً؛ لأن رزان ستبقى بيننا دوماً, الذنب سيصبح مشتركاً, وأنا لا أستطيع حمل ذنب أحد, تكفيني السنين الماضية, لا أريد العودة إلى الماضي, أود أن أعيش صافية الذهن, خالية الفؤاد."

-"وسيم: هل ستنسيني يا باتي؟ ربما لن أعود أبداً, كيف ستكملين حياتك بدوني؟ "

-"بتونيا: لا تتوقف الحياة عند أحد يا وسيم, ستستمر رغماً عنا, هذه أقدارنا, ربما لو انتبهنا منذ البداية, لوجدنا أننا كلما اجتمعنا حدثت مصيبة, ربما هذا الأفضل لنا, وإذا كان لنا نصيب سنعود مجدداً لنجتمع"

-"وسيم: بالنسبة لي لن أنساكِ ما حييت يا عقلة الإصبع, أنت التي ستبقين بيني وبين رزان, لكنني متأكد أنك ستُصبحين زوجتي يوماً ما, سنشيب سوياً أشعر بهذا, سأبقى أحبك يا "همَّ العمر" كما تقول فيروز, أتعرفين ما الأكثر إيلاماً؟ أنني لم أكتفي منكِ يا باتي, لكن بالرغم من هذا الكم العجيب من الظروف التي تقف أمام حبنا, أنا متأكد من أن هذا الحب سيكون أكبر من الظروف, ومن كل شيء."

ابْتَسَمت لا بل ضَحِكَت, بانت أسنانها اللطيفة, وغمازتها التي أغرق بها كلما ابتسمت لي, ثم قالت:

"إذن اعتني بنفسك جيداً يا شرشبيل إلى أن نلتقي, وإذا لم يتم هذا اللقاء فسيكون قدرنا أن لا نكتمل, وداعاً يا صاحب الظل الطويل"

"إلى اللقاء يا زهرة المجرة, سأُحِبُكِ دوماً لا تنسي هذا"

ابتسمت وراحت تمشي أمامي كغزالٍ صغير لا يعرف أين يتجه؟ بقيت أُراقب خطواتها حتى اختفت عن ناظريَّ, إلى اللقاء يا مُهجة الفؤاد.

*****

بعد مرور خمسة عشر عاماً.. أنا الآن مُعلمة, لقد حققت حلمي, و أصبحت مؤثرة بشكل إيجابي على طلابي, علمتهم أن الإنسان يستحق التقدير والحب مهما كان لونه, أو عرقه, أو دينه, أننا يجب أن نُساند الأشخاص الذين حُرِموا من معاني الحياة, علمتهم أن الإنسان لن يأخذ معه إلى القبر سوى أعماله الطيبة, وأدعية من حوله, لقد أثرتُ بالكثير من الطلاب الذين أصبحت لهم أماً ومرشدة.

توفت جدتي بعد تخرجي من الجامعة بأيام قليلة, كان موتها مفاجئاً, لقد كسرت قلبي, أتذكر حينها أنني ذبلتُ كثيراً, وتألمت كثيراً, لم يتبقى لي من عائلة زياد سوى عمتي منى, التي تزوجت وأنجبت ولداً شقياً أسمته زياد, وهو الآن في العاشرة من عمره, وهي سعيدة جداً. لقد عاد منزل والداي لي, أصبح ملكي, لم أغير به شيئاً, أزوره كل فترة: أنظِفه من الغبار, وأروي حديقته, وطبعاً لم أنسى زياد وحياة؛ الَّذين لم أقطعهما أبداً, كنت أزورهما كلَّ يوم جمعة, وأخبرهما بكافة أسراري, وبحرقة قلبي على وسيم.

سلمى تزوجت من زيد, وأصبح لديها ثلاثة أطفال: وسيم, وبتونيا, وأحمد, وهي الآن تسكن مع والدتها؛ كي لا تتركها لوحدها بعد غياب وسيم, الذي يزورهما كل سنتين مرة, ولا تتجاوز مدة زيارته الأسبوع, ولا أعلم أنا بوجوده إلا بعد عودته, وكأنه قطع كل سبل اللقاء.

أخي أيضاً تزوج منذ خمسة أعوام, وأنجب فرح, أما أختي سارة؛ تزوجت وسافرت مع زوجها, ولها من الأولاد أربعة, لم يبقى سواي أنتظر على الأطلال, أمضيتُ هذه السنين برعاية والداي اللذين خرجت بهما من هذه الدنيا.

صحيح نسيت أن أخبركم عن لانا التي خرجت من السجن, ثم عادت له بتهم مختلفة, كانت تُخبرني عندما أزورها أنها لن تخرج من هنا؛ لأن السجن أصبح بيتها: تأكل, وتنام, وكونت الكثير من الصداقات هناك, اختارت الموت وهي على قيد الحياة, أما شهد؛ فانقطعت أخبارها عني بعد تخرجنا, سمعت أنها سافرت, على كل حال وفقها الله أينما حلّت.

لقد اكتشفت بعد الكثير من المواقف التي مررت بها, أن الإنسان لا ينسى أي إحساس شعر به.. أي تجربةٍ عاشها.. لا ينسى أي شيء أثر على حياته, لا أسرار, ولا أحلام, ولا حتى أشخاص, نحن لا ننسى بل نُخبئ كل شيء بأفئدتنا؛ لُنخرجه بعد هذه الأعوام ونبكيه, ومع مرور السنين تتغير أحاسيسنا تجاه تلك المواقف, وتقل وطأة الألم علينا, لتبقى مجرد ذكريات, لا تُغني, ولا تُسمن من جوع.

لم أنسى وسيم مع أنني أعلم أن ما فعلتهُ كان الصواب, لكنني أشتاق له, لم يغب عن مُخيلتي يوماً, كان يسكن روحي, أخاف أن أموت يا رفاق دون أن نلتقي, على كلٍّ حال لم تنقطع علاقتي بسلمى قط, لا زلنا أخوات وصديقات, أزورهم أُسبوعياً؛ للاطمئنان على الخالة رنا, وطبعاً لتدريس أطفالها, واليوم لي موعد معهم, أخبرتني سلمى أن الخالة رنا حضَّرت لي الحلوى, وأن أحمد يحتاج المساعدة قليلاً في اختبار الغد, المحتالة فقط لتتملص من تدريسه, ماذا سأفعل؟ سأذهب مُجبرة.

*****

حان دوري لتبرير نفسي, لا تغضبوا مني؛ فحياتي لم تكن سهلة, أمضيت عشرة أعوامٍ ممرضاً لرزان, لم تتحسن أبداً, ثم أجرينا لها عملية جديدة, بدأت تُشفى رويداً رويداً, حتى مضت الخمسة أعوام الأخرى, أصبحت تمشي وأخيراً, عادت لها الحياة؛ لكنها كافأتني بإطلاق سراحي, نعم.. أخبرتني هذا بكل صراحة, قالت لي: "وسيم, أريد منك أن تطلقني, يكفيك هذا القدر من التعب, أنا رُدَّت لي عافيتي, وأريد أن أعيش ما فوته, حياتي تمضي دون أن أستفيد منها بشيء, نعم, أحببتك كثيراً, لكن حبي لك لم يدم, كلما رأيتك تساعدني في حالتي هذه كنت أكرهك, فكرت كثيراً.. أنا سرقتك من بتونيا؛ فعاقبني الله بمرضي. أشكرك على مساندتي ووقوفك إلى جانبي, لكنني لست بحاجتك الآن, أريد حريتي,

أريد أن أتزوج من شخصٍ يُحبني, أريد أن أستغل بقية هذه الأعوام بإنجاب طفل؛ يسندني في شيخوختي, سامحني, وحررني."

طلقتها واستقلت من عملي, وها أنا الآن أعود إلى بلدي, إلى أمي التي حرمتها مني, أعود لأرى أطفال إخوتي وألاعبهم, أعود لألتقي بتونيتي التي لم تخرج من قلبي ولا عقلي قط, لم أتجرأ على الإتصال بها أبداً, لقد خفت كثيراً أن أضعف, وأترك رزان في هذا الوضع, كنت أستمع لأخبارها من سلمى التي كانت تُعاقبني بقول أنها بخير, ولا ينقصها شيء, تعيش حياتها كأنني لم أكن فيها؛ لكنني لم أصدقها, أعلم أنها تتلاعب بي, وأعذرها طبعاً, لقد فَقَدَت السند, فقدتني لأنني اخترت التكفير عن ذنبي الذي لم يكن ذنبي أساساً.

أما عُقلة الإصبع فشوقي لها يكوي أضلعي, حياتي رتيبة, ومملة, لكن طيفها كان يُبدل مزاجي دوماً للأفضل, لم أنساها ولم أستطع أصلاً, حاولت كثيراً أن أخرجها مني, لكن عبث محاولاتي كانت فاشلة.

بعد دقائق سألتقي بعائلتي يالها من فرحة يا رفاق, اشتقت لهم كثيراً.

ها أنا الآن أطرق الباب, انتظرت طويلاً, أين ذهبوا الآن, بعد دقائق شعرتها أعوام, فُتح الباب, كان وسيم الصغير, ارتمى بحجري وبدأ يصرخ:

" خالي وسيم أتى, أمي تعالي"

خفق قلبي واندلع فيه الشوق و الحنين, أتت سلمى تركض على صوت وسيم الصغير, عندما رأتني أخذت تبكي بحرقة, ثم ارتمت هي الأخرى على صدري, طال عناقنا, ثم سألتها عن والدتي؛ فأخبرتني أنها نامت بعد أن أخذت أدويتها, فصعدت لها, لا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك, عندما رأيتها, ذاب قلبي, لقد كبرت أمي, تقدمت بالسن, وتراجعت صحتها, حالتها أوجعت قلبي, اقتربت منها ومسحت على رأسها بلطف, رفعت رأسها بصعوبة وعندما تقابلت الأعين بدأت الدموع تنهمر.

"أنت قاسي يا وسيم, أنت قاسي جداً "

ثم اعتدلت من نومتها وعانقتني, ودموعها بللت قميصي, تحدثنا طويلاً, وأخبرتها أنني سأبقى هنا, كانت فرحتها لا توصف, جهزت لي سلمى غرفتي لأرتاح إلى حين عودة زيد مساءً, فرحتُ أغطُ بنومٍ عميق, لم أنعم به منذ خمسة عشر خريفاً.

*****

وصلت منزلهم متأخرة؛ لأنني ذهبت إلى دكان الألعاب, وأحضرت بعضاً منها لأبناء سلمى.

-"سلمى: لِمَ هذا كله يا باتي؟ أنتِ تصرفين راتبك كاملاً على أطفالي, هذا لا يجوز"

-"بتونيا: هلَّا أعرتني سكوتك؟ هم أطفالي أيضاً, ثم إنني لا أحتاج للمال كما تعلمين "

-"سلمى: مجنونة, ستبقي طوال عمرك بهذا العقل المتخلف"

ضحكت وتوجهت إلى المطبخ سريعاً, ثم صرخت: "أين الحلوى التي حضرتها الخالة رنا؟ هيا أخرجيها؛ فأنا لم أتناول شيئاً من الصباح, لألتهمها بأكملها "

-"سلمى: ألم أخبرك أنك متخلفة؟ انتظري قليلاً, سأحضرها"

خلعت حجابي ووضعته على الطاولة, ثم التقطت هاتفي؛ لأرسل رسالةً لوالدتي أخبرها بوصولي لمنزل سلمى, كي لا تقلق.

-"سلمى: تفضلي التهميها كلها لأرى, لا تُبقي شيئاً"

-" بتونيا: لا تقلقي, سأتناول الطبق أيضاً"

كدتُ أنفجر.. معدتي ستتمزق, ما هذا النفس الطيب!

"بتونيا: أتعلمين يا سلمى؟ أصبحتِ بحجم الحمار ولم تتعلمي تحضير الطعام والحلوى كوالدتك, سلمت يداها"

ضحكت ووضعت يدها بالحلوى, ثم مسحتها بوجهي, فرددت عليها سريعاً وأخذنا نضحك بصوتٍ مُرتفع.

"السلام عليكم"

لم أنظر للخلف, الغبية سلمى لم تخبرني أن زيد سيعود باكراً, أخذت حجابي وغطيت به وجهي الملوث ثم خرجت إلى غرفة المعيشة؛ فلحقت بي سلمى سريعاً و هي تضحك.

-"بتونيا: هل أنت غبية؟ لِمَ لم تُخبريني بوجوده؟"

-"سلمى: أنا آسفة, لم تسنح لي الفرصة, سأحضر لكِ حجاباً بسرعة البرق "

عادت بعد أقل من دقيقة تُهرول, التقطته منها بعد ما نظفت وجهي, وارتديته سريعاً, ثم قلت لها: "سأذهب إلى غرفة الأولاد, وأنتِ اهتمي بزوجك"

-"سلمى: أي زوج يا فهيمة؟"

-"بتونيا: من هذا إذن؟"

-"وسيم: طولك بطول ساقي, لِمَ تخجلين مني؟ صدقيني ليس من هواياتي أكلُ لحوم البشر "

وسيم!.. والله هذا وسيم, ابتسمت بلهفة, ورددت:

-"كل طويلٍ هبيل, وكل قصيرٍ نقير"

-" تقصدين كل قصيرٍ مكير "

-" نابليون قصير وهزم النمسا و روسيا "

ضحك باستهزاء وقال: -"صحيح إتق شر من قَرُب من الأرض "

ثم ضحكنا بهستيريا, لم أعرف صوته بادئ الأمر, لقد تغير, كان نحيلاً ضئيلاً, تلون بعض شعره بالأبيض وذقنه أيضاً يكسوه القليل من البياض, لقد تغير وجهه, هناك بعض الخطوط على جبينه, وأسفل عينيه اللتان لم تتغيران خضراوين واسعتين, لكنهما ذابلتين, حتى ابتسامته العريضة التي قصمت قلبي لم تتغير, أيحق لك أن تحرمني من هذا الوجه الجميل كل هذه المدة؟ كانت الفراشات تطير بمعدتي, وقلبي يتزلزل من شدة الخفقان, لا أعلم ما حل بي, ظننت أنني لن أتأثر لرؤيته, لكن خانتني جوارحي, تنهدت وقلت: "ما الذي أعادك بعد كل هذا العمر؟"

-"وسيم: إن لم تنسني؛ فأنا لم أنساكِ أبداً يا عقلة الإصبع, لقد تطلقت من رزان بعد أن أصبحت بحالة جيدة, وعدتُ لأجتمع بك, لقد أبعدتني عنك وسرقت عمري, أخذت مني السنين الجميلة التي كنت سأمضيها برفقتك."

-"بتونيا: لم تسرقك من أحد, هذا قرارك الذي أخذته بكامل وعيك. "

*****

عندما رأيتها في المطبخ صُعق قلبي, كان الحدث الذي حصل أمامي مكرر, لقد رأيت هذا المشهد في الماضي, انتظرت قليلاً, ولحقت بها, كان لقائي بها مميز ومكرر, حتى أننا لا زلنا نحفظ تلك الردود التي ألقيناها على بعضنا في الماضي, لم نتغير, لم تشخ قلوبنا, لا زالت تحبني, أشعر

بذلك, حتى أنني لا أبالغ لو أخبرتكم أنني أسمع الآن نبضات قلبها, وربما هذا صوت قلبي الذي لم يهدأ أبداً منذ سماعي لصوت ضحكاتها, أصبحت أكثر أنوثة, وجهها جميل وغمازتها رقيقة, حتى سهام عينيها الكثيفة التي أحبها لم تتغير, لمحت في محياها بعض الخطوط التي تظهر واضحةً والتي أضافت إلى ملامحها جمالاً آسراً ومريحاً, لقد أسرني وجهها الذي كنت أحفظه بفؤادي.

قالت: " أتمنى أن تكون قد تخلصت من عقدة الذنب"

-"وسيم: تخلصت يا باتي, وأنا الآن حر طليق, أفديكِ بعمري لو أردتِ, هل تقبلين أن نشيخ سوياً يا عقلة الإصبع؟"

-"سلمى: هي, ما بك يا أخي؟ هل طار عقلك؟ هل هذه الأمور تسير بهذا الشكل المُتخلف؟"

-"بتونيا: لا عليك منها يا شرشبيل, أنا انتظرتك طويلاً؛ لأكبر معك, وبك, لم أنساك, كنت ولا زلت تملئ روحي, أنا أقبل أن أشيخ وأموت معك ومن أجلك"

-"سلمى: ألم أخبركِ قبل قليل أنك مجنونة؟ أصبحتما إثنين الآن "

أتممنا الآن عامنا الثامن سوياً, ورزقنا الله بطفلين جميلين أبهجا حياتنا: زياد وحياة, عشنا كأننا لم نفترق أبداً, أخذتنا الدنيا شرقاً وغرباً, أسقطتنا

أرضاً, ورفعتنا إلى السماء مِراراً, لكننا لم نتبدل بقينا كما تعرفوننا بتونيا ووسيم.

ما اكتشفته في حكايتي أن الإنسان رقيق القلب مهما أبدا عكس ذلك, أن الله يُعطينا أحمالاً؛ يعرف أننا نستطيع تخطيها, أن الحياة ستُرهقنا عاجلاً أم آجلاً, ستُعلمنا أننا إن لم نكسب أنفسنا سنفقد كل شيء, لا تتغاضوا عن أحلامكم, ولا تؤرشفوا ذكرياتكم؛ لأن الأحلام من تصنع المستقبل, والذكريات هي صنيع أحلام الماضي.

دمتم بخير..

"تمت بحمد الله"